

## البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة

### #سورة آل عمران §#

@{الام} \* {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} \* {تَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} \* {مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}

{الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ تَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...}

قلت: فواتح السور كلها موقوفة خالية عن الإعراب؛ لفقدان موجهه ومقتضيه، فيوقف عليها بالسكون، كقولهم: واحد، اثنان. وإنما فَتَحَ الميم هنا في القراءة المشهورة؛ لإلقاء حركة الهمزة عليها. انظر البيضاوي. قال ابن عباس رضي الله عنه: (الألف الأوه، واللام لطفه، والميم مُلكه).

قلت: ولعلَّ كل حرف يشير إلى فرقة ممن توجَّه العتاب إليهم، فالآلاء لمن أسلم من النصراني، والالطف لمن أسلم من اليهود، والملك لمن أسلم من الصحابة - رضوان الله عليهم - فقد ملكهم الله مشارق الأرض ومغاربها. والله تعالى أعلم.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: أيها الملكُ المُعظَّم، والرسولُ المفخَّم، بَلِّغْ قومك أن الله واحد في ملكه، ليس معه إله، ولا يُحِبُّ أن يُعبد معه سواه؛ إذ لا يستحق أن يعبد إلا الحيُّ القيُّوم، الذي تعجز عن إدراكه العقولُ ومدارك الفهوم، فائم بأمر عباده، متصرف فيهم، على وفق مراده، فأعذر إليهم على ألسنة المرسلين، وأنزل عليهم الكتب بيانا للمسترشدين، فنزل {عليك الكتاب} مُتَّجِماً في عشرين سنة، متلبساً {بالحق}، حتى {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه}، أو متلبساً بالحجج التي تدفع كل باطل، أو بالعدل حتى ينتفي به جُور كل مائل، {مصداقاً} لما تقدّم قبله من الكتب الإلهية؛ إذ هو موافق لما فيها من القصص والأخبار، فكان شاهداً عليها بالصحة والإبرار.

{ وأنزل التوراة والإنجيل } من قبله هادياً لمن كُلف باتباعهما من الأنام، أو للجميع، إذا كان شرعٌ من قبلنا شرعاً لنا - معشر أهل الإسلام -، ثم ختم الوحي بإنزال {الفرقان}، وكلف بالإيمان به الإنس والجان، فَرَّقَ به بين الحق والباطل، واندفع به ظلمة كل كافر وجاهل؛ وقدّم ذكره على الكتب؛ لعظم شرفه، وختم به آخراً لتأخر نزوله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لما أراد الحقُّ جلَّ جلاله أن يشير إلى وحدة الذات وظهور أنوار الصفات، قدّم قبل ذلك رموزاً وإشارات، لا يفهمها إلا من غاص في قاموس بحر الذات، وغرق في تيار الصفات، فيستخرج بفكرته من يواقيت العلوم وغوامض الفهوم، ما تحار فيه الأذهان، وتكلِّل عنه عبارة اللسان، فحينئذ يفقه دقائق الرموز وأسرار الإشارات، ويطلع على أسرار الذات وأنوار الصفات، ويفهم أسرار الكتب السماوية، وما احتوت عليه من العلوم اللدنية، والمواهب الربانية، ويشرق في قلبه أنوار الفرقان، حتى يرتقي إلى تحقيق أهل الشهود والعيان. جعلنا الله منهم بمته وكرمه.

ثم هدد من كفر بالفرقان، بعد وضوح سواطع البرهان، فقال:

{... إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ }

قلت: الانتقام والنقمة: عقوبة المجرم.  
وفعله: نقم؛ القاف وفتحها.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين كفروا بآيات الله { المنزلة على نبيه أو على سائر أنبيائه، أو الآيات الدالة على وحدانيته، { لهم عذاب شديد { يوم يظهر نفوذ الوعد والوعيد، فينتقم الله فيه من المجرمين، ويتعطف على عباده المؤمنين، فإن { الله عزيز { لا يغلبه غالب، ولا يقوته هارب، { ذو انتقام { كبير ولفظ كثير. لطف الله بنا وجميع المسلمين. آمين.

الإشارة: ظهور أولياء الله لطف من آيات الله، فمن كفر بهم حُرِمَ بركتهم، وبقي في عذاب الحجاب وسوء الحساب، تظهر عليه النقمة والمحنة، حين يرفع الله المقربين في أعلى عليين، ويكون الغافلون مع عوام المسلمين، (ذلك يوم التغابن). والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } \* { هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الله لا يخفى عليه شيء { من أمر خلقه، إيماناً أو كفراناً، طاعة أو عصياناً، أحاط علمه بما في السماوات العلي وما في الأرضين السفلى، كلياً كان أو جزئياً، حسياً أو معنوياً، يعلم عدد الحصى والرمال، ومكاييل المياه ومثاقيل الجبال، ويعلم حوادث الضمائر، وهو اجس الخواطر، بعلم قديم أزلي، وله قدرة نافذة وحكمة بالغة، فبقدره صَوَّرَ النَّطْفَ في الأرحام كيف شاء سبحانه من نقص أو تمام، وأتقنها بحكمته، وأبرزها إلى ما يَسَّرَ لها من رزقه، سبحانه من مدير عليم، عزيز حكيم، لا يُعجزه شيء، ولا يخرج عن دائرة علمه شيء، لا موجود سواه، ولا نعبد إلا إياه، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الإشارة: مَنْ تحقق أن الله واحدٌ في ملكه، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأنه أحاط به علماً وسمعاً وبصراً، وأن أمره بين الكاف والنون، { إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } [يس: 82] - كيف يشكو ما نزل به منه إلى أحد سواه؟ أم كيف يرفع حوائجه إلى غير مولاه؟ أم كيف يعول هما، وسيدّه من خيره لا ينسأه؟ من دبرك في ظلمة الأحشاء، وصوِّرك في الأرحام كيف يشاء، وأتاك كل ما تسأل وتشاء، كيف يَنسَأكَ من بره وإحسانه؟ أم كيف يخرجك عن دائرة لطفه وامتنانه؟ وفي ذلك يقول لسان الحقيقة:

تَذَكَّرَ جَمِيلِي فِيكَ إِذْ كُنْتَ تُبْهِقَةً      وَلَا تَنْسَ تَصَوِّيرِي لِشَخْصِكَ فِي الْحَشَا  
وَكُنُّ وَائْتِقَا بِي فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا      سَاكُفِيكَ مِنْهَا مَا يُخَافُ وَيُحْتَشَى  
وَسَلَّمَ لِي الْأَمْرَ وَاعْلَمَ بِأَنْبِي      أَصْرَفُ أَحْكَامِي وَأَفْعَلُ مَا أَشَا

@ { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا

يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ \* { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ } \* { رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ }

قلت: { منه } : خير مقدم، و { آيات } : مبتدأ، فيوقف على { الكتاب } ، وقيل: { منه } : نعت لكتاب، وهو بعيد.

قال ابن السبكي: المحكم: المتضح المعنى، والمتشابه: ما استأثر الله بعلمه، وقد يُطْلَعُ عليه بعض أصفياؤه. و { هن أم الكتاب } : جملة، وحق الخبر المطابقة فيقول: أمهات، وإنما أفردته على تأويل كل واحد، أو على أن الكل بمنزلة آية واحدة. والزيغ: الميل عن الحق. و { الراسخون في العلم } : معطوف على { الله } ، أو مبتدأ؛ إن فسر المتشابه بما استأثر الله بعلمه، كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة، أو بما دلَّ القاطع على أن ظاهره غير مراد. قاله البيضاوي. و { إذ هديتنا } : ظرف مجرور بالإضافة مسبوك بالمصدر، أي: بعد هدايتك إيانا.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: إن الذي انفرد بالوحدانية والقيومية، ولا يخفى عليه شيء في العالم العلوي والسفلي { هو الذي أنزل عليك الكتاب } المبين، فمنه ما هو { آيات محكمات } واضحات المعنى، لا اشتباه فيها ولا إجمال، { هن أم الكتاب } أي: أصله، يُرد إليها غيرها، { و } { منه آيات } { آخر متشابهات } أي: محتملات، لا يتضح مقصودها؛ لإجمالها أو مخالفة ظاهر؛ إلا بالفحص وجودة الفكر، ليظهر فضل العلماء التُّقَاد، ويزداد حرصهم على الاجتهاد في تدبرها وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها، فينال بها، وابتغاب القرائح في استخراج معانيها، والتوفيق بينها وبين المحكمات، أعلى الدرجات وأرفع المقامات.

قال في نوادر الأصول: لما تكلم على المتشابه قسمه على قسمين؛ منه ما طوى علمه إلا على الخواص؛ كعلم فواتح السور، ومنه ما لم يصل إليه أحد من الرسل فمن دوتهم، وهو سر القدر؛ لا يستقيم لهم مع العبودية، ولو كُشِفَ لفسدت العبودية، فطواه عن الرسل والملائكة؛ لأنهم في العبودية، فإذا زالت العبودية احتمولها؛ أي: أسرار القدر. هـ. ولمثل هذا يشير قول سهل: للألوهية سر - لو انكشف لبطلت النبوة، وللنبوة سر - لو انكشف لبطل العلم، وللعلم سر لو انكشف لبطلت الأحكام. هـ.

قلت: فَتَجَسَّلَ أَنْ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْمَحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ. وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: { كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ } [هُود: 1] فمعناه: أنها حُفِظَتْ مِنْ فُسَادِ الْمَعْنَى وَرِكَائَةِ اللَّفْظِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { كِتَابًا مُتَشَابِهًا } [الرَّمْر: 23] معناه: أنه يشبهه بعضه بعضاً في صحة المعنى وجزالة اللفظ.

ثم إن الناس في شأن المتشابه على قسمين: { فأما الذين في قلوبهم زيغ } : أي: شك، أو ميل عن الحق، كالمبتدعة وأشباههم، { فيتبعون ما تشابه منه } ، فيتعلقون بظاهره، أو بتأويل باطل، { ابتغاء الفتنة } أي: طلباً لفتنة الناس عن دينهم؛ بالتشكيك والتليس، ومناقضة المحكم بالمتشابه، { وابتغاء تأويله } على ما يشتهون ليوافق بدعتهم.

رُوِيَ عن عائشة - رضي الله عنها-: أن النبي صلى الله عليه وسلم - قرأ هذه الآية فقال:  
@ "إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنِ الْمُتَشَابِهِ مِنْهُ، وَيَجَادِلُونَ فِيهِ، فَهَمُّ الَّذِينَ عَنَّا اللَّهُ تَعَالَى، فَاحْذَرُوهُمْ، وَلَا تَجَالِسُوهُمْ".

{ وما يعلم تأويله { إلا الله { تعالى، وقد يُطَّلَعُ عَلَيْهِ بَعْضَ خَوَاصِّ أَوْلِيَائِهِ، وَهَمُّ { الرَّاسِخُونَ { أَي: الثَّابِتُونَ فِي الْعِلْمِ، وَهَمُّ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ أَهْلُ الْفَنَاءِ وَالْبَقَاءِ، وَهَمُّ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ... فَقَدْ أَطْلَعَهُمْ تَعَالَى عَلَى أَسْرَارِ غَيْبِهِ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مُتَشَابِهٌ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السَّنَةِ، حَالُ كَوْنِهِمْ { يَقُولُونَ أَمْنَا بِهِ { ، وَصَدَقْنَا أَنَّهُ مِنْ كَلَامِهِ، { كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا {؛ الْمَحْكَمُ وَالْمُتَشَابِهُ، وَقَدْ فَهَمْنَا مَرَادَهُ فِي الْقَسْمِينَ، وَهَمُّ أَوْلَى الْأَلْبَابِ، وَلِذَلِكَ مَدَحَهُمْ فَقَالَ: { وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أَوْلَى الْأَلْبَابِ { أَي: الْقُلُوبِ الصَّافِيَةِ مِنْ ظُلْمَةِ الْهَوَى وَعَبَثِ الْحَسَنِ.

سُئِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: مَنْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ؟ فَقَالَ: " مَنْ بَرَّ يَمِينَهُ، وَصَدَّقَ لِسَانَهُ، وَاسْتَقَامَ قَلْبَهُ، وَعَفَّ بَطْنَهُ وَفَرَجَهُ، فَذَلِكَ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ " وَقَالَ نَافِعُ بْنُ يَزِيدَ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الْمُتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ، الْمُتَذَلِّلُونَ فِي طَلَبِ مَرْضَاتِ اللَّهِ، لَا يَتَعَظَّمُونَ عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، وَلَا يَحْقِرُونَ مَنْ دُونَهُمْ. هـ. وَقِيلَ: الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ: مَنْ وَجَدَ فِيهِ أَرْبَعَةٌ أَشْيَاءَ: التَّقْوَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، وَالتَّوَاضُعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَالزَّهْدَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، وَالمُجَاهِدَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. هـ. قُلْتُ: وَيَجْمَعُ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْعَارِفُ بِاللَّهِ، فَهُوَ الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ كَمَا تَقَدَّمَ.

ويقولون أيضاً في تضرعهم إلى الله: { ربنا لا تزغ قلوبنا { عن نهج الحق بالميل إلى اتباع الهوى، { بعد إذ هديتنا { إلى طريق الوصول إلى حضرتك، { وهب لنا من لدنك رحمة { تجمع قلوبنا بك، وتضم أرواحنا إلى مشاهدة وحدانيتك، { إنك أنت الوهاب {؛ تهب للمؤمل فوق ما يؤمل. { ربنا إنك جامع الناس ليوم { الجزاء الذي { لا ريب فيه { ، فاجمعنا مع المقربين؛ إنك { لا تخلف المعياذ { فأنجز لنا ما وعدتنا في ذلك اليوم. وخلف الوعد في حقه تعالى محال. أما الوعد بالخير فلا إشكال، وأما الوعيد بالشر، فإن كان في مُعَيَّنٍ فلا يخلفه، وإن كان في الجملة فيخلفه بالعفو. والله تعالى أعلم.

وقال في النوادر أيضاً: لَمَّا رَدَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ عِلْمَ الْمُتَشَابِهِ إِلَى عَالَمِهِ، حَيْثُ قَالُوا: { أَمْنَا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا { ، خَافُوا شَرَّهَ النَّفُوسِ لَطْلِبِهَا؛ فَإِنَّ الْعِلْمَ لَذِيذٌ، وَفِتْنَةٌ تَلِكُ اللَّذَّةَ لَهَا عِتَابٌ، فَفَزَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ فَقَالُوا: { رَبِّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً { ، عَلِمُوا أَنَّ الرَّحْمَةَ تَطْفِئُ تَلِكَ الْفِتْنَةَ. وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْكَشِفُ فِيهِ سِرُّ الْقَدْرِ حَنُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: { رَبِّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ... { الآية. سَكَنُوا نَفُوسَهُمْ لِمَجِيءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي تَبْطِنُ فِيهِ الْحِكْمَةُ، وَتُظْهِرُ فِيهِ الْقُدْرَةَ. هـ. بِالْمَعْنَى.

الإشارة: إذ صفت القلوب، وسكنت في حضرة علام الغيوب، تنزلت عليها الواردات الإلهية والعلوم اللدنية، والمواهب القدسية، فمنها ما تكون محكمات المبنى، واضحة المعنى، ومنها ما تكون مجملة في حال ورودها، وبعد الوعي يكون البيان،  
@ فَإِذَا قَرَأْتَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ {

[القيامة: 18، 19]. وقد تكون خارجة عن مدارك العقول. فأما أهل الزيف والانتقاد فيتبعون المتشابه من تلك الواردات، ابتغاء فتنة العامة، وصرافهم عن طريق الخاصة، وابتغاء تأويله، ليقم عليه حجة الشريعة، { وما يعلم تأويله إلا الله } ، أو من تحقق فناؤه في الله، وهم الراسخون في معرفة الله، يقولون: { آمنا به كل من عند ربنا }؛ إذ القلوب المطهرة من الهوى لا نطق عن الهوى، وهم أرباب القلوب يقولون: { ربنا لا تزغ قلوبنا } عن حضرة قدسك { بعد إذ هديتنا } إلى الوصول إليها، { وهب لنا من لدنك رحمة } تعصمنا من النظر إلى سواك، { إنك أنت الوهاب }.

ربنا إنك جامع الناس. وهم السائرون إليك ليوم لا ريب في الوصول إليه، وهو يوم اللقاء، { إنك لا تخلف الميعاد } فاجمع بيننا وبينك، وحل بيننا وبين من يقطعنا عنك؛ { إنك على كل شيء قدير }.

@ { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أََمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ } \* { كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّوهُمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ }

قلت: { الوقود } بالفتح: الحطب، وبالضم: المصدر، { كذاب آل فرعون } خير، أي: دأبهم كذاب آل فرعون. والدأب: مصدر دأب، إذا دام، ثم نقل إلى الشأن والعادة، و { كذبوا } : حال بإضمار " قد " ، أو مستأنف، تفسير حالهم، أو خبر؛ إن ابتدأت بالذين من قبلهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين كفروا } بما أنزلته، على نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -، إذا عابوا العذاب { لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله } ، أي: بدلاً من رحمته أو طاعته، أو بدلاً من عذابه، { شيئاً } وأولئك هم حطب جهنم، فشأنهم كشأن { آل فرعون والذين من قبلهم } ، قد { كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم } أي: أهلكتهم، وشدد العقوبة عليهم، { والله شديد العقاب } لمن أعرض عنه وركن إلى غيره.

الإشارة: كل من جحد أهل الخصوصية، وفاته حظه من مشاهدة عظمة الربوبية، حتى حصل له الطرد والبعد، وفاته مرافقة أهل المحبة والوداد، لن تغني عنه - بدلاً مما فاته - أموالاً ولا أولاد، واتصلت به الأحزان والأنكاد؛ كما قال الشاعر:

مَنْ قَاتَهُ مِنْكَ وَصَلُ حَظُّهُ النَّدْمُ وَمَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو بِهِ الِهِمُّ  
وقال آخر:

مَنْ قَاتَهُ طَلَبَ الْوُصُولَ وَتَبَلُّهُ مِنْهُ، فَقُلْ: مَا الَّذِي هُوَ يَطْلُبُ!  
حَسْبُ الْمَجِبِّ فَنَاؤُهُ عَمَا سِوَى مَحْبُوبِهِ إِنْ حَاضِرٌ وَمُعْتَبٌ  
وقال آخر:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عَوْضٌ وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتِ مِنْ عَوْضٍ  
وفي الحكم: " ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ؟ وما الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟ لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ  
دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك مُتَحَوِّلاً ". فكل من وقف مع شيء من

السُّوَى، وفاته التوجه إلى معرفة المولى، فهو في نار القطيعة والهوى، مع النفوس الفرعونية، وأهل الهمم الدنية. نسأل الله تعالى العافية.

ثم بدأ بعتاب اليهود، بعد أن قرر شأن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من المحكم والمشابه، توطئة للكلام معه.

@ { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَيَّا جَهَنَّمَ وَبئسَ الْمِهَادُ } \* { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ }

قلت: لمَّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بدر غالباً منصوراً بالغنائم والأسارى، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فإنكم تعلمون أنني رسول الله حقاً، واحذوا أن يُنزل الله بكم من نِقْمته ما أنزل على قريش يوم بدر، فقالوا: يا محمد، لا يُعزِّبُكَ أنكَ لقيت أعماراً لا علم له علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا لتعلمنَّ أننا نحن الناس. فأنزل الله فيهم هذه الآية.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { قل } يا محمد { للذين كفروا } من بني إسرائيل، أو مطلقاً: { ستغلبون } إن قاتلتهم المسلمين، { وتحشرون } بعد الموت والهزيمة { إلى جهنم وبئس المهاد } ما مهدتم لأنفسكم من العذاب، وقد صدق وعده بقتل قريظة، وإجلاء بني النضير، وفتح خيبر، وضرب الجزية على من عداهم، فقد غلبوا أينما تُقفوا، وحشروا إلى جهنم، إلا من أسلم منهم.

ثم نديهم للاعتبار بما وقع من النصر للمسلمين يوم بدر فقال لهم: { قد كان لكم } يا معشر اليهود، { آية } أي: عبرة ظاهرة، ودلالة على صدق ما أقول لكم: إنكم ستغلبون، { في فئتين } أي: جماعتين { التقتا } يوم بدر، وهم المسلمون، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر، والمشركون كانوا زهاء ألف، { فئة تقاتل في سبيل الله } وهم المؤمنون، { وأخرى كافرة } ، وهم المشركون، { ترونهم مثلهم } أي: ترون، يا معشر اليهود، الكفار مثلي عدد المسلمين رأي تحقيق، ومع ذلك أيدهم الله بالنصر والمدد حتى نصرهم على عدوهم، وكذلك يفعل بهم معكم.

والرؤية، على هذا، علمية. ومن قرأ (بالباء) يكون الضمير راجعاً للكفار، أي: يرى الكفار المسلمين مثلهم، وذلك بعد أن قللهم الله في أعينهم حتى اجترأوا عليهم، وتوجهوا إليهم، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، مدداً من الله للمؤمنين.

أو: يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين، وكانوا ثلاثة أمثالهم، ليثبتوا لهم، ويتيقنوا بالنصر الذي وعدهم الله بقوله:

{ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ... }

[الأنفال: 65] الآية. { والله يؤيد } أي: يقوي { بنصره من يشاء } نصره، كما أيد أهل بدر، { إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار } المفتوحة. وذلك حين نصر الله قوماً لا عدد لهم ولا عدة، على قوم لهم عدد وعدة، فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

الإشارة: إذا توجه القلب إلى مولاه تعرض له جندان، أحدهما: جند الأنوار، وهو جند القلب، والثاني: جند الأغيار، وهو جند النفس، فيلتحم بينهما القتال، فجدد الأنوار يريد أن يرتقي بالروح إلى وطنها؛ وهو حضرة الأسرار، وجند الأغيار يريد أن يهبط

بالنفس إلى أرض الحطوط والشهوات، فيحبسها في سجن الأكوان، فإذا أراد الله تعالى سعادة عبد، قوي له جند الأنوار، وصَعَّفَ عنه جند الأغيار، فينهزم عنه جند الأغيار، ويستولي على قلبه جند الأنوار، فلا تزال انوار تتوارد عليه حتى تشرق عليه أنوار المواجهة، فيدخل حضرة الأسرار، وهي حضرة الشهود، ويتحصن في جوار الملك الودود، وتناديه السنة الهواتف: أيها العارف، قل للذين كفروا، وهم جند الأغيار: ستغلبون وتحشرون إلى جهنم ويئس المهاد. وإذا أراد الله خذلان عبده، بعدله، قطع عنه مدد الأنوار، وقوي لديه جند الأغيار، فتستولي ظلمة النفس على نور القلب، فتحبسه في سجن الأكوان، وتسجنه في ظلمة هيكل الإنسان، { والله يؤيد بنصره من يشاء }. ففي التقاء جندي الأنوار والأغيار عبرة لأولي الأبصار.

@ { زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْحَيْلِ الْمَسْوُومَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ }

قلت: { زَيْن } بحذف الفاعل، وهو الله، حقيقة؛ إذ لا فاعل سواه، أو الشيطان، شريعة؛ إذ هو منديل لمسح أوساخ الأقدار. والقنطار: المال الكثير، وقيل: ألف دينار، وقيل: ملء مسك الثور. وروى عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: " القنطار: ألف دينار " ، وفي رواية: " ألفا دينار " ، وفي عرفنا اليوم: ألف مثقال.

والمقنطرة: المنضدة بعضها فوق بعض، وسمي الذهب ذهباً؛ لذهابه وفنائه، أو لذهابه بالقلوب عن حضرة الغيوب، وسميت الفضة فضة؛ لأنها تنقُضُ أي: تفرق، أو تفرق القلوب لمن اشتغل بها. والمسوومة: المعلمة أو الراعية أو المطهمة الحسان.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ } والركون إلى المألوفات، حتى صرفهم ذلك عن النظر والاعتبار، أو الشهود والاستبصار، وذلك لمن وقف مع متعتها، وغرته شهوة لذتها، وأما من ذكرته نعيم الجنان، وأعانتها على طاعة الملك الديان، فلم يقف مع متعتها، ولا التفت إلى عاجل شهوتها، بل نزل إليها بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين، فلا يشملها تحذير الآية؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام -: " حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ... " الحديث.

وقال بعض الأولياء: [كل شهوة تحجب القلب عن الله، إلا شهوة الجماع] يعني الحلال، وقال الورتجبي: ابتلاهم حتى يظهر الصادق بترك هذه الشهوات، من الكاذب بالشروع في طلبها، قيل: من اشتغل بهذه الأشياء قطعت عنه طريق الحق، ومن استصغرها وأعرض عنها، عوض عليها السلامة منها، وفتح له الطريق إلى الحقائق. هـ.

ثم بدأ برأس الشهوات فقال: { من النساء } وذلك لمن شُغِفَ بهن فصرف عن ذكر الله، أو تناولهن على وجه الحرام. وفي الخبر عنه - عليه الصلاة والسلام -: " مَا تَرَكْتُ فِي النَّاسِ بَعْدِي فِتْنَةً أَصْرُّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ " وفي خبر آخر: " النظر إلى محاسن المرأة من سهام إبليس " وَمَنْ تَمَّ جُعِلَ فِي الْقُرْآنِ عَيْنَ الشَّهَوَاتِ، قال تعالى: { زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ }.

وقال بعض العارفين: ما أيسر الشيطان من إنسان قط إلا أتاه من قبل النساء. وقال علي رضي الله عنه: أيها الناس، لا تطيعوا للنساء أمراً، ولا تدعوهن يدبرن.

أمر عيش، فإنهن إن تُركنَ وما يُردنَ أفسدن الملك، وعصين المالك، وجدناهن لا دين لهن في خلواتهن، ولا ورع لهن عن شهواتهن اللذة بهن يسيرة، والحيرة بهن كثيرة، فأما صوالهن ففاجرات، وأما طوالهن فعاهرات - أي: زانيات -، وأما المعصومات فهن المعدومات، يتظلمن وهن الظالمات، ويتمنعن وهن الراغبات، وبحلفن وهن الكاذبات، فاستعيزوا بالله من شرارهن، وكونوا على وجل من خيارهن، والسلام. هـ.

{ والبنين } قال - عليه الصلاة والسلام -: "إنهم لثمرة القلوب، وقُرَّةُ الأعيُن، وأنهم مع ذلك لَمَجَبَّةٌ مَبْحَلَةٌ مَحْرَنَةٌ " @والقناطير المقنطرة { أي: المجموعة المنضدة، { من الذهب والفضة. والخيل المسومة { أي: المعلمة: وهي البلق، أو غيرها، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يَومِ القِيَامَةِ، الأجرُ والمَعْنَمُ " .

وعن أنس قال: (لم يكن شيء أحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد النساء، من الخيل). وعن أبي وهب الجشمي قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ارتبطوا الخيل، وامسحوا بنواصيها، وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار، وعليكم بكل كميت أغر مُحَجَّل، أو أشقر أغر محجل، أو أدهم أغر مُحَجَّل " وعن خباب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الخيل ثلاثة: فرس للرحمن، وفرس للإنسان، وفرس للشيطان، فأما فرس الرحمن فما اتخذ لله في سبيل الله، وقوتل عليه أعداء الله، وأما فرس الإنسان فما استطرق عليه " - أي: ركب عليه في طريق حوائجه، " وأما فرس الشيطان فما روهن عليه، وقومر عليه " وفي البخاري ما يشهد لهذا.

ومما زُين للناس أيضاً: حب { الأنعام } ، وهي الإبل والبقر والغنم، إن شغلته عن ذكر الله، ومنع منها حق الله، { والحرب } { أي: الزراعة والغراسة، { ذلك } الذي ذكرت { متاع الحياة الدنيا } الفانية الزائلة، { والله عنده حسن المآب } ، أي: المرجع في دار البقاء التي لا يفنى نعيمها، ولا تنقطع حياتها إلى أبد الأبد.

الإشارة: كل ما يقطع القلب عن الشهود، أو يُقْتَرَهُ عن السير إلى الملك المعبود، فهو شهوة، كائناً ما كان، أغياراً أو أنواراً، أو علوماً أو أحوالاً، أو غير ذلك، فالنساء الأغيار، والبنون الأنوار، والقناطير المقنطرة من الذهب علوم الطريقة، والفضة علوم الشريعة، والخيل المسومة هي الأحوال، والأنعام الأذكار، والحرب استعمال الفكرة. فكل مَنْ وقف مع حلاوة شيء من هذا، ولم يُفَضِّ إلى راحة الشهود والعيان، فهي في حقه شهوة.

وبعد أن ذكر الحق تعالى أنواعاً من الشهوات، رَهَّدَ فيها فقال: { ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب } قال أبو هاشم الزاهد رضي الله عنه: وَسَمَ اللهُ الدنيا بالوحشة؛ ليكون أنس المرید بربه دونها، وليقبل المطيعون بالإعراض عنها، وأهل المعرفة بالله من الدنيا مستوحشون، وإلا الله مشتاقون. هـ.

وقد تعوَّذ النبي صلى الله عليه وسلم من شر فتنتها، غناها وفقرها. وأكثر القرآن مشتملاً على ذمها، وتحذير الخلق منها، بل ما من داع يدعو إلى الله تعالى إلا وقد حذر منها، ورغب في الآخرة، بل هو المقصود بالذات من بيان الشرائع، وكيف لا - وهي عدوة الله؛ لقطعها طريق الوصلة إليه، ولذلك لم ينظر إليها منذ خلقها. وعدوة



لأوليائه؛ لأنها تزينت بزینتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها، وعدوة لأعدائه؛ لأنها استدرجتهم بمكرها، واقتنصتهم بشبكتها، فوثقوا بها، فخذلتهم أحوح ما كانوا إليها، كفانا الله شرها بمنه وكرمه.

@ { قُلْ أُوْتِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } \* { الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } \* { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ }

قلت: { للذين } : خبر، و { جنات } : مبتدأ، وهو استئناف لبيان الخيرية، والرضوان فيه لغتان: الضم والكسر، كالعدوان والطغيان، و { الذين يقولون } : بدل من { الذين اتقوا } ، أو خبر عن مضمرة، أو منصوب على المدح، أو بدل من العباد، و { الصابرين } وما بعده: نعت الموصول.

يقول الحق جلّ جلاله: { قل } يا محمد: أخبركم { بخير } من الذي ذكرث لكم من الشهوات الفانية واللذات الزائلة، وهو ما أعد الله للمتقين عند لقاء ربهم، وهو { جنات تجري من } تحت قصورها الأنهار؛ من الماء واللبن والعسل والخمر، { خالدين فيها } ، لا كنعيم الدنيا الفاني، { ولهم فيها أزواج } من الحور العين، مطهرات من الحيض والنفاس وسائر المستقذرات، { ورضوان من الله } الذي هو { أكبر } النعم.

فانظر: كيف ذكر الحقّ - جلّ جلاله - أدنى النعيم وأوسطه وأعلىه؟ فأدناه: متاع الدنيا الذي رُين للناس، وأوسطه: نعيم الجنان، وأعلىه: رضي الرحمن، وفي الحديث الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: " يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فيقول: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا لَنَا لَا تَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: إِلَّا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْحَطُ عَلَيْكُمْ بَدَأً " .

{ والله بصير بالعباد }؛ لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فيثيب المحسن، ويعاقب المسيء، أو: { بصير } بأحوال المتقين.

{ الذين يقولون ربنا إنا آمنة فاعفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار } . وفي ترتيب السؤال على مجرد الإيمان دليل على أنه كاف في استحقاق المغفرة والاستعداد لها.

ثم وصف المتقين بقوله: { الصابرين } على أداء الأمر واجتناب النهي، وفي البأساء والضراء وحين البأس، { والصادقين } في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فاستوى سرهم وعلانيتهم، { والقائتين } أي: المطيعين، { والمنفقين } أموالهم في سبيل الله، { والمستغفرين بالأسحار }؛ لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة؛ لأن العبادة حينئذ أشق، والنفوس أصفى، والروح أجمع، ولا سيما للمتجهدين.

قيل: إنهم كانوا يُصلُّون إلى السحر، ثم يستغفرون ويدعون، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن الله تعالى يقول: إني لأهَمُّ بأهل الأرض عذاباً، فإذا

نظرت إلى عُمّار بيوتي، وإلى المتجهدين، وإلى المتحابين فيّ، وإلى المستغفرين  
بالأسحار، صرفت عنهم العذاب ."

وقال سفيان: إن لله ريحاً يقال لها الصيحة، تهبُّ وقتَ السحر، تحمل الأذكار  
والاستغفار إلى الملك الجبار. قال: وبلغنا أنه إذا كان أولاً لليل، نادى مناد: ألا ليقيم  
القانتون، فيقومون يُصلون إلى السحر، فإذا كان وقت السحر، ينادي مناد: أين  
المستغفرون بالأسحار؟ فيستغفر أولئك، ويقوم آخرون، ويُصلون، فيلحقون بهم، فإذا  
طلع الفجر، نادى مناد: ألا ليقيم الغافلون، فيقومون من فرشهم كالموتى إذا نُشروا  
من قبورهم.

@الإشارة: للذين اتقوا شهودَ السّوى عند ربهم جنات المعارف، تجري من تحتها  
أنهار العلوم، وأصناف الحكم، مطهرة من العلل، منزهة من الخلل، تهب عليهم  
نسيم الرضوان، تحمل الرُّوحَ والريحان، مخلدون في نعيم الشهود والعيان، والله  
بصير بعباده المخلصين، المنزهين من العيوب، المبرزين من درن الذنوب، الصابرين  
على دوام المجاهدة، والصادقين في طلب المشاهدة، والقانتين لأحكام العبودية،  
والمنفقين أنفسهم ومهجهم في طلب مشاهدة أنوار الربوبية، والمستغفرين من  
شهود الأغيار، وخصوصاً إذا هبّ نسيم الأسحار، فإن كثيراً من العباد والزهاد  
شغلتهم حلاوة نسيم الأسحار عن مطالعة أسرار الجبار، وهي أسرار التوحيد.

@ { يَشْهَدُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا يَلْفِظُ لَا إِلَهَ إِلَّا  
هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } \* { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الذِّمِّيُّ أَوْ ثَوًّا الْكِتَابِ  
إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
الْحِسَابِ }

قلت: { قائماً } : حال من { الله } ، وإنما جاز من بعض المعطوفات لعدم اللبس،  
كقوله:

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً... }

[الأنبياء: 72]، ولا يجوز: جاء زيد وعمر راكباً؛ لعدم القرينة، أو من { هو } ، والعمل  
الجملة؛ لأنه حال مؤكدة، أي: تفرد قائماً، أو حقه قائماً، { بالقسط } أي: العدل، و  
{ إن الدين } : جملة مستأنفة مؤكدة للأولى، أي: لا دين مرضى عند الله سوى  
الإقرار بالشهادة والدخول فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قرأ بالفتح  
فهو بدل من { أنه } ، بدل الكل، إن فسر الإسلام بالإيمان، وبدل الاشتمال إن  
فسر بالشريعة.

يقول الحقُّ جلّ جلاله: { شهد الله أنه لا إله إلا هو } أي: بين وحدانيته بنصب  
الدلائل الدالة عليها وإنزال الآيات الناطقة بها، أو بتدبيره العجيب وصنعتة المتقنة  
وأموره المحكمة، وفي ذلك يقول القائل:

يَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ      أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ؟!

ولله في كل تحريكٍ      وتسكينٍ أبدأً شاهدٌ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ      تدلُّ على أنه واجِدٌ

وقيل لبعض العرب: ما الدليل على أن للعالم صناعاً؟ فقال: البعرة تدل على البعير،  
وأثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه  
الكثافة، أما يدلان على الصانع الخبير؟!

{ و } شهدت { الملائكة } أيضاً بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها، { وأولوا العلم } وهم: الأنبياء والعلماء بالله، بالإيمان بها والاحتجاج عليها، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة الشاهد. وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم، حيث قرن شهادتهم بشهادته؛ لأن العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى، والعلماء أعلام الإسلام، والسابقون إلى دار السلام، وسُرح الأمكنة وحجج الأزمنة.

وعن جابر قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " سَاعَةٌ مِنْ عَالَمٍ يَتَّكِي عَلَى فِرَاشِهِ، يَنْظُرُ فِي عِلْمِهِ، حَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْعَايِدِ سَبْعِينَ عَامًا " وعن معاذ قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشيةٌ، ومدارسته تسبيحٌ، والبحث فيه جهادٌ، وتعليمه مَنْ لا يعلمه صدقةٌ، وتذكره في أهله قُرْبَةٌ " ثم قال في آخر الحديث في فضل أهل العلم: " وَتَزَعَبُ الْمَلَائِكَةُ فِي حُلَّتِهِمْ، وَبَاجَنَحَتِهَا تَمْسُحُهُمْ، وَفِي صَلَاتِهَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ، وَكُلُّ رَطْبٍ وَيَابَسٍ يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ. حَتَّى حَيْتَانَ الْبَحْرِ وَهَوَامِهِ، وَسَبَاعِ الْأَرْضِينَ وَأَنْعَامِهَا، وَالسَّمَاءِ وَنَجُومِهَا، أَلَا وَإِنَّ الْعِلْمَ حَيَاةُ الْقُلُوبِ مِنَ الْعَمَى، وَنَوُزُ الْأَبْصَارِ مِنَ الظُّلْمِ، وَقُوَّةُ الْأَبْدَانِ مِنَ الضَّعْفِ، يَبْلُغُ بِالْعَبْدِ مَنْزِلَ الْأَحْرَارِ وَمَجَالِسَةَ الْمُلُوكِ، وَالْفِكْرَ فِيهِ يُعَدُّلُ بِالصِّيَامِ، وَمَدَارِسَتَهُ بِالْقِيَامِ، وَبِهِ يُعْرَفُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَبِهِ تُوصَلُ الْأَرْحَامُ، الْعِلْمُ إِمَامٌ وَالْعَمَلُ تَابِعُهُ، يُلْهَمُهُ بِالسَّعْدَاءِ، وَيُخَرِّمُهُ الْأَشْقِيَاءَ " .

حال كون الحق تعالى { قائماً بالقسط } أي: مُدبراً لأمر خلقه بالعدل، فيما حكم وأبرم، { لا إله إلا هو } ، كرر الشهادة للتأكيد، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد، والحكم به، بعد إقامته الدليل.

@عليه وقال جعفر الصادق: (الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم). أي: قولوا: { لا إله إلا هو } ، أو ليرتب عليه قوله: { العزيز الحكيم } ، فيعلم أنه الموصوف بهما، وقدم { العزيز } ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته.

{ إن الدين عند الله الإسلام } أي: إن الدين المرضي عند الله هو الانقياد لأمر التوحيد والإذعان لمن جاء به. وَرُوِيَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ قَرَأَ هَذِهِ آيَةَ عِنْدَ مَنَامِهِ خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى سَبْعِينَ أَلْفَ خَلْقٍ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " وهي أعظم شهادة في كتاب الله، " من قرأها إلى (الحكيم) وقال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة، يقول الحق تعالى: إن لعبي هذا عندي عهداً وأنا أحقُّ مَنْ وفى بالعهد، أدخلوا عبي الجنة " .

الإشارة: صدر الآية يشير إلى الفرق، وَعَجَّزُهَا يشير إلى الجمع، كما هي عادته تعالى في كتبه العزيز، يشرع أولاً، وَيُحَقِّقُ ثانياً، فأثبت الحق - جلَّ جلاله - شهادة الملائكة وأولى العلم مع شهادته؛ لإثبات سر الشريعة، ثم محاها بقوله: { لا إله إلا هو العزيز الحكيم } بحكم الحقيقة. فأثبت الرسوم شريعة، ومحوها حقيقة، فتوحيد أهل الرسوم والأشكال دلالة من وراء الحجاب، وتوحيد أهل المحو والاضمحلال شهادة من داخل الحجاب، وتوحيد أهل الرسوم دلالة وبرهان، وتوحيد أهل المحو شهادة وعيان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. إثبات الرسوم إسلام وإيمان، ومحوها شهود وإحسان، وكل توحيد لم تظهر ثمرته على الجوارح من الإذعان والانقياد لأحكام العبودية فهو مخدج، لقوله تعالى:

{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }

[آل عمران: 19] أي، الانقياد والإذعان، ظاهراً وباطناً، لأحكام القهريّة والتكليفية، فمن لا انقياد له لا دين له كاملاً.

ثم ذكر من سبق له الخذلان بعد سطوع الدليل والبُرهان، فقال:

{... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

قلت: { بغياً } مفعول له، علة للاختلاف.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وما اختلف { اليهود والنصارى في حقيقة الإسلام والتدين به، { إلا من بعد ما جاءهم العلم { أي: من بعد ما تمكنوا من العلم بصحته، وأن الدين عند الله هو الإسلام، فجحدوه ظلماً وحسداً. أو ما اختلف أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام؛ فأثبته قوم، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقاً، إلا من بعد ما ثبت لهم بصحته وعموم الدعوة له. أو في التوحيد؛ فثلت النصارى، وقالت اليهود: عزير ابن الله، بعد ما صح لهم العلم بالتوحيد فغيروا. وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت، دعا سبعين حبراً من قومه، فاستودعهم التوراة، فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت بينهم الفرقة، وهم: الذين أوتوا الكتاب من أبناء السبعين، فأراقوا الدماء ووقع بينهم الشر والاختلاف.

@ وذلك من بعد ما جاءهم العلم، يعني بيان ما في التوراة، { بغياً بينهم { أي: طلباً للملك والرئاسة والتحاسد، فسلط عليهم الجباية، { ومن يكفر بآيات الله { المنزلة على رسوله، أو الدالة على وحدانيته، { فإن الله سريع الحساب {؛ لا يشغله شأن عن شأن، وفيه تهديد لأهل الاختلاف.

الإشارة: الاختلاف على الصوفية، والإنكار عليهم، إن كان بغياً وحسداً وخوفاً على زوال رئاسة المنكر، فهذا معرض لمقت الله، فقد أذن بحرب الله، وباله سوء الخاتمة، والعياذ بالله، وفي ذلك يقول القائل:

هِمْمُهُمْ تَفْضِي بِحُكِّ الْوَقْتِ مُنِكَرُهُمْ مُعَرَّضٌ لِلْمُقْتِ  
وإن كان غيره على الشريعة، وسداً لباب الذريعة، فهذا معذور أو مأجور إن صح قصده، وهو منخرط في سلك الضعفاء، قال تعالى: {يَسْ عَلَى الصُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمُرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا تَصَحَّوْا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ }  
[التوبة: 91]، ولا ينكر على الفقير إلا المحرّم المجمع على تحريمه، وليس فيه تأويل، كالزنى بالمعينة، واللواط وشبهه، والمؤمن يلتمس المعاذر، والمنافق يلتمس العيوب، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { فَإِنْ جَآجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }

قلت: { ومن اتبعن { ، عطف على فاعل { أسلمت {؛ الضمير.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فإن حاجوك } في الدين، وخاصموك فيه، بعدما أقيمت الحجج على صحته، { فقل } لهم: أما أنا فقد { أسلمت وجهي لله }، وانقدت بكليتي إليه، وتمسكت بدينه القويم، الذي قامت الحجج على حقيقته، وكذلك من تبعني من المؤمنين. وخصّ الوجه بالانقياد؛ لأنه أشرف الأعضاء ومحل ظهور المحاسن، فإذا انقاد الوجه فقد انقاد الكل.

{ وقل للذين أتوا الكتاب } من اليهود والنصارى، { والأمين } الذين لا كتاب لهم من المشركين: { أسلمتم } كما أسلمت؛ لما وضحت لكم من الحجّة؟ أم أنتم على كفركم بغياً وحسداً؟ والاستفهام معناه الأمر، كقوله:

{ قَهْلَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [هُود: 14] أي: أسلموا، { فإن أسلموا فقد اهتدوا } وأنقذاو أنفسكم من الهلاك، { وإن تولوا } وأعرضوا { فإنما عليك البلاغ }، ولا يضرك عنادهم، فقد بلغت ما أمرت به. { والله بصير بالعباد } لا يخفى عليه من أسلم ممن تولى.

رُوي أنه - عليه الصلاة والسلام - قرأ عليهم هذه الآية، فقال لليهود: " أتشهدون أن عزيزاً عبد الله ورسوله وكلمته؟ " فقالوا: معاذ الله، وقال للنصارى: " أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله؟ " فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً. فنزل قوله تعالى: { وإن تولوا فإنما عليك البلاغ } الآية.

الإشارة: لا يليق بالفقير، إذا توجه إليه الإنكار أو المجادلة والاستظهار، إلا السكوت والإقرار، والاستسلام بكليته لأحكام الواحد القهار، إذ لا يرى فاعلاً إلا الله، فلا يركن إلى شيء سواه. وفي الحكم: " إنما أجرى الأذى عليهم لئلا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء، حتى لا تكون ساكناً إلى شيء ". وقال بعض العارفين: لا تشتغل قط بمن يؤذيك، واشتغل بالله يردك عنك، وقد غلط في هذا خلق كثير، اشتغلوا بمن يؤذيهم، فطال عليهم الأذى مع الإثم، ولو أنهم رجعوا إلى مولاهم لكفاهم أمرهم. هـ. بالمعنى. وبهذا يأمر الشيخ أتباعه، فإن انقادوا لأحكام الحق، فقد اهتدوا إلى طريق الوصول، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ، والهداية بيد السميع البصير.

@ { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } \* { أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ }

قلت: إنما دخلت الفاء في خبر إن؛ لتضمن اسمها معنى الشرط؛ لعموم الموصول وإبهامه، وهو خاص بإِنِّ، دون ليت ولعل؛ لأن " إن " لا تغير معنى الابتداء، وإنما تؤكد. وقيل: الخبر: { أولئك... الخ }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين يكفرون بآيات الله } أي: بحججه الدالة على توحّده، وصحة نبوة رسوله، أو بكلامه، وهم اليهود، { ويقتلون النبيين بغير حق } بل بغياً { ويقتلون الذين يأمرون بالعدل وترك الظلم من الأحزاب } فبشرهم بعذاب أليم { موجه، { أولئك الذين حبطت أعمالهم } أي: بطلت، { في الدنيا والآخرة } فلا ينتفعون بها في الدارين، { وما لهم من ناصرين } يمنعونهم من العذاب.

وعن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أيّ الناس أسدُّ عذاباً يوم القيامة؟ قال: " رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا، أو رَجُلٌ أَمَرَ بِالْمُنْكَرِ وَتَهَى

عن المَعْرُوفِ، ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم { ويقتلون النبيين بغير حق } الآية، ثم قال: يا أبا عبيدة، قتلْت بَنُو إِسْرَائِيلَ ثَلَاثَةَ أَرْبَعِينَ نَبِيًّا أَوَّلَ النَّهَارِ فِي سَاعَةٍ، فقام مائة وعشرون من عِبَادِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَمْرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَتَهْوَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، فقتلوهم جميعاً مِنْ آخِرِ النَّهَارِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فهم الذين ذكرهم في كتابه، وأنزل الآية فيهم " هـ. من الثعلبي.

الإشارة: ذكر في الآية الأولى تشجيع المريرين، وأمرهم بالصبر والتسليم لإذابة المؤذنين، وذكر هنا وبال المؤذنين الجاحدين لخصوصية المقرين، فالأولياء والعلماء ورثة الأنبياء، فمن أذاهم فله عذاب أليم، في الدنيا؛ بغم الحجاب وسوء المنقلب، وفي الآخرة؛ بالبعد عن ساحة المقرين، وبالسقوط إلى دَرَكِ الأسفلين، والله تعالى أعلم.

@ { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ } \* { ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَعَرَّيْهِمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } \* { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ }

قلت: التنكير في { نصيب }؛ يحتمل التحقير والتعظيم، والأول أقرب. وجملة: { وهم معرضون }؛ حال من { فريق }؛ يتخصيصه بالصفة.

يقول الحق جل جلاله: { ألم تر } يا محمد، أو مَنْ تصح منه الرؤية، { إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب } وهم: اليهود، تمسكوا بشيء من التوراة، ولم يعملوا به كله، كيف { يدعون إلى كتاب الله } القرآن { ليحكم بينهم } فيما اختلفوا فيه من أمر التوحيد وصحة نبوته - عليه الصلاة والسلام -، فأعرضوا عنه، أو المراد بكتاب الله: التوراة. قال ابن عباس رضي الله عنه: (دخل النبي صلى الله عليه وسلم على جماعة من اليهود، فدعاهم إلى الله تعالى، فقال نُعَيْمُ بْنُ عَمْرٍو وَالْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ: عَلَى أَيِّ دِينٍ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: " عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ " قَالَا: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَهَلَّمُّوا إِلَى التَّوْرَةِ فَهِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ " فَأَبَيَا عَلَيْهِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ). وقيل: نزلت في الرجم، على ما يأتي في العقود.

{ ذلك } الأعراض بسبب اغترارهم وتسهيلهم أمر العقاب، فقالوا: { لن تسمنا النار إلا أياماً معدودات }؛ أربعين يوماً، قدر عبادتهم العجل، ثم يخلفهم المسلمون، { وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون } بزعمهم الفاسد وطمعهم الفارغ.

يقول الحق جل جلاله: { فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه }، وهذا تهويل لشأنهم، واستعظام لما يحق بهم، { ووفيت كل نفس ما كسبت } من خير أو شر، { وهم لا يظلمون } أي: لا يخسرون من أعمالهم شيئاً، فلا ينقص من الحسنات، ولا يزداد على السيئات. وفيه دليل على أن المؤمن لا يخلد في النار. قال ابن عباس: (أول راية تُرفع لأهل الموقف، ذلك اليوم، راية اليهود، فيفضحهم الله تعالى على رؤوس الأشهاد، ثم يؤمر بهم إلى النار).

الإشارة: ترى كثيراً ممن ينتسب إلى العلم والدين ينطلق لسانه بدعوى الخصوصية، وأنه منخرط في سلك المقرين، فإذا دُعي إلى حق، أو وقف على عيب من عيوب نفسه، أعرض وتولى، وغرته نفسه، وغلبه الهوى، فجعل يحتج لنفسه بما عنده من

العلم أو الدين، أو بمن ينتسب إليهم من الصالحين، فكيف يكون حاله إذا أقبل على الله بقلب سقيم، ورأى منازل أهل الصفا، الذين لقوا الله بقلب سليم، حين ترفع درجاتهم مع المقربين، ويبقى هو مع عوام أهل اليمين؟ قال تعالى:  
{ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ }  
[الزمر: 47] الآية.

@ { قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِشَيْءٍ قَدِيرٌ } \* { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }

قلت: { اللهم } منادى مبني على الضم، حذفت منه الياء المتضمنة للفرق، وعوضت منها الميم المؤذنة بالجمع، لئلا يبقى بين الداعي والمدعو قرئ، و { مالك } نعت لمحل المنادى؛ لأنه مفعول، ومنادى ثانٍ عند سبويه، لأن الميم عنده تمنع الوصفية.

يقول الحق جلّ جلاله: { قل } يا محمد في استنصارك على عدوك: { اللهم } يا { مالك الملك }؛ ملك الدنيا وملك الآخرة، { تؤتي الملك } والنصر { من تشاء } وتنزع الملك ممن تشاء { ، فهب لنا ملك الدارين، والنصر على الأعداء في كل أين، وانزع الملك من يد عدونا، وانقله إلينا وإلى من تبعنا إلى يوم الدين. قال قتادة: (ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم في أمته، فأنزل الله تعالى هذه الآية).

{ وتعز من تشاء } بالإيمان والطاعة { وتذل من تشاء } بالكفر والمعصية، أو تعز من تشاء بالمعرفة، وتذل من تشاء بالفكرة، أو تعز من تشاء بالقناعة والورع، وتذل من تشاء بالحرص والطمع، أو تعز من تشاء بالتوفيق والإذعان، وتذل من تشاء بالكسل والخذلان، { بيدك الخير } كله، فأعطينا من خيرك الجزيل، وأجرنا من الشر الوبيل، فالأمور كلها بيدك.

قال البيضاوي: ذكر الخير وحده؛ لأنه المقضي بالذات، والشر مقضي بالعرض؛ إذ لا يوجد شر جزئي ما لم يتضمن خيراً كلياً. أو لمراعاة الأدب في الخطاب، أو لأن الكلام وقع فيه، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام - لَمَّا حَطَّ الْخَنْدَقَ، وَقَطَعَ لِكُلِّ عَشْرَةِ أَرْبَعِينَ ذِرَاعاً، وَأَخَذُوا يَحْفَرُونَ، فَظَهَرَ فِيهِ صَحْرَةٌ عَظِيمَةٌ لَمْ تَعْمَلْ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، فَوَجَّهُوا سَلْمَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْبِرُهُ، فَجَاءَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَخَذَ الْمَعُولَ مِنْهُ، فَصَرَبَ بِهِ صَرْبَةً صَدَعَهَا، وَبَرَقَ مِنْهَا أَضَاءٌ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، لَكَانَ مَصْبَاحاً فِي جَوْفِ بَيْتِ مُظْلَمٍ، فَكَبَّرَ، وَكَبَّرَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَقَالَ: " أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قُصُورُ الْحَيْرَةِ، كَأَنَّهَا أَنْيَابُ الْكِلَابِ، " ثم ضرب الثانية، فقال: " أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا الْقُصُورُ الْحَمْرُ مِنْ أَرْضِ الرُّومِ " ، ثم ضرب الثالثة، فقال: " أَضَاءَتْ لِي مِنْهَا قُصُورُ صَنْعَاءَ، وَأَخْبَرَنِي جِبْرِيلُ أَنَّ أُمَّتِي ظَاهِرَةٌ عَلَيَّ كُلِّهَا، فَأَبْشِرُوا " ، فقال المنافقون: أَلَا تَعَجَّبُونَ! يَمْنِيكُمْ وَيَعِدْكُمْ الْبَاطِلَ، وَيُخْبِرْكُمْ أَنَّهُ يَبْصُرُ مِنْ يَثْرِبَ قُصُورَ الْحَيْرَةِ، وَأَنَّهَا تُفْتَحُ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ إِنَّمَا تَحْفَرُونَ الْخَنْدَقَ مِنَ الْقَرَقِ فَنزَلَتْ، أَي: الآية. وَبِهِ عَلَى أَنْ الشَّرَّ أَيْضاً بِيَدِهِ بِقَوْلِهِ: { إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } . هـ.

ثم استدلل على نفوذ قدرته بقوله: { تولج الليل في النهار } أي: تُدخل أحدهما في الآخر بالتعقيب، أو بالزيادة أو النقص، فيولج الليل في النهار، إذا طال النهار حتى يكون خمس عشرة ساعة، وفي الليل تسعُ، ويُولج النهار في الليل، إذا طال الليل كذلك، وفيه دلالة على أن مَنْ قدر على ذلك قدر على معاقبة العز بالذل، والمُلك بنزعه.

@وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي {؛ كالحيوانات من التطف، وبالعكس، والنباتات من الحبوب، وبالعكس، أو المؤمن من الكافر والعالم من الجاهل، وبالعكس، { وترزق من تشاء } من الأقوات والعلوم والأسرار، { بغير حساب } ، ولا تقدير ولا حصر. اللهم ارزقنا من ذلك الحظ الأوفر، { إنك على كل شيء قدير }.

روى معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: " يا معاذُ، أتحبُّ أن يقضيَ اللهُ عنكَ دَيْنَكَ؟ " قال: نعم يا رسول الله، قال: " قل " { اللهم مالك الملك } إلى قوله: { بغير حساب } ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطي منهما ما تشاء، وتمنع منهما ما تشاء اقضِ عني ديني، فلو كان عليك ملء الأرض ذهباً وفضة لأداه الله عنك " .

وَرَوِيَ عن علي رضي الله عنه أنه قال: الفاتحة، وآية الكرسي، و { شهد الله } ، و { قل اللهم مالك الملك... } إلى { ... بغير حساب } ، لما أراد الله أن ينزلهن، تعلقن بالعرش وقلن: تهبطنا إلى دار الذنوب فقال الله عز وجل: " وعزتي وجلالي لا يقرؤكن عبد، دبر كل صلاة مكتوبة، إلا أسكنته حظيرة القدس، على ما كان فيه، وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وقضيت له في كل يوم سبعين حاجة، وأعززته من كل عدو، نصرته عليه... " الحديث. انظر الثعلبي.

الإشارة: من ملك نفسه وهواه فقد ملكه الله ملك الدارين، ومن ملكته نفسه وهواه فقد أدله الله في الدارين ومن ملك نفسه لله فقد مكنه الله من التصرف في الكون بأسره، وكان حراً حقيقة، وفي ذلك يقول الشاعر:

دَعَوْنِي لِمُلْكِهِمْ، فَلَمَّا أَجَبْتُهُمْ  
وَمَنْ أَدَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَعَزَّهُ اللَّهُ، قال الشاعر:

تَدَلَّلَ لِمَنْ تَهَوَّى لِتَكْسِبَ عِزَّةً فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ تَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ  
إِذَا كَانَ مَنْ تَهَوَّى عَزِيزاً وَلَمْ تَكُنْ دَلِيلًا لَهُ، فَاقْرَأِ السَّلَامَ عَلَى الْوَصْلِ  
قال ابن المبارك: (قلت لسفيان الثوري: من الناس؟ قال: الفقهاء، قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهادن قلت: فمن الأشراف؟ قال: الأتقياء، قلت: فمن الغوغاء؟ قال: الذين يكتبون الحديث ليستأكلوا به أموال الناس، قلت: أخبرني ما السفلة؟ قال: الظلمة). وقال الشبلي: (المُلك هو الاستغناء بالمكون عن الكونين). وقال الوراق: (تُعز من تشاء بقهر النفس ومخالفة الهوى، وتذل من تشاء باتباع الهوى). قلت: وفي ذلك يقول البرعي رضي الله عنه:

لَا تَتَّبِعِ النَّفْسَ فِي هَوَاهَا إِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى هَوَانٌ  
وقال وهب: " خرج الغنى والعز يجولان، فلقيا القناعة فاستقرا ". وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: أنتم أغنى من الملوك، قالوا: يا روح الله! كيف، ولسنا نملك شيئاً؟ قال: أنتم ليس عنكم شيء ولا تريدونها، وهم عندهم أشياء ولا تكفيهم هـ.



@ قال الشافعي رضي الله عنه:

أَلَا يَا نَفْسُ إِنْ تَرْضَيْ يَفُوتِ  
دَعِيَ عِنْدَ الْمَطَامِعِ وَالْأَمَانِي  
وَقَالَ آخِرُ:  
فَأَنْتِ عَزِيزَةٌ أَبَدًا غَنِيَةٌ  
فَكَمْ أُمْنِيَّةٍ جَلَبْتُ مَنِيَّةً

أَقَادَتْنِي الْقِنَاعَةُ كُلَّ عَزٍّ وَهَلْ عَزٌّ أَعَزُّ مِنَ الْقِنَاعَةِ  
فَصَيَّرَهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ وَصَيَّرَ بَعْدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَةً  
تَتَلَّ عِزًّا وَتَعْتَى عَن لَيْمٍ وَتَرَحَّلَ لِلْحَيَانَ بِصَبْرٍ سَاعَةً  
وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: " مِنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَافَى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ  
يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حَيَّرَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَافِيرِهَا "

تولج ليل القبض في نهار البسط، وتولج نهار البسط في ليل القبض، وترزق من  
تشاء فيهما من العلوم والأسرار، بغير حساب ولا مقدار، أو تولج ليل العبودية في  
نهار الحرية، وتولج نهار الحرية في ليلة العبودية، فمن كان في نهار الحرية تاه  
على الوجود، ومن كان في ليل العبودية عطل ذله ذل اليهود، والعبد لا يخلو من  
هذين الحالين، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار، والله تعالى أعلم.

@ { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ  
مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }  
\* { قُلْ إِنْ تُخِفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ يُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا  
فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيظٌ } \* { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ  
مُخَصَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ  
وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ }

قلت: { تُقَاةً } مصدر تَقَى، على وزن فَعَلَ، وله مصدران آخران: تُقَى وَتَقِيَّةٌ -  
بتشديد الياء -، وبه قرأ بعقوب، وأصله: تُقِيَّةٌ، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها وانفتاح ما  
قبلها. و { يوم } ظرف، والعامل فيه: اذكر، أو اتقوا، أو المصير، أو تود، و { ما  
عملت } مبتدأ، و { تود } خبر، أو معطوف على { ما عملت } الأولى، و { تود  
:

حال.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله، لقوم من الأنصار، كانوا يُوالون اليهود؛ لقرابة أو صداقة  
تقدمت في الجاهلية: { لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء }، أي: أصدقاء، إذ الحب  
إنما يكون في الله والبغض في الله، أو لا تستعينوا بهم في غزو ولا غيره، فلا  
تودوهم { من دون المؤمنين }؛ إذ هم أحق بالمودة، ففيهم مَنذُوحَةٌ عن مولاة  
الكفرة، { ومن يفعل ذلك } الاتخاذ { فليس من } ولاية { الله في شيء }؛ إذ لا  
تجتمع ولاية الله مع ولاية عدوه. قال الشاعر:

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَرْعُمُ أَنَّنِي صَدِيقَكَ، لَيْسَ التُّوَكُّ عِنْدَكَ بِعَارِبٍ  
والتُّوَكُّ - بضم النون - : الحُمُق.

فلا تُوالوا الكفار { إلا أن تتقوا منهم تقاة } أي: إلا أن تخافوا من جهتهم ما يجب  
اتقاؤه، فلا بأس بمداراتهم ظاهراً، والبعد منهم بطناً، كما قال عيسى عليه السلام:

{كن وَسَطًا وَاَمْشَ جَانِبًا}. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: خالطوا الناس وزايلوهم، وصافحوهم بما يشتهون، ودينكم لا تتلموه. وقال جعفر الصادق: إني لأسمع الرجل يشتمني في المسجد، فأستتر منه بالسارية لئلا يراني. هـ. { ويحذركم الله نفسه } أي: يخوفكم عذابه على موالاته الكفار ومخالفة أمره وارتكاب نهيه، تقول العرب: احذرننا فلاناً: أي: ضرره لا ذاته، وفي ذكر النفس زيادة تهديد يُؤذِن بعقاب يصدر منه بلا واسطة، { وإلى الله المصير }؛ فيحسر كل قوم مَن أحب.

{ قل إن تخفوا ما في صدوركم { من موالاته أعدائه، { أو تبدو يعلمه الله }؛ فلا يخفى عليه ما تُكن الصدور من خير أو شر. وقدم في سورة البقرة الإبداء، وأخره هنا؛ لأن المحاسبة لا ترتب فيها بخلاف العلم، فإن الأشياء التي تبرز من الإنسان يتقدم إضمارها في قلبه ثم تبرز، فقد تعلق علم الله تعالى بها قبل أن تبرز، فلذلك قدّم هنا الإخفاء لتقدم وجوده في الصدر، وأخره في البقرة، لأن المحاسبة لا ترتب فيها، { ويعلم ما في السماوات وما في الأرض } فلا يخفى عليه شيء، { والله على كل شيء قدير }؛ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا، والآية بيان لقوله: { ويحذركم الله نفسه }؛ لأن الذات العالية متصفة بعلم محيط بجميع المعلومات، وبقدرة تحيط بجميع المقدورات، فلا تجسروا على عصيانه، فإنه ما من معصية إلا وهو مطلع عليها، قادرٌ على العقاب عليها يوم القيامة. @يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً { بين يديها تنتفع به، { وما عملت من سوء تودّ له أن بينها وبينه أمداً بعيداً }، كما بين المشرق والمغرب، ولا ينفع الندم وقد زلت القدم. { ويحذركم الله نفسه }، كرره للتأكيد وزيادة التحذير، وسيأتي في الإشارة حكمة تكريره، { والله رؤوف بالعباد } حيث حذرهم مما يضرهم، وأمرهم بما يقربهم، فكل ما يصدر منه - سبحانه - في غاية الكمال.

الأشارة: لا ينبغي للمريد الصادق أن يخالط أهل الغفلة، ولا يتودد معه؛ فإن ذلك يقطعه عن ربه، ويصده عن دواء قلبه، وفي ذلك يقول صاحب العينية:

وَقَاطِعُ لِمَنْ وَاصَلَتْ أَيَّامَ عَفْلَةٍ      فَمَا وَاصَلَ الْعُدَالَ إِلَّا مُقَاطِعُ  
وَجَانِبُ جَنَابِ الْأَجْنَبِيِّ لَوْ أَنَّهُ      لِقُرْبِ انْتِشَابِ فِي الْمَتَامِ مُصَاجِعُ  
فَلِلنَّفْسِ مِنْ جُلَاسِيهَا كُلِّ نِسْبَةٍ      وَمِنْ خَلَّةِ لِلْقَلْبِ تِلْكَ الطَّبَائِعُ

إلا أن يتقي منهم تقية، بحيث تلجئه الضرورة إلى مخالطتهم، فيخالطهم بجسمه ويفارقهم بقلبه، وقد حذر الصوفية من صحبة أربَع طوائف: الجابرة المتكبرون، والقراء المداهنون، والمتفكرة الجاهلون، والعلماء المتجمدون؛ لأنهم مُولعون بالطعن على أولياء الله، يرون ذلك قربة تُقربهم إلى الله.

ثم قال: { ويحذركم الله نفسه } أن تقصدوا معه غيره، وهذا خطاب للسائرين بدليل تعقيبه بقوله: { وإلى الله المصير } أي: إليه ينتهي السير وإليه يكون الوصال، ثم شدد عليهم في المراقبة فقال: { إن تخفوا ما في صدوركم { من الميل أو الركون إلى الغير أو الوقوف عن السير، { أو تبدو يعلمه الله }؛ فينقص عنكم المدد بقدر ذلك الميل، يظهر ذلك يوم الدخول إلى بلاد المشاهدة، { يوم تجد كل نفس { ما قدمت من المجاهدة، فيقدر المجاهدة تكون المشاهدة. ثم خاطب الواصلين فقال: { ويحذركم الله نفسه } من أن تشهدوا معه سواه، فلو كلف الواصل أن يشهد غيره لم يتسطع، إذ لا غير معه حتى يشهده. وبدل على أن الخطاب هنا للواصلين تعقيبهم بالمودة والرفقة، اللائقة بالواصلين المحبوبين العارفين الكاملين. خرطنا الله في سلكهم بمنه وكرمه.

ثم لا طريق للوصول إلى هذا كله إلا باتباع الرسول الأعظم.

@ { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } \* { قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ }

قلت: قد تقدم الكلام على حقيقة المحبة عند قوله: { يحبونهم كحب الله }. وقال البيضاوي هنا: المحبة ميلُ النفس إلى الشيء لإدراك كمال فيه، بحيث يحملها - أي الميل - إلى ما يقربها إليه، والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وأن ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، فلذلك فُسرَت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول في عبادته، والحرص على مطاوعته. هـ.

وقوله: { فإن تولوا } فعل ماض مجزوم المحل، ولم يدغمه البتري هنا، على عادته في الماضي، لعدم موجهه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد لمن يدّعي أنه يحب الله ولا يتبع رسوله: { إن كنتم تحبون الله } كما زعمتم، { فاتبعوني } في أقوالي وأفعالي وأحوالي، { يحبكم الله } أي: يرضى عنكم ويقربكم إليه، { ويغفر لكم ذنوبكم } أي: يكشف الحجاب عن قلوبكم بغفران الذنوب ومحو العيوب، فيقربكم من جناب عزه، ويوثقكم في جوار قدسه، { والله غفور رحيم } لمن تحب إليه بطاعته واتباع رسوله.

{ قل أطيعوا الله } فيما يأمركم به وينهاكم عنه، { والرسول } فيما يسنه لكم ويرغبكم فيه، { فإن تولوا } وأعرضوا عنه، فقد تعرضوا لمقت الله وغضبه بكفرهم به؛ { فإن الله لا يحب الكافرين } أي: لا يرضى عنهم ولا يقبل عليهم، وإنما لم يقل: لا يحبهم؛ لقصد العموم، والدلالة على أن التولي عن الرسول كفر، وأنه بريء من محبة الله، وأن محبته مخصوصة بالمؤمنين.

رُوِيَ أن نصارى نجران قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده، حباً لله وتعظيماً لله. فقال تعال: { قل } يا محمد: { إن كنتم تحبون الله } تعالني { فاتبعوني }... الآية. ولما نزلت الآية قال عبد الله بن أبي لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحببت النصارى عيسى، فنزل قوله تعالى: { قل أطيعوا الله والرسول } الآية. وقال - عليه الصلاة والسلام -: " مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْإِمَامَ فَقَدْ عَصَانِي، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَمَنْ عَصَى الْإِمَامَ فَقَدْ عَصَانِي ".

الإشارة: اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ركن من أركان الطريقة، وشرط في إشراق أنوار الحقيقة، فمن لا اتباع له طريق له، ومن لا طريق له لا وصول له، قال الشيخ زروق رضي الله عنه: (أصول الطريقة خمسة أشياء: تقوى الله في السر والعلانية، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار، والرجوع إلى الله في السراء والضراء، والرضى عن الله في القليل والكثير).

فالرسول - عليه الصلاة والسلام - حجاب الحضرة وبَوَائِهَا، فمن أتى من بابه؛ بمحبته  
واتباعه، دخل الحضرة، وسكن فيها، ومن تنكب عنها طرد وأبعد، وفي ذلك يقول  
القائل:

وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ، أَيُّ أَمْرِيءٍ وَاقَاهُ مِنْ عَيْرِكَ لَا يَدْخُلُ

وقال في المباحث:

@تَبِعَهُ الْعَالِمُ فِي الْأَقْوَالِ، وَالْعَابِدُ الزَاهِدُ فِي الْأَفْعَالِ  
وفيهما الصُّوفِيُّ فِي السَّبَاقِ لَكِنَّهُ قَدْ زَادَ فِي الْأَخْلَاقِ  
فمن ادعى محبة الله أو محبة رسوله، ولم يطعمهما، ولم يتخلق بأخلاقهما، فدعواه  
كاذبة، وفي ذلك يقول ابن المبارك:

تَعْصِي الْأَلَهَ وَأَنْتَ تُظَهِّرُ حُبَّهُ خَدَا مَحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ  
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ  
ثم ذكر الحق تعالى بيان نشأة عيسى عليه السلام، وبيان أصله ونشأة أمه، توطئة  
للكلام مع النصاري والرد عليهم في اعتقادهم فيه. وقال البيضاوي: لما أوجب الله  
طاعة الرسل، وبيّن أنها الجالبة لمحبة الله، عقب ذلك ببيان مناقبهم تحريصاً عليها.

@ { إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ } \* { ذُرِّيَّةَ  
بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } \* { إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي تَدَرْتُ لَكَ  
مَا فِي بَطْنِي مَحْرُورًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } \* { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ  
رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنَّ الذَّكَرَ كَأَلْبَسَا وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ  
وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِنكِ وَدَرَّبْتُهَا مِنِّي الشَّيْطَانَ الرَّجِيمَ } \* { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا  
نَبَاتًا حَسِينًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ  
يَا مَرْيَمُ أَنَا لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } \*

قلت: { ذرية } : حال، أبو بدل من الآلين، أو من نوح، أي: أنهم ذرية واحد متشعبة  
بعضها من بعض. و { إذ قالت } : ظرف لعليم، أو بإضمار اذكر. و { محرراً } : حال،  
والتحرير: التخلص، يقال: حررت العبد، إذا خلصته من الرق، وحررت الكتاب، إذا  
أصلحته وأخلصته، ولم يبق فيه ما يحتاج إلى إصلاح، ورجل حُر، أي: خالص، ليس  
لأحد عليه متعلق، والطين الحُر، أي: الخالص من الحماة. وقوله: { وإنني سميتها مريم }  
{ عطف على { إنني وضعتها } ، وما بينهما اعتراض، من كلامها على قراءة التكلم،  
أو من كلام الله على قراءة التأنيث.

يقول الحق جلّ جلاله: { إن الله اصطفى آدم } ؛ بالخلافة والرسالة، { ونوحاً } ؛  
بالرسالة والتدّارة، { وآل إبراهيم } ؛ بالنبوة والرسالة، وهم: إسحاق، ويعقوب  
والأنباط، وإسماعيل، وولده سيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة  
والرسالة والمحبة الجامعة. { وآل عمران } ، وهم موسى وهارون - عليهما السلام -  
وهو عمران بن يصر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب، أو المراد بعمران: عمران بن  
أشهم بن أموي، من ولد سليمان عليه السلام، وهو والد مريم أم عيسى عليه  
السلام، وقيل: المراد عمران بن ماثان، أحد أجداد عمران والد مريم. وإنما خصّ  
هؤلاء؛ لأن الأنبياء كلهم من نسلهم. وقيل: أراد إبراهيم وعمران أنفسهما. " وآل "  
مقحمة، كقوله:

{ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآءَالُ هَارُونَ }  
[التَّقْرَةَ: 248] أي: موسى وهارون، فقد فضل الحقّ - جلّ جلاله - هؤلاء الأنبياء  
بالخصائص الجسمانية والروحانية { على العالمين } أي: كلاً على عالمي زمانه، وبه  
استدلّ على فضلهم على الملائكة. حال كونهم { ذرية } متشعبة { بعضها من } ولد  
{ بعض } في النسب والدين، { والله سميع } لأقوال العباد وأعمالهم، { عليم }  
بسرائرهم وعلانيتهم، فيصطفي من صفا قوله وعمله، وخلص سره، للرسالة والنبوة.

ثم تخلّص لذكر نشأة مريم، توطئة لذكر ولدها، فقال: واذكر { إذ قالت امرأة  
عمران } وهي حنة بنت فاقودا، جدة عيسى عليه السلام: { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا  
فِي بطني محرراً } لخدمة بيت المقدس، لا أشغله بشيء، أو مخلصاً للعبادة،  
{ فتقبل مني إنك أنت السميع العليم }، وكان المحرر عندهم، إذا حُرر، جُعل في  
الكنيسة يقوم عليها وينكسها، ولا يبرح منها حتى يبلغ الحلم، ثم يُخَيَّر، فإن أحبَّ  
أقام أو ذهب حيث شاء، ولم يكن يحزر إلا الغلمان؛ لأن الجارية لا تصلح للخدمة؛  
لما يصيبها من حيض، فحررت أم مريم حملها تدرّ ما هو.

وقصة ذلك: أن زكريا وعمران تزوجا أختين، فتزوج زكريا أشياع بنت فاقودا، وتزوج  
عمران حنة بنت فاقودا، فكان عيسى وبحيى ابني الخالة، وكانت حنة عاقراً لا تلد،  
فبينما هي في ظل شجرة، بضرت بطائر يطعم فرخاً. فتحرّكت لذلك نفسها للولد  
فدعت الله تعالى، وقالت: اللهم لك علي، إن رزقتني ولداً، أن أتصدق به على بيت  
المقدس، يكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم، فهلك عمران، وحنة حامل بمريم،  
{ فلما وضعتها } أي: النذيرة، أو ما في بطنها، قالت: { رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى }،  
قالت ذلك تحسراً وتحزناً إلى ربها، لأنها كانت ترجوا أن تلد ذكراً يصلح للخدمة،  
ولذلك نذرت.

@ قال تعالى: { والله أعلم بما وضعت }، تعظيماً لموضوعها وتنوياً بشأنها، أو من  
كلامها - على قراءة التكلم - تسلية لنفسها، أي: ولعل لله فيه سرّاً، قال تعالى:  
{ وليس الذكر كالأنثى } أي: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت، أو من  
كلامها، أي: وليس الذكر والأنثى سيان فما نذرت. ثم قالت: { وإنِّي سميتها مريم }  
راجية أن يطابق اسمها فعلها، فإن مريم في نعتهم في العابدة الخادمة، وكانت  
مريم أجمل النساء في وقتها وأفضلهن، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: "  
حَسْبُكَ مِنْ نَسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ  
بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."

ثم قالت حنة أم مريم: { وإنِّي أعيدّها بك } أي: أحصنها بك { وذريتها من الشيطان  
الرجيم } أي: المرجوم بالشهب، أو المطرود، وفي الحديث: " مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا  
وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ جِيْنٌ يُوَلَّدُ فَيَسْتَهْلُ مِنْ مَسِّهِ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا " ومعناه: أن  
الشيطان يطعم في إغواء كل مولود، بحيث يتأثر به، إلا مريم وابنها لمكان  
الاستعاذة، قلت: وكذا الأنبياء كلهم، لا يمسهن لمكان العصمة. والله أعلم.

{ فتقبلها ربها } أي: رَضِيهَا في النذر مكان الذكر، { بقبول حسن } أي: بوجه حسن،  
وهو إقامتها مقام الذكر، وتسلمها للخدمة عقب ولادتها قبل أن تكبر وتصلح  
للسّدانة، رُوي: أن حنة لما ولدتها لَقْنَهَا في خرقة، وحملتها إلى المسجد، ووضعها  
عند الأحبار، وقالت: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها، فأنها كانت ابنة إمامهم،  
وصاحب قربانهم، فإن (بني ماثان) كانت رؤوس بني إسرائيل وملوكهم، فقال زكريا:  
أنا أحق بها، عندي خالتها، فأبوا إلا القرعة، وكانوا سبعة وعشرين، فانطلقوا إلى

نهر، فألقوا فيه أقلامهم، فطفا قلم زكريا - أي: علا - على وجه الماء، ورسبت أقلامهم، فأخذها زكريا.

{ وأنبئها { الله { نباتاً حسناً { أي: رباها تربية حسنة، فكانت تشب في اليوم ما يشب المولود في العام، { وكفلها زكريا { أي: ضمها إليه وقام بأمرها. وقرأ عاصم - في رواية ابن عياش - بشدّ الفاء، أي: وكفلها الله زكريا، أي: جعله كافلاً لها وحاضياً. روي: أنه لما ضمها إليه بنى لها بيتاً، واسترضع لها، فلما بلغت، بنى لها محراباً في المسجد، وجعل بابه في وسطه لا يرقى إليها إلا بسلم، ولا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بطعامها وشرابها كل يوم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب. @كلما دخل عليها زكريا المحراب {؛ ليأتيها بطعامها، { وجد عندها رزقاً { أي: فاكهة في غير حينها، يجد فاكهة الشتاء في الصيف، وبالعكس، { قال يا مريم أنى لك هذا { أي: من أين لك هذا الرزق الآتي في غير أوانه، والأبواب مغلقة عليك؟ { قالت هو من عند الله { فلا يُستبعد، قيل: تكلمت صغيرة، وقيل: لم ترضع ثدياً قط، خلاف ما تقدم، وكان رزقها ينزل عليها من الجنة.

ثم قالت: { إن الله يرزق من يشاء بغير حساب { أي: بغير تقدير، أو بغير استحقاق تفضلاً منه، وقوله: { كلما {؛ يقتضي التكرار، وفيه إشارة إلى أن زكريا لم يدّر تعهدها، ولم يعتمد على ما كان يجد عندها، بل كان يتفقد حالها كل وقت، لأن الكرامات للأولياء ليس مما يجب أن تدوم قطعاً، بل يجوز أن يظهر ذلك عليهم دائماً وألا يظهر، فما كان زكريا معتمداً على ذلك، فترك تفقد حالها، ثم كان يجد السؤال بقوله: { يا مريم أنى لك هذا {، لجواز أن يكون الذي هو اليوم لا على الوجه الذي كان بالأمس فإنه لا واجب على الله - سبحانه - قاله القشيري.

روي جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام أياماً لم يطعم الطعام، فقام في منازل أزواجه، فلم يُصِبْ عندهم شيئاً، فأتى فاطمة فقال: " يا بُنَيُّ، هل عندك شيء؟ " فقالت: لا والله، بأبي أنت وأمي، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم، بعثت إليها جارثها برغيفين وبضعة لحم، فبعثت حسناً وحُسبناً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء، فكشفت له الجفنة، فإذا الجفنة مملوءة خبزاً ولحماً، فَبَيْهَتَتْ، وعرفت أنها بركة من الله تعالى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من أين لك هذا يا بُنَيُّ؟ " قالت: { من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب {، فحمد الله تعالى، وقال: " الحمد لله الذي جعلك سبيهاً بسيدة بني إسرائيل، فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً قالت: { هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب { ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى علي رضي الله عنه. ثم أكل أهل البيت كلهم، وجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، وبقيت الجفنة كما هي، فأوسعت على الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً. انتهى.

الإشارة: { إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين {، إنما اصطفى الحق تعالى هؤلاء الرسل؛ لكونهم قد أظهروا الدين بعد انطماس أنواره، وجددوه بعد خمود أسرارهم، هم أئمة الهدى ومقتبس أنوار الاقتداء، فكل من كان على قدمهم من هذه الأمة المحمدية، بحيث يجدد للناس دينهم، ويبين للناس معالم الطريق وطريق السلوك إلى عين التحقيق، فهو ممن اصطفاه الله على عالمي زمانه.

@وفي الحديث: " إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها " قال الحريري: (مات الحسن البصري عشية جمعة - أي: بعد زوالها - فلما صلى

الناس الجمعة حملوه، فلم يترك الناس صلاة العصر في مسجد الجماعة بالبصرة منذ كان الإسلام، إلا يوم مات الحسن، وأتبع الناس جنازته، فلم يحضر أحد في المسجد صلاة العصر، قال: وسمعت منادياً ينادي: { إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين } ، واصطفى الحسن على أهل زمانه. قلت: والحسن البصري هو الذي أظهر علم التصوف، وتكلم فيه وهذبه. قال في القوت: وهو إمامنا في هذا العلم - يعني علم التصوف.

وقوله تعالى: { إذ قالت امرأة عمران ... الآية. كُلُّ من ذنر نفسه وحررها لخدمة مولاه، تقبلها الله منه بقبول حسن، وأثبت فيها المعرفة نباتاً حسناً، وكفلها بحفظه ورعايته، وضمها إليه بسابق عنايته، ورزقها من طَرْفِ الحكم وفواكه العلوم، مما لا يتحيط به العقول وغاية الفهوم، فإذا قال لنفسه: من أين لك هذا؟ { قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب } . وأنشدوا:

فَلَا عَمَلٌ مِنِّي إِلَيْهِ اكَتَسَبْتُهُ سِوَى مَخْضٍ قَضَلٍ، لَا بِشَيْءٍ يُعَلَّلُ  
وقال الفشيري: قوله تعالى: { فتقبلها ربها بقبول حسن } ، يقال: من القبول الحسن أنه لم يطرح كَلِّهَا وَشَعْلَهَا على زكريا، فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعاهدها بطعام وجد عندها رزقاً، ليعلم العالمون أن الله - تعالى - لا يُلقى شغل أوليائه على غيره، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي، وهذه إشارة لمن يخدم الفقراء، يعلم أنه في رفقهم، لا أن الفقراء تحت رفقه. هـ.

قال أهل التفسير: فلما رأى زكريا ما يأتي لمريم من الفواكه في غير أوانها، قال: إن الذي قدر على أن يأتي مريم بالفاكهة في غير وقتها، قادر على أن يصلح زوجتي، ويهب لي ولداً على الكبر. فطلب الولد.

@ { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ } \* { فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَا مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَبَيِّنَاتٍ وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ } \* { قَالَ رَبِّ أَنَا يَكُونُ لِي عَلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَإِمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ } \* { قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ }

قلت: { هنالك } : اسم إشارة للبعيد، والكاف: حرف خطاب، يطابق المخاطب في التذكير والتأنيث والإفراد والجمع في الغالب. والمحراب: مفعال، من الحرب، وهو الموضع المعد للعبادة، كالمسجد ونحوه، سمي به، لأنه محل محاربة الشيطان.

{ والملائكة } : جمع تكسير، يجوز في فعله التذكير والتأنيث، وهو أحسن، تقول: قام الرجال وقامت الرجال، فمن قرأ: { فنادته الملائكة } ، فعلى تأويل الجماعة، ومن قرأ: { فناداه } ، أراد تنزيه الملائكة عن التأنيث، رداً على الكفار. والمراد هنا: جبريل عليه السلام كقوله:

{ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ }  
{ التَّحْلِ: 2 }،

{ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ }

{ آل عمران: 42 }، و { بشر } : فيها لغتان: التخفيف، وهي لغة تهامة، تقول: بَشَّرَ يُبَشِّرُ - بضم الشين في المضارع، والتشديد، وهو أفصح، تقول بَشَّرَ يُبَشِّرُ تبشيراً.

يقول الحق جلّ جلاله: مخبراً عن زكريا عليه السلام: { هنالك } أي: في ذلك الوقت الذي رأى من الخوارق عند مريم، { دعا زكريا ربه } ، فدخل المحراب، وعلق الأبواب، وقال في مناجاته: { ربّ هب لي من لدنك ذرية طيبة } ، كما وهبتها لحنة العجوز العاقر، { إنك سمع الدعاء } أي: مجيبه فاسمع دعائي يا مجيب، { فنادته الملائكة } ، وهو جبريل، لأنه رئيس الملائكة، والعرب تنادي الرئيس بلفظ الجميع؛ إذ لا يخلو من أصحاب، { وهو قائم يصلي في المحراب } رُوِيَ: أنه كان قائماً يصلي في محرابه، فدخل عليه شاب، عليه ثياب بيض، ففزع منه، فناداه، وقال له: { إن الله يبشرك بيحيى } ، سمي به؛ لأن الله تعالى أحيا به عقم أمه، أو لأن الله تعالى أحيا قلبه بمعرفته، فلم يهتم بمعصية قط، أو لأنه استشهد، والشهداء أحياء.

{ مصدقاً بكلمة من الله } وهو عيسى، لأنه كان بكلمة: كُنْ، من غير سبب عادي، و { سيداً } أي: يسود قومه يوفوقهم، و { حصوراً } ، أي: مبالغاً في حبس النفس عن الشهوات والملاهي. رُوِيَ أنه مرّ في صباه على صبيان، فدعوه إلى اللعب، فقال: ما للعب خلقت، أو عتينا، رُوِيَ: " أنه كان له ذكّر كالقذاة " رواه ابن عباس. وقال في الأساس: (رجل حصور: لا يرغب في النساء). قيل: كان ذلك فضيلة في تلك الشريعة، بخلاف شريعة نبينا محمد صلى الله عليه وفي الورتجبي: الحصور: الذي يملك ولا يملك. وقال القشيري: { حصوراً } أي: مُعْتَقاً من الشهوات، مَكْفِيّاً أحكام البشرية، مع كونه من جملة البشر، { ونبياً من الصالحين } الذي صلحوا للنبوة وتأهلوا للحضرة.

ولما سمع البشارة هزّه الفرخُ فقال: يا { رب أنى يكون لي غلام } أي: من أين يكون لي غلام؟! قاله استعظاماً أو تعجباً أو استفهاماً عن كيفية حدوثه. هل مع كبر السن والعقم، أو مع زوالهما. { وقد بلغني الكبر } ، وكان له تسع وتسعون سنة، وقيل: مائة وعشرون، { وامرأتي عاقر } لا تلد، ولم يقل: عاقرة، لأنه وصف خاص بالنساء.

@ قال له جبريل: { كذلك الله يفعل ما يشاء } من العجائب والخوارق، فيخلق الولد من العاقر والشيخ الفاني، أو الأمر كذلك، أي: كما أخبرتك، ثم استأنف: { الله يفعل ما يشاء }.

ولما تحقق بالبشارة طلب العلامة، فقال: { رب اجعل لي آية } أعرف بها حمل المرأة، لاستقبله بالبشاشة والشكر، { قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام } أي: لا تقدر على كلام الناس ثلاثاً، فحسب لسانه عن الكلام دون الذكر والشكر، ليخلص المدة للذكر والشكر، { إلا رمزاً } بيدٍ أو رأس أو حاجب أو عين. { واذكر ربك كثيراً } في هذه المدة التي حبست فيها عن الكلام، وهو يُبين الغرض من الحبس عن الكلام. وتقييد الأمر بالكثرة يدل على أنه لا يفيد التكرار. { وسبح بالعشي } أي: من الزوال إلى الغروب، أو من العصر إلى جزء الليل، { والإبكار }؛ من الفجر إلى الضحى، وقيل: كانت صلاتهم ركعتين في الفجر وركعتين في المغرب، ويؤيد هذا قوله تعالى في الآية الأخرى: { قَاوَحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا } [مريم: 11]. والله تعالى أعلم.



الإشارة: الأَصْلَابُ الروحانية كالأَصْلَابُ الجسمانية، منها ما تكون عقيمة مع كمالها، ومنها ما تكون لها ولد أو ولدان، ومنها ما تكون لها أولاد كثيرة، ويؤخذ من قضية السيد زكريا عليه السلام: طلب الولد؛ إذا خاف الولي اندراس علمه أو حاله بانقطاع نَسْلِهِ الروحاني، ولا شك في فضل بقاء النسل الحسيّ أو المعنوي، وقد قال عليه الصلاة والسلام: " إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ " وشمل الولد البشري والروحاني، وقال عليه الصلاة والسلام لسيدنا عليّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ -: " لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ " .

وقال بعض الشعراء:

وَالْمَرْءُ فِي مِيزَانِهِ أَتْبَاعُهُ فَاقْدِرْ إِذَنْ قَدَرَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ  
وقد سلَّك هذا المسلك القطبُ بن مشيش في طلب الولد الروحاني، حيث قال في تَصْلِيَتِهِ المشهورة: (اسمه ندائي بما سمعت به نداء عيدك زكريا). فأجابه الحق تعالى بشيخ المشايخ القطب الشاذلي. وغير واحد من الأولياء دخل محراب الحضرة، ونارَى نداءً خفيّاً في صلاة الفكر، فأجابته الهواتف في الحال، بلسان الحال أو المقال: إن الله يشرك بمن يحيي علمك ويرث حالك، مصداقاً بكلمة من الله، وهم أولياء الله، وسيداً وحصوراً عن شواغل الحس، مستغرقاً في مشاهدة القرب والأنس، ينبئ بعلم الغيوب، ويصلح خلل القلوب، فإذا استعظم ذلك واستغربه، قيل له: الأمر كذلك، (الله يفعل ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون)، فحسبك الاشتغال بذكر الله، والغيبة عما سواه. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلْنَا نِسَاءِ الْعَالَمِينَ } \* { يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ }

يقول الحقُّ جلّ جلاله: واذكر { إذ قالت الملائكة { أي: جبريل، أو جماعة، كلمتها شفاهاً؛ كرامةً لها. وفيه إثبات كرامة الأولياء، وليست نبيه؛ للإجماع على أنه تعالى لم يستنبئ امرأة؛ لقوله:

{ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجَالًا تُوحِي إِلَيْهِمْ }

{ الأنبياء: 7 } فقالوا لها: { يا مريم إن الله اصطفاك { لخدمة بيته، ولم يقبل قبلك أنثى قط، وفرغك لعبادته، وأغناك برزقه عن رزق غيره، { وطهرتك { من الأخلاق الذميمة، ومما يستقذر من النساء، { ووصفك { ثانياً بهديته لك، وتخصيصك بتكليم الملائكة، وبالبشارة بالولد من غير أب، فقد اصطفاك { على نساء العالمين } .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: " كَمَلَّ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَأَسِيَّةُ بِنْتُ مَزَاحِمَ وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ " .. الحديث. قال ابن عريز: أي: عالمي دهرها، كما فُضِّلَتْ خديجة وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على نساء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، بل قال أبو عمر: فاطمة فُضِّلَتْ على جميع النساء، وهو واضح، لحديث: سيدة نساء أهل الجنة، لكن جاء في حديث آخر استثناء مريم. فالله أعلم.

وفي الاستيعاب: عن عمران بن حصين: أن النبي صلى الله عليه وسلم عاد فاطمة، وهي مريضة، فقال: " كيف تجدك يا بُنَيَّةُ؟ " فقالت له: إني لوجعة، وإنه ليزيدني أني مالي طعام آكله، فقال: " يا بُنَيَّةُ، أما ترصين أنك سيدة نساء العالمين " ، فقالت: يا

أبت، فأين مريم بنت عمران؟ قال: " تلك سيدهُ نساءِ عالمها، وأنت سيدهُ عالمك،  
والله لقد زوجتك سيِّداً في الدنيا والآخرة " هـ. من المحشي.

{ يا مريم اقتني لربك { أي: أطيلي الصلاة شكراً لما اختصك به، { واسجدي  
واركعي مع الراكعين { أي: صلي مع المصلين، وقدم السجود على الركوع، أما  
لكونه كذلك في شرعهم، أو للتنبيه على أن الواو لا ترتب، أو ليقترن { اركعي {  
بالراكعين، للإيدان بأن من ليس في صلاتهم ركوعٌ ليسوا بمصلين. وقيل: المراد  
بالقنوت: إدامة الطاعة، كقوله:

{ أَمَّنْ هُوَ قَائِتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً {

[الزمر: 9]، وبالسجود، الصلاة، لقوله: { وإدبار السجود { ، وبالركوع: الخشوع  
والإخبات. قاله البيضاوي. وقال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك، قامت في  
الصلاة حتى تورمت قدمها وسالت دماً وقِيحاً.

الإشارة: لا يصطفي الله العبدَ لحضرتة إلا بعد تطهيره من الرذائل، وتحليته بأنواع  
الفضائل، وقطعه عن قلبه الشواغل، والقيام بوظائف العبودية، وبالآداب مع عظمة  
الربوبية، والخضوع تحت مجاري الأقدار، والتسليم لأحكام الواحد القهار، فانفاس  
المريد ثلاثة: عبادة، ثم عبودية، ثم عبودة، ثم يترقى إلى مطالعة علم الغيوب.

@ { ذَالِكَ مِنْ أَتْيَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ  
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ {

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: لحبيبه صلى الله عليه وسلم: { ذلك { القصص الذي أطلعته  
عليه، هو { من { أخبار { الغيب { الذي لم يكن لك به شعور، وما عرفته إلا  
بوحينا وإعلامنا، فلا يشك في نبوتك إلا مطموس أعمى، { و { أيضاً: { ما كنت  
لديهم { أي: عندهم، حين كانوا { يلقون أقلامهم { لما اقترعوا، { أيهم يكفل مريم،  
وما كنت لديهم إذ يختصمون { في كفالتها، فتخبرهم عما شهدت، بل لم يكن شيء  
من ذلك، فتعين أن يكون وحياً حقيقياً، لأنه عليه الصلاة والسلام - كان أمياً لم  
يطالع شيئاً من كتب الأخبار، ولا جلس إلى من طالعهم من الأخبار، بإجماع الخاص  
والعام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الوحي على أربعة أقسام: وحي منام، ووحى إلهام، ووحى أحكام،  
ووحى إعلام، وشاركت الأولياءُ الأنبياءُ في ثلاثة: الإلهام والمنام والإعلام، إن كان بغير  
الملك، ومعنى وحي إعلام: هو إطلاع الله النبي على أمور مغيبة، فإن كان بواسطة  
الملك، فهو مختص بالأنبياء، كما اختصت بوحى الأحكام، وأما إن كان بالإلهام أو  
بالمنام أو بالفهم عن الله، فيكون أيضاً للأولياء، إذ الروح إذا اتصفت وتطهرت من  
دنس الحس أطلعها الله على غيبه في الجملة، وأما التفصيل فلا يعلمه إلا علام  
الغيوب، والله أعلم.

@ { إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ  
مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهِيَ الْمُقَرَّبِينَ { \* { وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا  
وَمِنَ الصَّالِحِينَ { \* { قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ  
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ { \* { وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ  
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ { \* { وَرَسُولًا إِلَيْنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِّن

رَبِّكُمْ أَيَا أَخْلَقَ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفِخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُجِّي الْمَوْتِيَا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَّبِكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* { وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي جُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنَّتْكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ قَاتِلُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا } \* { إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ }

قلت: { إذ قالت } بدل من { وإذ قالت } الأولى، ويبعد إبدالها من { إذ يختصمون } ، و { المسيح } وما بعده: إخبار عن اسمه، أو { عيسى } : خبر عن مضمرة، و { ابن مريم } : صفته، و { المسيح } : فعيل بمعنى مفعول، لأنه مُسِيحٌ من الأقدار، أي: طهر منها، أو مسح بالبركة، أو كان مسيح القدم، لا أخص له، أو مسحه جبريل بجناحه من الشيطان، أو بمعنى فاعل؛ لأنه كان يمسح المرضى فيبرؤون، أو يمسح عين الأعمى فيبصر، أو لأنه كان يسبح في الأرض ولا يقيم في مكان؛ فتكون الميم زائدة.

وأما المسيح الدجال فإنه ممسوح إحدى العينين، أو لأنه يطوف الأرض ويمسحها، إلا مكة والمدينة، والحاصل: أن عيسى مسيح الخير، والدجال مسيح الشر، ولذلك قيل: إن المسيح يقتل المسيح. و { وجيهاً } : حال من كلمة؛ لتخصيصه بالصفة، و { في المهد وكهلاً } : حالان، أي: طفلاً وكهلاً، والمهد: ما يمهد للصبي. و { رسولاً } : مفعولٌ لمحذوف، أي: ونجعله رسولاً، و { مُصَدِّقًا } : عطف على { رسولاً } ، و { لِأَجْلِ } : متعلق بمحذوف، أي: وجنتكم لأجل، أو معطوف على معنى مصدقاً، كقولهم: جنتك معتذراً، أو لأطيب قلبك.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } { اذكر أيضاً } { إذ قالت الملائكة } في بشارتهم لمريم: { يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه } ، أي: بولد يتكوّن بكلمة من الله؛ كن فيكون، وقيل: إنما سمى كلمة؛ لكونه مظهراً لكلمة التكوين، متحققاً ومتصرفاً بها. ولذلك كان يظهر عليه خوارق الأقدار أكثر من غيره من الأنبياء، { اسمه المسيح } ، واسمه { عيسى ابن مريم } ، وإنما قال: { ابن مريم } والخطاب لها، تنبيهاً على أنه يولد من غير أب؛ إذ الأولاد إنما تنسب لأبائها إلا إذا فقد الأب. ثم وصف الولد بقوله: { وجيهاً في الدنيا والآخرة } أي: شريفاً في الدنيا بالنبوة والرسالة، وفي الآخرة بالشفاعة لمن تبعه. ويكون { من المقربين } إلى الله تعالى في الدارين.

{ ويكلم الناس } طفلاً { في المهد } على وجه خَرَقِ العادة في تبرئة أمه، { وكهلاً } إذا كمل عقله قبل أن يرفع، أو بعد الرفع والنزول، لأن الكهولة بعد الأربعين، والتحقيق: أنه بشرها بنبوة عيسى وكلامه في المهد، معجزةً، وفي الكهولة دعوة قبل الرفع وبعده، وما قارب يُعطي حكمه، وحال كونه { من الصالحين } لحضرة رب العالمين.

ولما سمعت البشارة دهشت و { قالت } : يا { رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر } ، والخطاب لله، فانية عن الواسطة جبريل، والاستفهام تعجباً، أو عن الكيفية: هل يكون بتزوج أم لا؟ { قال } لها الملك: { كذلك الله يخلق ما يشاء } . أو الأمر كذلك كما تقولين، لكن { الله يخلق ما يشاء } ؛ لا يحتاج إلى وسائط ولا أسباب، بل { إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون } ، { ويعلمه الكتاب } أي: الكتابة والخط، { والحكمة } أي: النبوة، أو الإصابة في الرأي: { والتوراة والإنجيل } .

@ و { يجعله } رسولاً إلى بني إسرائيل { . وكان أول رسل بني إسرائيل يوسف ، وأخراهم عيسى - عليهما السلام - ، وقال: عليه الصلاة والسلام: " بُعِثْتُ عَلَى إِبْرَ ثمانية آلاف نبيٍّ، أربعة آلاف من بني إسرائيل " فإذا بعث إليهم قال: { أني قد جئتكم بأية من ربكم } أي: بأنني قد جئتكم آية من ربكم، قالوا: وما هي؟ قال: { أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير }؛ كصورته، { فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله } ، وكان يخلق لهم صورة الخفاش، لأنها أكمل الطير؛ لأن لها ثدياً وأسناناً وتحيض وتطير، فيكون أبلغ في المعجزة، وكان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عنهم سقط ميتاً؛ لتمييز فعل الحق من فعل الخلق،

ثم قال لهم: ولي معجزة أخرى؛ أني { أبرئ الأكمه } الذي ولد أعمى، فأحرى غيره { والأبرص } الذي فيه وضح. وخصهما؛ لأنهما عاهتان معضلتان. وكان الغالب في زمن عيسى الطب، فأراهم المعجزة من جنس ذلك. رُوي: أنه ربما اجتمع عليه من المرضى في اليوم الواحد ألوف، من أطاف منهم البلوغ أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وإنما كان يداوهم بالدعاء على شرط الإسلام.

{ وأحيي الموتى بإذن الله } لا بقدرتي دفعاً لتوهم الألوهية، فإن الإحياء ليس من طوق البشر. رُوي أنه أحيأ أربعة أنفس: (الغازر)، وكان صديقاً له، فأرسلت أخته إلى عيسى أن أخاك الغازر يموت، فأتاه من مسيرة ثلاثة أيام فوجده مات، فقال لأخته: انطلقني بنا إلى قبره، وهو في صخرة مطبقة، فدعا الله تعالى، فقام الغازر يقطر ودكه، فعاش وولده له. و (ابن العجوز)، مَرَّ بجنازته على عيسى عليه السلام فدعا الله تعالى، فجلس على سريره، ونزل عن أعناق الرجال، ولبس ثيابه، وحمل سريره على عنقه، ورجع إلى أهله، وبقي حتى وُلد له. و(ابنة العاشر)، كان يأخذ العشور، قيل له: أنتحيها، وقد ماتت أمس؟ فدعا الله تعالى، فعاشت وولد لها. و(سام بن نوح)، دعا باسم الله الأعظم، فخرج من قبره، وقد شاب نصف رأسه، فقال: أقامت الساعة؟ قال: لا، لكني دعوت الله فأحياك، ما لي أرى الشيب في رأسك، ولم يكن في زمانك؟ قال: سمعت الصيحة، فظننت أن الساعة قامت فشبت من هولها. قيل: كان يحيي الموتى بـ { يا حي يا قيوم }.

{ وأنبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم } ، لما أبرأ الأكمه والأبرص قالوا، هذا سحر، أخبرنا بما نأكل وما ندخر؟ فكان يُخبر الرجل بما يأكل في غدائه وعشائه، ورُوي أنه لما كان في المكتب، كان يحدث الغلمان بما يصنع لهم آبأؤهم من الطعام، فيقول للغلام: انطلق... غداء أهلك كذا وكذا، فيقول أهله: من أخبرك بهذا؟ قال: عيسى، فحبسوا صبيانهم عنه، وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر، فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى يطلبهم، فقالوا: ليسوا ههنا، قال: ماذا في البيت؟ قالوا: خنازير، قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا الباب، فإذا هم خنازير، فهموا بقتله، فهربت به أمه إلى مصر. @ قاله السُّدي.

ثم قال لهم: { إن في ذلك لآية لِمِمْ إن كنتم مؤمنين } ، فإن غير المؤمنين لا ينتفع بالمعجزات لعناده، { ومصدقاً لِمِمْ بين يدي من التوراة } أي: وجئتكم مصدقاً للتوراة، وشاهداً على صحتها، { ولأحلِّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم } في شريعة موسى عليه السلام كالشحوم والثروب ولحم الإبل والعمل في السبت. وهذا يدل على أنه ناسخ للتوراة، ولا يخل بكونه مصدقاً له، كما لا يخل نسخ القرآن بعضه لبعض بصحته. فإن النسخ في الحقيقة: بيان لانتفاء العمل بذلك الحكم. ثم قال لهم:

{ و } قد { جئتمكم بآية } واضحة { من ربكم } ، قد شاهدتموها بأعينكم، فما بقي إلا عنادكم، { فاتقوا الله وأطيعون }.

ثم دعاهم إلى التوحيد بعد بيان الحجة فقال: { إن الله ربي وربكم فاعبدوه } ولا تعبدوا معه سواه، { هذا صراط مستقيم } لا عوج فيه. قال البيضاوي: أي: لما جئتمكم بالمعجزات القاهرة والآيات الباهرة، { فاتقوا الله } في المخالفة، { وأطيعون } فيما أدعوكم إليه، ثم شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل، فقال: { إن الله ربي وربكم }؛ أشار إلى استكمال القوة النظرية بالاعتقاد الحق الذي غايته التوحيد، وقال: { فاعبدوه }؛ إشارة إلى استكمال القوة العملية بملازمة الطاعة، التي هي الإتيان بالأوامر والانتهاز عن المناهي، ثم قرر ذلك بأن الجمع بين الأمرين هو الطريق المشهود له بالاستقامة، ونظيره: قوله عليه الصلاة والسلام: " قُلْ أَمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمَّ ".

الإشارة: كل من انقطع بكليته إلى مولاه، وصدف عن حظوظه، وهواه، وأفنى شبابه في طاعة ربه، وجعل يلتمس في حياته دواء قلبه، تحققت له البشارة في العاجل والآجل، وحصل له التطهير من درن العيوب والرذائل، وورقه من فواكه العلوم، ما تتضاءل دون إدراكه غاية الفهوم، هذه مريم البتول أفنت شبابها في طاعة مولاه، فقربها إليه وتولاها، وبشرها بالاصطفائية والتطهير، وأمرها شكراً بالجد والتشمير، ثم بشرها ثانياً بالولد النزيه والسيد النبيه، روح الله وكلمة الله، من غير أب ولا سبب، ولا معالجة ولا تعب، أمره بأمر الله، بيئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، هذا كله ببركة الانقطاع وسر الاتباع.

قال صلى الله عليه وسلم: " من انقطع إلى الله كَفَاهُ اللهُ كُلَّ مُؤْنَةٍ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَنْ انْطَقَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهَا ".

وقال بعضهم: صِدْقُ المَجاهِدةِ: الانقطاع إليه من كل شيء سواه. فالانقطاع إلى الله في الصغر يخدم على الإنسان في حال الكبر، ومعاصي الصغر تجر الوبال إلى الكبر، فكما أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، كذلك من انقطع بكليته إلى الله أبرأ القلوب السقيمة بإذن الله، وأحيا موتى القلوب بذكر الله، وأخبر بالغيوب وما تدخره ضمائر القلوب، يدل على طاعة الله، ويدعو بحاله ومقاله إلى الله، يهدي الناس إلى الصراط المستقيم، ويوصل من اتبعه إلى حضرة النعيم. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { قَلَمًا أَحْسَنَ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكَفَرُ قَالَ مَنْ أَنْصَارِيَا إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } \* { رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ } \* { وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ }

قلت: { من أنصاري إلى الله }؛ الجار يتعلق بحال محذوفة، أي: ذاهباً إلى الله إلى نصر دينه، أو مُضيفاً نفسه إلى الله، أو ملتجئاً إلى الله، أو يتعلق بـ { أنصاري }؛ مضمناً معنى الإضافة، أي: من يضيف نفسه إلى الله في نصره. وحواري الرجل: خاصته، الذي يستعين بهم في نوائبه، وفي الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام -: " لكل نبي حواري، وحواريي، الرُّبِّيْرُ " وحواريو عيسى: أصحابه الذين نصره، وسموا بذلك لخلوص نيتهم ونقاء سريرتهم. والحوار: البياض الخالص، وكل شيء يبيضته فقد حوَّرتَه، ويقال للبيضاء من النساء: حوارية. وقيل: كان الحواريون قَصَّارين، يُحَوِّرون الثياب، أي: يبيضونها، وقيل: كانوا ملوكاً يلبسون البياض.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { فلما أحسن عيسى { من بني إسرائيل { الكفر } ، وتحققه تَحَقَّقَ ما يدرك بالحواس، بعدما بُعث إليهم، وأرادوا قتله، فرَّ منهم واستنصر عليهم، و { قال من أنصاري { ملجئاً { إلى الله } ، أو ذاهباً إلى نصر دينه، { قال الحواريون نحن أنصار الله { أي: أنصار دينه، { أماناً بالله وأشهد { علينا بأننا { مسلمون }؛ لتشهد لنا يوم القيامة، حين يشهد الرسل لقومهم، { ربنا أماناً بما أنزلت { على نبيك من الأحكام، { واتبعتنا الرسول { عيسى عليه السلام، { فاكثبتنا مع الشاهدين { بوحدانيتك، أو مع الذين يشهدون لأنبيائك بالصدق، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - فإنهم شهداء على الناس.

قال عطاء: سَلَمَتْ مريمُ عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين، وكانوا قَصَّارين وصباغين، فأراد مُعلم عيسى السفر، فقال لعيسى: عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان، وقد علمتك الحرفة فاصبغها، فطيخ جُبَّاً، واحداً، وأدخل فيه جميع الثياب، وقال لها: كوني على ما أريد، فقدم الحواريُّ، والثياب كلها في الجب، فلما رآها قال: قد أفسدتها، فأخرج عيسى ثوباً أصفر، وأحمر، وأخضر، إلى غير ذلك، فعجب الحواريُّ، وعلم أنَّ ذلك من الله تعالى، ودعا الناس إليه، وأمنوا به، ونصروه، فهم الحواريون.

ولما أخرجه بنو إسرائيل عاد إليهم مع الحواريين، وصاح فيهم بالدعوة، فهَمُّوا بقتله، وتواطؤوا عليه، { ومكروا { أي: دبروا الحيل في قتله، { ومكر الله { بهم، أي: استدرجهم حتى قتلوا صاحبهم، ورُفِعَ عيسى عليه السلام، فالمكر في الأصل: هو حيلة يجلب بها غيره إلى مضرة. ولا تُسند إلى الله إلى على حسب المقابلة والازدواج: كقوله:

{ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ {

التَّسَاءُلُ: 142]، وقوله:

{ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ {

[البقرة: 15]، { والله خير الماكرين { . أي: أشدهم مكرراً، وأقواهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب، أو أفضل المجازين بالعقوبة؛ لأنه لا أحد أقدر على ذلك منه.

تنبيه: قيل للجنيد رضي الله عنه: كيف رضيَ المكر لنفسه، وقد عابه على غيره؟ قال: لا أدري، ولكن أنشدني فلان للطبرانية:

@فديتُك قد جُبِلْتُ على هِوَاكَ      ونفسي ما تَجَنُّ إلى سِوَاكَ

< أَجِبْكَ، لا بَبَعْضِي بل بكلي      وإن يُبَيِّقُ حُبُّكَ لي حِرَاكَا

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي      وَتَفَعَّلَهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

فقال له السائل: أسألك عن القرآن، وتجيبني بشعر الطبرانية؟ قال: ويحك، قد أجبتك إن كنت تعقل. إنَّ تخليته إياهم مع المكربة، مكرٌ منه بهم. هـ.

قلت: وجه الشاهد في قوله: (وتفعله فيحسن منك ذاك)، ومضمن جوابه: أن فعل الله كله حسن في غاية الإتقان، لا عيب فيه ولا نقصان، كما قال صاحب العينية:

وَكُلُّ قَبِيحٍ إِنْ پَسَبَتْ لِحُسْنِهِ      أَتَتْكَ مَعَانِي الْحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ  
يُكْمَلُ نُقْصَانَ الْقَبِيحِ جَمَالُهُ      فَمَا تَمَّ نُقْصَانٌ وَلَا تَمَّ بَاشِعُ

وتخليته تعالى إياهم مع المكر، تسبب عنه الرفع إلى السماء، وإبقاء عيسى حيًّا إلى آخر الزمان، حتى ينزل خليفة عن نبينا - عليه الصلاة والسلام -، فكان ذلك في غاية الكمال والإتقان، لكن لا يفطن لهذا إلا أهل العرفان.

الإشارة: يجب على المرید الصادق الذي يطلب دواء قلبه، أن يفر من الوطن الذي يظهر فيه الإنكار، إلى الوطن الذي يكثر فيه الإقرار، يفر إلى من يعينه على نصر الدين من الأبرار المقربين، الذين يجعلهم الله حواري الدين، ففي الحديث الصحيح: " حَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ عَتْمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ يَفِرُّ مِنَ الْفِتَنِ " فالمؤمن يفر بدينه من شاهق جبل إلى شاهق جبل حتى يدركه الموت، وما زالت الأكابر تفر بنفسها إلى شواهد الجبال، يهربون من حس الدنيا وشغبتها، ولا يرافقون إلا من يستعين بهم على ذكر الله، وهم أهل التجريد، الذي اصطفاهم الله لخالص التوحيد، فروا إلى الله فأواهم الله، قالوا: { آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون } منقادون لما تريد منا، { ربنا آمنا بما أنزلت } من الأحكام الجلالية والجمالية، قد عرفناك في جميع الحالات، { فاكتبنا مع الشاهدين } لحضرتك، المنعمين بشهود ذاتك، ومن مكر بنا من القواطع الخفية فَعَيَّنَا عنه بشهود أنوارك القدسية، وانصرنا فإنك خير الناصرين، ولا تدعنا مع مكر الماكرين يا رب العالمين.

@ { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْبُرْ بِكُمُ الْفِتْنَةَ وَابْعَثْ فِي الْبَلَدِ الْغَافِلِينَ } \* { وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ } \* { وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } \* { ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ }

قلت: { إذ قال } : ظرف لمقدر، أي: اذكر، أو وقع ذلك إذ قال، أو لمكروا، و { متوفيك } أي: رافعك إليّ وافيًّا تامًّا، من قولهم: توفيت كذا واستوفيته: قبضته وافيًّا تامًّا، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت، أو منيمك؛ يدلل قوله تعالى:

{ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ }

[الأنعام: 60]، رُوِيَ أنه رُفِعَ نائمًا، والإجماع على أنه لم يموت، قال تعالى: { وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم } ، وقوله: { ذلك } مبتدأ، و { نتلوه } : خبر، و { من الآيات } : حال، أو خبر بعد خبر.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: اذكر { إذ قال الله } لعيسى عليه السلام لما أراد رفعه: { يا عيسى إني متوفيك } ، أي: قابضك إليّ بيدك تامًّا، { ورافعك إليّ } أي: إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي، { ومطهرك من الذين كفروا } أي: من مخالطة دنس كفرهم، { وجاعل الذين اتبعوك }؛ ممن صدق نبوتك من النصارى والمسلمين، وقال قتادة والشعبي والربيع: هم أهل الإسلام. هـ. فوالله ما اتبعه من ادعاه ربا، فمن تبع دينه حقًّا وقد حقق الله فيهم هذا الأمر، فإن اليهود لم ترفع لهم راية قط، ولم يتفق لهم ملك ولا دولة إلى زمننا هذا.

ثم قال تعالى: { ثم إليّ مرجعكم } بالبعث، { فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون } من أمر الدين وأمر عيسى. { فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة } أي: فأجمع لهم عذابًا الآخرة لعذاب الدنيا الذي أصابهم فيها من القتل

والسبي. { وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فنوفيهم أجورهم } في الدارين بالنصر والعز في الدنيا، وبالرضا والرضوان في الآخرة، { والله لا يحب الظالمين }؛ لا يرضى فعلهم ولا يقربهم إليه.

{ ذلك } الذي ذكرت لك من نبأ عيسى ومريم ومن ذكر قبلهما، { تتلوه عليك من الآيات } أي: العلامات الدالة على صدقك، لأنها أخبار عن أمور لم تشاهدها ولم تقرأها في كتاب، بل هي من { الذكر الحكيم }، وهو القرآن المبين.

الإشارة: كل ما طهر سره من الأكدار، وقدس روحه من دنس الأغيار، ورفع همته عن هذه الدار، عرج الله بروحه إلى سماء الملكوت، ورفع سره إلى مشاهدة سنا الجبروت، وبقي ذكره حياً لا يموت، وجعل من انتسب إليه في عين الرعاية والتعظيم، وفي محل الرفعة والتكريم، قال - عليه الصلاة والسلام - : " هَاجَرُوا تَكْسِبُوا الْعِزَّ لِأَوْلَادِكُمْ " ، فمن هاجر وطن الحظوظ والشهوات، والركون إلى العوائد والمألوفات، عرجت روحه إلى سماء القدس ومحل الأنس، وتمكن من العز الذي لا يفنى، ينسحب عليه وعلى أولاده ومن انتسب إليه؛ إلى أن يرث الأرض ومن عليها، { وهو خير الوارثين }. هذه سنة الله في خلقه، لأنهم نصرُوا دين الله ورفعوا كلمة الله، فنصرهم الله، ورفعهم الله، قال تعالى:

@{ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ }

[مَحْمَد: 7]، وقال تعالى:

{ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا }

[التوبة: 40]. وفي الحكم: " إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى، فلا تستعزن بعز يفنى ". والله تعالى أعلم.

وقال القشيري: الإشارة فيه: إني متوفيك عنك وقابضك منك، ورافعك عن نعوت البشرية، ومطهرك عن إرادتك بالكلية، حتى تكون مصدقاً لنا بنا، ولا يكون لك من اختيارك شيء، وتكون إسبال التولي عليك قائماً، وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة عليه. هـ. وقال الورتجي: متوفيك عن رسم الحدوثية، ورافعك إلي بنعت الربوبية، ومطهرك عن شوائب البشرية. هـ.

@{ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } \*  
{ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { إن مثل عيسى عند الله } أي: إن شأنه الغريب في كونه وجد من غير أب { كمثل آدم }. ثم فسر شأن آدم فقال: { خلقه من تراب } أي: خلق قلبه من تراب، { ثم } نفخ فيه الروح، و { قال له كن فيكون } أي: فكان، فشأنه أغرب من شأن عيسى، لأنه وجد من غير أب ولا أم، بخلاف عيسى عليه السلام، فلا يستغرب حاله ويتغالي فيه إلا من طبع الله على قلبه، فاستعجز القدرة الإلهية، { وكان الله على كل شيء مقتدرًا }. هذا هو { الحق من ربك } فلا تكن من الممترين { أي: الشاكين في مخلوقيته، وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، على طريق التهيج لغيره، أو لكل سامع.

وسبب نزول الآية: أن وفد نجران قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: مالك تشتم صاحبنا، فتقول: إنه عبد؟ قال: أجل، هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً



فأرنا مثله. فنزلت: { إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم }. أي: فهو أعجب من عيسى، لكونه بلا واسطة أصلاً. رُوِيَ أن مريم حملت بعيسى وهي بنت ثلاث عشر سنة، وأوحى الله إليه على رأس ثلاثين سنة، ورفعته إليه من بيت المقدس ليلة القدر، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وعاشت أمه بعد رفعه ست سنين.

قال عليه الصلاة والسلام: " أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، فإنه نازل بأمتي وخليفتي فيهم، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كأن شعره يقطر، وإن لم يصبه بلل، يدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويفيض المال، وليسلكن الروحاء حاجاً أو معتمراً، أو ليثيئتهما جميعاً، ويقاتل الناس على الإسلام، حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها، ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة، الكذاب الدجال، وتقع في الأرض الأمانة، حتى ترتفع الأسد مع الإبل، والنمر مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الغلمان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتزوج ويولد له ثم يتوفى، ويصلي المسلمون عليه " ويدفونونه في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

الإشارة: اعلم أن الحق - جلّ جلاله - أظهر هذا الآدمي في شكل غريب، وسر عجيب، جمع فيه بين الضدين، وأودع فيه سر الكونين، نوراني ظلماني، روحاني جسماني، سماوي أرضي، ملكوتي ملكي، معنوي حسي، أودع فيه الروح نورانية لاهوتية في نطفة ناسوتية، فوق التنازع بين الضدين، فالروح تحن إلى وطنها اللاهوتي، والنطفة الطينية تحن إلى وطنها الناسوتي، فمن غلب روحانيته على طينته التحق بالروحانيين، وكان من المقربين في أعلى عليين، فصارت همته منصرفة إلى طاعة مولاه، والارتقاء إلى مشاهدة نوره وسناه، فانياً عن حظوظه وهواه، من غلبت طينته على روحانيته التحق بالبهائم أو الشياطين، وانحط إلى أسفل سافلين، وكانت همته منصرفة إلى حظوظة وهواه، غائباً عن ذكر مولاه، قد اتخذ إلهه هواه. @ وتأمل قضية السيد عيسى عليه السلام لَمَّا لم ينشأ من نطفة أمشاجية، كيف غلبت روحانيته، حيث لم تجد ما يجذبها إلى الحضيض الطيني، فلم يلتفت إلى هذا العالم الظلماني أصلاً، وكذلك الأنبياء حيث طهروا من بقاياها في الأصالة، والأولياء حيث طهروها بالمجاهدة، كيف صارت أرواحهم لا تشناق إلا إلى الأذكار والعلوم والأسرار، فانية في محبة الواحد القهار، حتى لحقت بوطنها، ورجعت إلى أصلها، محل المشاهدة والمكالمة والمناجاة والمساررة، هذا هو الحق من ربك فلا تكن من الممترين في إدراك الروح المقام، إن لم يغلب عليها عالم الصلصال. والله - تعالى - أعلم.

@ { فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَيَجْعَلْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ } \*  
{ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } \*  
{ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ } \*

قلت: { أصل } { تعالوا } : تعالوا، على وزن تفاعلوا، من العلو، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحركها، ثم حذف، ومن قرأ بالضم نقل، وأصل معناها: ارتفع، ثم أطلق على الأمر بالمجيء. والابتهاال: التضرع والمبالغة في الدعاء.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { فمن } خاصمك يا محمد في شأن عيسى عليه السلام، وكان الذي خاصم في ذلك السيد والعاقب، لما قدموا مع نصارى نجران على النبيّ

صلى الله عليه وسلم، قال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: "أسلما"، قالوا: قد أسلما قبلك، قال: "كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما عيسى لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير"، قالوا: إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه؟ فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: أستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن ربنا قيّم كل شيء، ويحفظه، ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل ملك عيسى شيئاً من ذلك؟ فقالوا: لا. قال: أستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى، قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علم؟ قالوا: لا. قال: فإن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، قالوا: بلى. قال: أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها، ثم عُدّي كما يُعَدّي الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى. قال: كيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا .. فأنزل فيهم السورة إلى هنا.

فقال الحقّ لنيه - عليه الصلاة والسلام -: { فمن حاجك فيه { أي: في عيسى من النصارى، { من بعد ما جاءك من العلم { بعبوديته، { فقل { لهم: { تعالوا { تتلّعن، أي: نلعن الكاذب منا؛ { ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم { أي: يدعون كل واحد منا نفسه وأعرّة أهله وألصفهم بقلبه إلى المباهلة، وإنما قدّمهم على النفس؛ لأن الرجل يخاطر بنفسه دونهم، فكان تقديمهم أبلغ في الابتهاال، { ثم نبتهل { ، أي نجهد في الدعاء على الكاذب، { فنجعل لعنة الله على الكاذبين { .

فلما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع وننظر في أمرنا، فقالوا للعاقب - وكان ذا رأيهم -: ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالقصّل من أمر صاحبكم، والله ما لآعن قوم قط نبيّاً فعاش كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم ذلك لتهلكن، فوادِعُوا الرَّجُلَ: وانصرفوا، فأتوه وهو محتضن الحسن أخذ بيد الحسين، وفاطمة تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول لهم: "إِذَا دَعَوْتُ فَأَمُّتُوا"، فقال الأسفُف: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يُزيل جبلاً من ماكنه لأزاله، فلا تتباهلوا فتهلكوا جميعاً إلى يوم القيامة. @فقالوا: يا أبا القاسم، نرى ألا نلاعنك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أسلّموا يَكُنْ لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ"، فأتوا، فقال: "إني أنا بذككم"، فقال: ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكننا نصالحك على ألا تغزونا ولا تتردنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك في كل عام ألقى حلة، ألفاً في صفر، وألفاً في رجب، وثلاثين درعاً من حديد. فصالحهم النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فقال النبي: "والذي نفسي بيده لو تلاعنوا لمسيحوا قردة، وختازير، ولأضرم عليهم الوادي تاراً ولاستأصل الله نجران وأهلها، ولما حال الحول على النصارى كلّه حتى هلكوا".

قال الله تعالى: { إن هذا { الذي أوحينا إليك { لهو القصص الحق وما من إله إلا الله { ، خلافاً لما يزعم النصارى من التثليث، { وإن الله لهو العزيز { في ملكه { الحكيم { في صنعه، فلا أحد يساويه في قدرته التامة، ولا في حكمته البالغة، { فإن تولوا { وأعرضوا عن الإيمان، { فإن الله عليهم بالمفسدين { ، الذي يعبدون غير الله. ووضع المظهر موضع الضمير، ليدل على أن التولي عن الحجج والإعراض عن التوحيد إفساد للدين، بل يؤدي إلى فساد العالم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للمريد، الذي تحقق بخصوصية شخيه، أن يلاعن من يخاصمه فيه، ويبعد عنه كل البعد، ولا يهي له لئلا يركبه، ويدفع عن شخيه ما استطاع، فإن هذا من التعظيم الذي هو سبب في سعادة المرید، ولا يصغي إلى المفسدين الطاعنين في أنصار الدين. قلت: وقد جاءني بعض من ينتسب إلى العلم من أهل فاس، فقال لي: قد اتفقت علماء فاس على بدعة شيخكم، فقلت له: لو اتفق أهل السماوات السبع والأرضين السبع، على أنه من أهل البدعة، لقلت أنا: إنه من أهل السنة، لأنني تحققت بخصوصيته، كالشمس في أفق السماء، ليس دونها سحب. فالله يرزقنا حسن الأدب معهم والتعظيم إلى يوم الدين. آمين، فمن أعرض عن أولياء الله من المنكرين؛ { فإن الله عليم بالمفسدين } ثم دعاهم إلى التوحيد الذي اتفقت عليه سائر الأديان.

@ { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } {

قلت: { سواء } مصدر، نعت للكلمة، والمصادر لا تثني ولا تجمع ولا تؤنث، فإذا فتحت السين مددت، وإذا ضمت أو كسرت قصرت، كقوله: { مكاناً سوى } أي: مستو. وسواء كل شيء: وسطه، قال تعالى: { قَرَّاءَةٌ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ } [الصفافات: 55]، أي: وسطه.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد: { يا أهل الكتاب } اليهود والنصارى، { تعالوا } هلموا { إلى كلمة سواء } أي: عدل مستوية، { بيننا وبينكم }؛ لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم، هي { ألا نعبد إلا الله } أي: نوحده بالعبادة، ونقر له بالوحدانية، { ولا نشكر به شيئاً } أي: لا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة، { ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله } أي: لا نقول عزير ابن الله، ولا المسيح ابن الله، ولا نطيع الأحرار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل، لأنهم بشر مثلنا.

ولما نزل قوله تعالى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ... } [الطّوّة: 31] قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، قال: " أليس كانوا يُجَلون لكم ويحرمون، فتأخذون بقولهم؟ " قال: بلى، قال: " هُوَ ذَاكَ " { فإن تولوا } وأعرضوا عن التوحيد { فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون } ، فقد لزمتمكم الحجة، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم، وأنتم كافرون بما نطقتم به الكتب وتواطأت عليه الرسل.

تنبيه: انظر ما في هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج في الاحتجاج، بين أولاً أحوال عيسى وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية، ثم ذكر ما يحل عقدهم ويزيح شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد، عاد عليهم بالإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب،

ثم لما لم يُجد ذلك فيهم شيئاً، وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم شيئاً أعرض عنهم، وقال: { قولوا اشهدوا بأنا مسلمون }. قاله البيضاوي.

الإشارة: الطرق كثيرة والمقصد واحد، وهو التوحيد الخاص، أعني مقام الفناء والبقاء. فالداعون إلى الله كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها، وكل داع لا يُبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال، فإن رضي بتعظيم الناس، ولم يبين طريقه على الأساس، فليس لصاحبه إلا الإفلاس، وكل من أطاع المخلوق في معصية الله فقد اتخذهُ رباً من دون الله، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه من الطرد والبعاد، فيقول له الواصلون أو السائرون: { فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون }. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما قدم وفد نجران المدينة، التقوا مع اليهود، فاختصموا في إبراهيم عليه السلام فاتاهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا محمد إنا اختلفنا في إبراهيم ودينه، فقالت النصراني: كان نصرانياً، وقالت اليهود: كان يهودياً، وهم أولى الناس به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " كلا الفريقين بريء من إبراهيم، بل كان إبراهيم حنيفاً مسلماً، وأنا على دينه، فاتبعوا دينه الإسلام ".

@ { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } \* { هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ قَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } \* { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } \* { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَادَا النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: { ها أنتم } : أصله: أنتم، دخلت عليه هاء التنبيه، وقال الأخفش: أصله: أنتم، فقلبت الهمزة الأولى هاء، كقوله: هرقت. وتوجيه القراءات معلوم في محله، و { أنتم } : مبتدأ، و { هؤلاء } : خبره، و { حاججتم } : جملة مبينة للأولى، أو { حاججتم } : خبر، و { هؤلاء } : منادى بحذف النداء، و { حنيفاً } : حال، أي: مائلاً عن الأديان إلا دين الإسلام.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أهل الكتاب لم تُحاجون في إبراهيم } ، ويدعي كل فريق أنه كان على دينه، { وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده } ، فكيف يكون يهودياً، ودينكم إنما حدث بعد إبراهيم بألف سنة؟! وكيف يكون نصرانياً، ودين النصرانية إنما ظهر بعد إبراهيم بألفي سنة؟! { أفلا تعقلون } فتدعون المحال، { ها أنتم } يا { هؤلاء } الحمقى { حاججتم فيما لكم به علم } من أمر محمد - عليه الصلاة والسلام - ونبوته، مما وجدتموه في التوراة والإنجيل، فأنكرتموه عناداً وحسداً، قَلِمَ تجادلون فيما لا علم لكم به، ولا ذكر في كتابكم من شأن إبراهيم؟ { والله يعلم } ما خصمتم فيه، { وأنتم لا تعلمون } ، بل أنتم جاهلون.

ثم صرّح بتكذيب الفريقين فقال: { ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً } مائلاً عن العقائد الزائفة، { مسلماً } منقاداً لأحكام ربه. وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام، وإلا لكان مشترك الإلزام، لأن دين الإسلام مؤخر أيضاً،

فكان إبراهيم إمام الموحدين، { وما كان من المشركين } كما عليه اليهود والنصارى والمشركون. ففيه تعريض بهم، ورد لادعائهم أنهم على ملته.

ثم ذكر مَنْ أولى الناس به، فقال: { إن أولى الناس بإبراهيم } أي: أحصهم به وأقربهم منه، { للذين أتبعوه } من أمته في زمانه، { وهذا النبي } محمد صلى الله عليه وسلم، { والذين آمنوا }؛ لموافقهم له في أكثر الأحكام، قال صلى الله عليه وسلم: " لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي " يعني إبراهيم عليه السلام، { والله ولي المؤمنين } أي: ناصرهم على سائر الأديان، ومجازيهم بغاية الإحسان.

الإشارة: ترى كثيراً من المتفكرة يخصون الكمال بطريقهم، ويخاصمون في طريق غيرهم، وهي نزعة أهل الكتاب، حائدة عن الرشد والصواب، فأولى بالحق من اتباع السنة المحمدية، وتخلق بالأخلاق المرضية، وزهد في الدارين، ورفع همته عن الكونين، ورفع حجاب الغفلة عن قلبه، حتى أشرقت عليه أنوار ربه، واتصل بأهل التربية النبوية، فزجوا به في بحار الأحدية، ثم رده إلى مقام الصحو والتكميل، فيا له من مقام جليل، فهذه ملة إبراهيم الخليل، وبها جاء الرسول الجليل حبيب الرحمن، وقطب دائرة الزمان، سيد المرسلين، وإمام العارفين، ورسول رب العالمين، صلى الله عليه وسلم دائماً إلى يوم الدين.

@ { وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } \* { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ } \* { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }

قلت: { لو } : مصدرية، أي: تمنوا إضلالكم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: لبعض المسلمين - وهم حذيفة وعمار ومعاذ - دعاهم اليهود إلى دينهم وطمعوا فيهم: { ودت طائفة } أي: تمنى طائفة { من أهل الكتاب لو يضلونكم } أي: يفتنونكم عن دينكم، ويتلفونكم عن طريق الحق، { وما يضلون إلا أنفسهم }؛ لأن المسلمين لا يقولون ذلك منهم، فرجع الضلال عليهم، وعاد وباله إليهم، وتضاعف عذابه عليهم، { وما يشعرون } أن وباله راجع إليهم.

ثم صرح الحق تعالى بعتابهم، فقال: { يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله } المنزلة على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتجحدون رسالته؟ { وأنتم تشهدون } أنها من عند الله، وأنه نبي الله، وهو منعت عندكم في التوراة والإنجيل، والمراد أحبارهم، أو تشهدون أنه نبي الله بالمعجزات الواضحات. { يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل } بالتحريف وإبراز الباطل في صورة الحق، حتى كتمتم نعت محمد وحرفتموه، وأظهرتم موضعه الباطل الذي سولت لكم أنفسكم؟ { وتكتمون الحق }؛ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، { وأنتم تعلمون } أنه رسول الله حقاً وأن دينه حق، أو: وأنتم عالمون بكتمانكم.

الإشارة: ترى كثيراً من أهل الرئاسة والجاه من أولاد الصالحين، وممن ينتسب لهم، إذا رأوا من ظهر بالخصوصية في زمانهم يتمنون إضلالهم وإطفاء أنوارهم، خوفاً على زوال رئاستهم، { وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون } ، { وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }

[الصف: 8]، وهذه نزعة يهودية سببها الحسد، والحسود لا يسود، وبعضهم يتحقق بخصوصية غيرهم، فيكتمها وهو يشهد بصحتها، فيقال لهم: { لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون }؟ و { لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون }؟

@ { وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }

قال الحسن والسدي: تواطأ اثنا عشر رجلاً من يهود خيبر - يعني من أبحارهم - وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان لا بالاعتقاد، واكفروا به آخره، وقولوا: نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فوجدنا محمداً ليس بذلك، وظهر لنا كذبه، وإنما نفعل ذلك حتى نشكك أصحابه. هـ. فحذر الله المسلمين من قولهم، فقال جلّ جلاله: { وقالت طائفة من أهل الكتاب { يعني: أبحارهم: { آمنوا والذي أنزل على الذين آمنوا { وأظهروا الدخول في دينهم، { وجه النهار وكفروا آخره { وقولوا: نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا، فلم نجد محمداً بالنعته الذي في التوراة، لعل أصحابه يشكون فيه - لعنهم الله وأضلّ سعيهم.

وقيل: نزلت في شأن الكعبة، فإنّ كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف - من اليهود - قالا لأصحابهما: صلوا معهم إلى الكعبة أول النهار، ثم صلوا إلى الصخرة آخره، لعلمهم يقولون: هم أعلم منا، وقد رجعوا، فيرجعون، ففضحهم الله وأبطل حيلهم الواهية.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس يدخلون في طريق القوم، ثم تثقل عليهم أعباؤها، فيخرجون منها؛ إما لضعفهم عن حملها، أو لكونهم دخلوا مختبرين لها، أو على حرف أو حيلة لغيرهم، فإذا رجع أحد منهم قال الناس: لو كانت صحيحة ما رجع فلان عنها، ويصدون الناس عن الدخول فيها والدوام عليها، وهذه نزعة إسرائيلية، قالوا: آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلمهم يرجعون وقد قال عليه الصلاة والسلام: " لتسلكن سنن من قبلكم شبراً، وذراعاً بذرّاع، حتى لو دخلوا جحر صبّ لدخلتموه، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: نعم، فمن إذن " وبالله التوفيق.

@ { وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتِيَا آحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيَئُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } \* { يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ }

قلت: يحتمل أن يكون قوله: { أن يؤتى } مفعولاً بـ { تؤمنوا } ، و { قل إن الهدى هدى الله }؛ اعترض، واللام في " لمن " صلة، { أو يحاجوكم }؛ عطف على { يؤتى } ، والتقدير: ولا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، إلا من كان على دينكم، ولا تصدقوا أن يحاجوكم عند ربكم، بل أنتم تحاجون غيركم. فردّ الله عليهم { قل إن الهدى هدى الله } ، و { إن الفضل بيد الله } . ويحتمل أن يكون قوله: { أن يؤتى } مفعولاً لأجله، والعامل فيه محذوف، التقدير: أدبرتم ما دبرتم كراهية أن يؤتى أحد ما أوتيتم، ومخافة أن يحاجوكم عند ربكم؟.

يقول الحقّ جلّ جلاله: حاكياً عن اليهود: { و { قالوا { لا تؤمنوا } أي: لا تقروا أو تصدقوا { أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم } من العلم والحكمة وقلق البحر وسائر

الفضائل، { إلا لمن تبع } دين اليهودية، وكان على { دينكم } ، ولا تؤمنوا أن { يحاجوكم عند ربكم }؛ لأنكم أصح ديناً منهم. قال الحقّ جلّ جلاله: { قل } لهم: { إن الهدى هدى الله } يهدي به من يشاء، و { إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء }.

يقول الحقّ جلّ جلاله: وقالوا: لا تصدقوا ولا تدعونا { إلا لمن تبع دينكم } وكان من جلدتكم، فإن النبوة خاصة بكم. فكذبهم الحق بقوله: { قل إن الهدى هدى الله } ، يخص به من يشاء من عباده، فكيف تحصرنها فيكم؟ لأجل { أن يؤتّى أحدٌ مثل ما أوتيتم } قلت ما قلت، ودبرتم ما دبرتم، حسداً وبغياً، { أو } خوفاً أن { يحاجوكم عند ربكم } ، يغلبوكم بالحجة لظهور دينهم، { قل } يا محمد: { إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء }؛ فلا ينفع في رده حيلة ولا خدع.

أو يقول الحقّ جلّ جلاله: للمؤمنين، تشيئاً لهم وتشجيعاً لقلوبهم: ولا تصدقوا يا معشر المؤمنين أن يعطي أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدين القويم إلا من تبع دينكم الحق، وجاء به من عند الحق، ولا تصدقوا { أن يحاجوكم } في دينكم { عند ربكم } أو يقدر أحد على ذلك، فإن الهدى هدى الله والفضل بيد الله، { يؤتية من يشاء والله واسع } الفضل والكرم، { عليم } بمن يستحق الخصوصية والفضل، { يختص برحمته من يشاء } كالنبوة وغيرها، { والله ذو الفضل العظيم }؛ لا حصر لفضله، كما لا حصر لذاته.

الإشارة: يقول الحق - جلت ذاته، وعظمت قدرته - لأهل الخصوصية: ولا تقروا بالخصوصية إلا لمن كان على دينكم وطريقكم، وتزيراً بزيكم، وبذل نفسه وفلسه في صحبتكم، مخافة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الخصوصية، وهو ليس أهلاً لها، فيأخذها علماً، فإما أن يتزندق أو يتفسق، أو يحاجوكم بالشرعية فيريق دماءكم؛ كما وقع للحلاج رضي الله عنه وفي ذلك يقول الشاعر:

ومن شهد الحقيقة فليصنها  
كحلاج المحبة إذ تبدت له  
وإلا سوف يقتل بالسنان  
له سمس الحقيقة بالتداني  
وقال آخر:

بالسرّ إن باخوا تباخ دماؤهم  
وكذا دماء البائحين تباخ  
وقل أيها العارف، لمن طلب الخصوصية قبل شروطها أو أنكر وجودها عند أهل شرطها: إن الهدى هدى الله يهدي به من يشاء - والفضل بيد الله يؤتية من يشاء والرحمة - التي هي الخصوصية - في قبضة الله، يخص بها من يشاء، { والله ذو الفضل العظيم }؛ فمن أراد الخصوصية فليطلبها من معدنها، وهم العارفون بها، فيبذل نفسه وفلسه لهم حتى يُعرفوه بها. وبالله التوفيق.

@ { ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دُمّت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا لئيس علينا في الأميين سبيلٌ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون } \* { بلنا من أوقنا بعهدِهِ وَاتَّقَى قَائِنَ اللَّهِ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }

قلت: الباء في { بقنطار } ، بمعنى على، و { يؤده } : جواب الشرط مجزوم بحذف الياء، ومن قرأ بإسكان الضمير فلأنه أقامه مقام المحذوف، فجزمه عوضاً عنه،

وقال الفراء: مذهب بعض العرب: يسكنون الهاء إذا تحرك ما قبلها، يقولون: ضربته ضرباً شديداً.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ومن أهل الكتاب } من أسلم وآمن فصار من أهل الإيمان { إن تأمنه } على { قنطار } من المال أو أكثر أداه إليك، ولم يخن منه شيئاً. وفي الحديث: " من ائتمن على أمانة فأداها، ولو شاء لم يؤدها، وزوجه الله من الحور العين ما شاء " { ومنهم } من بقي على دينه من أهل الخيانة والخسران، { إن تأمنه } على { دينار } فأقل { لم يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً } على رأسه، مبالغاً في مطالبته. نزلت في عبد الله بن سلام، استودعه قرشي ألفاً ومائتي أوقية ذهباً، فأداها إليه، وفي فنحاص بن عازوراء اليهودي، استودعه قرشي آخر ديناراً، فجحده. وقيل: في النصارى واليهود، فإن النصارى: الغالب عليهم الأمانة، واليهود الغالب عليهم الخيانة.

وذلك الاستحلال بسبب أنهم { قالوا ليس علينا في الأميين سبيل } أي: ليس علينا في شأن من ليسوا أهل كتاب، ولم يكونوا على ديننا، حرج في أخذ مالهم وجحدها، ولا إثم، { ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون } أنهم كاذبون؛ لأنهم استحلوا ظلم من خالفهم، وقالوا: لم يجعل لهم في التوراة حرمة.

وقيل: غامل اليهود رجلاً من قريش، فلما أسلموا تفاضوهم، فقالوا: سقط حكمك حيث تركتم دينكم. وقال صلى الله عليه وسلم: " كَذَبَ أَعْدَائُ اللَّهِ، مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي، إِلَّا الْأَمَانَةَ فَإِنَّهَا مُؤَدَاةٌ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ".

ثم كذبهم الحقّ - تعالى - فقال: { بلى }؛ عليهم في ذلك سبيل، فإن { من أوفى بعهده واتقى } الشرك والمعاصي { فإن الله يحب المتقين } ومن أحبه الله كيف يبأح ماله وتسقط حرمة؟! بل من أسقط حرمة فقد حارب الله ورسوله، أو { من أوفى }، بعهد الله من أهل الكتاب، فأمن بمحمد - عليه الصلاة والسلام - { واتقى } الخيانة، وأدى الأمانة، { فإن الله يحب المتقين }. وأوقع المظهر موقع الضمير العائد إلي " من "؛ لعمومه، فإن لفظ المتقين عام يصدق برد الودائع وغيره، إشعاراً بأن التقوى ملاك الأمر وسبب الحفظ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد رأينا بعض الفقهاء دخل بلد الحقيقة فسقطت من قلبه هبة الشريعة، فتساهل في أموال الناس وسقطت لديه حرمة العباد، حتى لا تثق به في حفظ مال ولا أهل، فإذا أودعته شيئاً أو قارضته لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً. وهذه زندقة ونزعة إسرائيلية. لا يرضاها أدنى الناس، فما بالك بمن يدعي أنه أعلى الناس، وفي بعض الحكم: [كَمَالُ الدِّبَانَةِ تَرَكَ الخِيَانَةَ]، وأعظم الإفلاس خيانة الناس، وفي الحديث: " تَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهَوَاً مُتَافِقٌ، وَإِنْ صَلَّى وَإِنْ صَامَ وَرَعِمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، إِذْ حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا ائْتَمَرَ حَانَ " فإذا احتج لنفسه الأمانة، وقال: لا سبيل علينا في متاع العوام، فقد خلع من عنقه ربة الإسلام، واستحق أن يعلو مفرقه الحُسام. والله تعالى أعلم.

@ { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تَمَنَّا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }



يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين يشترون بعهد الله { أي: يستبدلون بالوفاء بعهد الله كالإيمان بالرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي أخذ على بني إسرائيل في التوراة وبيان صفته، وأداء الأمانة، فكنتموا ذلك واستبدلوا به { ثمناً قليلاً }؛ حطاماً فانياً من الدنيا، كانوا يأخذونه من سفلتهم، فخافوا إن يئبوا ذلك زال ذلك عنه، وكذلك الأيمان التي أخذها الله عليهم لئن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنين به ولينصرنه، فنقضوها، خوفاً من زوال رئاستهم، فاستبدلوا بالوفاء بها ثمناً فانياً، { أولئك لا خلاق لهم { أي: لا نصيب لهم، { في الآخرة، ولا يكلمهم الله { بما يسرهم، أو بشيء أصلاً، وإنما الملائكة تسألهم، { ولا تنظر إليهم يوم القيامة { نظرة رحمة، بل يعرض عنهم، غضباً عليهم وهواناً بهم، { ولا يزكهم {؛ لا يطهرهم من ذنوبهم، أو لا يُثني عليهم، { ولهم عذاب أليم { أي: موجه.

قال عكرمة: نزلت في أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن النبي صلى الله عليه وسلم من بيان صفته، فكنتموا ذلك وكتبوا غيره، وحلفوا أنه من عند الله، لئلا يفوتهم الرشا من أتباعهم.

وقال الكلبي: إن ناساً من علماء اليهود كانوا ذا حظ من علم التوراة، فأصابته سنة، فأتوا كعب بن الأشرف يستميرونه، أي: يطلبون منه الميرة - وهو الطعام -، فقال لهم كعب: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول في كتابكم؟ قالوا: نعم، أو ما تعلمه أنت؟ قال: لا، قالوا: فإننا نشهد أنه عبد الله ورسوله، قال كعب: لقد قدمتم عليّ، وأنا أريد أن أميركم وأكسوكم، فحَرَمَكُمُ اللهُ خيراً كثيراً، قالوا: فإنه شُبّه لنا، فَرُوِّدَاً حتى نلقاه، فانطلقوا، فكتبوا صفة غير صفته، ثم أتوا نبيّ الله - عليه الصلاة والسلام - فكلّموه، ثم رجعوا إلى كعب، فقالوا: قد كنا نرى أنه رسول الله، فأتيناه فإذا هو ليس بالنعته الذي نُعت لنا، وأخرجوا الذي كتبوه، ففرح كعب، ومارهم. فنزلت الآية. قلت: انظر الطمع، وما يصنع بصاحبه والعياذ بالله.

وقيل: نزلت في رجل أقام سلعته في السوق، وحلف لقد أعطى فيها كذا وكذا، وقيل: نزلت في الأشعث بن قيس، كانت بينه وبين رجل خصومة، فتوجهت اليمين على الرجل، فأراد أن يحلف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد أخذ الله العهد على الأرواح ألا يعبدوا معه غيره، ولا يميلوا إلى شيء سواه، فكل من مال إلى شيء، أو ركن بالمحبة إلى غير الله، فقد نقض العهد مع الله، فلا نصيب له في مقام المعرفة، ولا تحصل له مشاهدة ولا مكاملة حتى يثوب ويتوجه بكليته إلى مولاه. والله - تعالى أعلم.

@ { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإن من أهل الكتاب لفريقاً { ، وهو كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، ومالك بن الصيف، وأبو ياسر، وشعبة بن عامر، { يلوون { أي: يفتلون { ألسنتهم بالكتاب { أي: التوراة عند قراءته، فيميلون عن المنزل إلى المُحرف، { لتحسبوه من الكتاب { أي: لتظنوا أن ذلك المحرف من التوراة، { وما

هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب { فيما نسبوا إليه، { وهم يعلمون } أنه ليس من عند الله.

قال ابن عباس: نزلت في اليهود والنصارى جميعاً، حرفوا التوراة والإنجيل، وألحقوا به ما ليس منه، وأسقطوا منه الدين الحنيف، فبين الله كذبهم، وقيل: في الرجم، حيث كتموا الرجم، وألقى قارئ التوراة يده على آية الرجم، وقرأ ما حولها، فقال له ابن سلام: ارفع يدك، فإذا آية الرجم تلوح. والله أعلم.

الإشارة: هذه الآية تنسحب على علماء السوء، الذي يفتون بغير المشهور، لحظ يأخذونه من الدنيا، وعلى قضاة الجور الذين يحكمون بالهوى، ويعتمدون على الأقوال الواهية، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

وكذلك بعض المنتسبين من الفقراء، يتصنعون إلى العامة، يطمعون فيما في أيديهم من الحطام، فيظهرون لهم علوماً ومعارف وحكماً، يلوون ألسنتهم بها وقلوبهم خاوية من معناها، فظاهر حالهم يؤهم أن ذلك موافق لقلوبهم، وأنهم عاملون بذلك، وباطنهم يكذبهم في ذلك،  
{ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }  
[البقرة: 213].

@ { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَّ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ يَدْرُسُونَ } \* { وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }

قلت: البشر: اسم جمع لا مفرد له، يطلق على الجماعة والواحد. والرباني: هو الذي يربي الناس ويؤدبهم ويهذبهم بالعلم والعمل. وقال ابن عباس: (هو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره)، والنون فيه للمبالغة، كلحياني ورقباني. و { ولا يأمركم بالرفع، استئناف، وبالنصب: عطف على { يقول }، و { لا } مزيدة: أي ما كان لبشر أن يستنبه الله، ثم يأمر بعبادة نفسه، ويأمر باتخاذ الملائكة أرباباً. أو غير مزيدة، والتقدير: ليس له أن يأمر بعبادته ولا باتخاذ الملائكة أرباباً.

يقول الحق جلّ جلاله: { ما كان } ينبغي { لبشر أن يؤتبه الله الكتاب والحكم } أي: الفصل بين العباد، { والنبوة } أي: الوحي بالأحكام، { ثم يقول } بعد ذلك { للناس كونوا عباداً لي من دون الله } أو مع الله، أو يرضى أن يُعبد من دون الله، { ولكن } يقول لهم: { كونوا ربانيين } أي: علماء بالله، فقهاء في دينه، علماء على الناس، تُربون الناس بالعلم والعمل والهمة والحال، بسبب { ما كنتم تعلمون } من كتاب الله { وبما كنتم تدرسون } منه، أو { بما كنتم تُعَلِّمُونَ } الناس من الخير بكتاب الله، وما كنتم تدرسونه عليهم. ولما مات ابن عباس - رضي الله عنهما - قال محمد ابن الحنفية: (مات ربّاني هذه الأمة).

{ ولا يأمركم } ذلك البشر الذي خصه الله بالنبوة، { أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً } من دون الله، { أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون } أي: مناقدون لأحكام الله. قيل: سبب نزول الآية: أن نصارى نجران قالوا: يا محمد؛ تريد أن نعبدك وتتخذك ربّاً؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " معاذ الله أن نعبد غير الله، أو تأمر بعبادة

غيره " وقيل: إن رجلاً قال: يا رسول الله: تُسَلِّمُ عليك كما يُسَلِّمُ بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ فقال: " لا يَنْبَغِي أن يسجد أحدٌ لأحدٍ من دُونِ اللَّهِ، ولكنْ أَكْرِمُوا نَبِيَّكُمْ، وَاغْرِفُوا الْحَقَّ لِأَهْلِهِ ".

الإشارة: ما زال الفقراء يعظمون أشياخهم، ويبالغون في ذلك حتى يُقَبِّلون أرجلهم والتراب بين أيديهم، ويجهدون في خدمتهم، فإذا رءاهم الأشياخ فعلوا ذلك سكتوا عنهم، لأن ذلك هو ربحهم وسبب فتحهم، وفي ذلك قال القائل:

بَدَّحَ النفوس وحث الرؤوس تُصْفَى الكؤوس  
لكنهم يرشدونهم إلى الحضرة، حتى يفنوهم عن شهود الواسطة، فيكون تعظيمهم وحث رأسهم إنما هو لله لا لغيره، وحينئذ يكونون ربانيين، علماء بالله مقربين، وكان شيخنا يقول: لا تزوروني على أني شيخكم، ولكن اعرفوا فينا، وافنوا عن رؤية حسنا، حتى يكون التعظيم إنما هو لله ربنا. هـ. فدلالة الأشياخ للفقراء على التعظيم والأدب ليس ذلك مقصوداً لأنفسهم، وحاشاهم من ذلك. ما كان لبشر أن يؤتية الله الخصوصية ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن يقول لهم: كونوا ربانيين عارفين بالله، حتى يكون تعظيمكم إنما هو لله، ولا يأمر أيضاً بالفرق حتى يتخذوا الأشياء أرباباً من دون الله، ولكن يأمر بالجمع حتى يغيبوا عما سوى الله، وكيف يأمرهم بالفرق، وهو إنما يدلهم على الجمع؟ أيامهم بالكفر بعد أن كانوا مسلمين. والله تعالى أعلم.

@ { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ بَيْنِ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لِقُومِيٍّ بِهِ وَلِتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيْنَا ذَالِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } \* { فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }

قلت: اللام في { لما } ، موطئة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستخلاف، و { ما } : { يحتمل الشرطية، و { لتؤمنن } : جواب القسم، سد مسد الجواب، أي: مهما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول الله لتؤمنن به. ويحتمل الموصولية، و { لتؤمنن } : خبر عنه، وحذف شرط يدل على السياق؛ أي: للذي آتيناكم من كتاب وحكمة، ثم إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به. ومن قرأ بكسر اللام كان تعليلاً للأمر بالإيمان بالرسول، أي: لأجل الذي خصصتكم به. إذا جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به، وإذا كان أخذ الله الميثاق على الأنبياء كان على الأتباع أولى، أو استغنى بذكر الأنبياء عن ذكر أتباعهم؛ لأنهم في حكمهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: واذكر { إذ أخذنا } الميثاق على النبيين من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام. وقلنا لهم: والله للذي خصصتكم به { من كتاب وحكمة } ، ثم إن ظهر رسول { مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه } أنتم وأممكم، أو: لأجل الذي خصصتكم به مما تقدم لئن أدركتم محمدًا لتؤمنن به ولتنصرنه. قال سيدنا عليّ - كرم الله وجهه - : (لم يبعث الله نبيًا، آدم ومن بعده، إلا أخذ عليه العهد في محمد، وأمره بأخذ العهد على قومه ليؤمنن به، ولئن بُعث وهم أحياء لينصرتهم).

{ قال } الحقّ جلّ جلاله لمن أخذ عليهم العهد: { أقرتم } بذلك وقبلتموه، { وأخذتم على ذلكم إصري } أي: عهدي وميثاقي؟ { قالوا أقررنا } وقبلنا، { قال فاشهدوا } على أنفسكم، أو ليشهد بعضكم على بعض بالإقرار، أو فاشهدوا يا

ملائكتي عليهم، { وأنا معكم من الشاهدين } ، وفيه توكيد وتحذير عظيم، { فمن تولي بعد ذلك { الإقرار والشهادة، وأعرض عن الإيمان به، ونصره بعد ظهوره، { فأولئك هم الفاسقون } الخارجون عن الإيمان المتمردون في الكفران.

الإشارة: كما أخذ الله العهد على الأنبياء وأمهم في الإيمان به عليه الصلاة والسلام، أخذ الميثاق على العلماء وأتباعهم من العامة، لئن أدركوا ولياً من أولياء الله، حاملاً لواء الحقيقة، مصداقاً لما معهم من الشريعة، ليؤمنن به ولينصرنه، من تولى وأعرض عن الإذعان إليهم فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن دائرة الولاية، محرومون من سابق العناية، فإن الحقيقة إنما هي لب الشريعة وخلاصتها، وإنما مثل الحقيقة والشريعة كالروح للجسد، فالشريعة كالجسد، والحقيقة كالروح، فالشريعة بلا حقيقة جسد بلا روح، والحقيقة بلا شريعة روح بلا جسد، فلا قيام لهذا إلا بهذا، فم تشرع ولم يتحقق تفسق، ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق، ومن خرج عنهما فقد خرج عن دين الله وطلب غيره، وإليه توجه الإنكار.

@ { أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ وَيَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ }

قلت: { أغير } مفعول مقدم، و { يبغون } معطوف على محذوف، أي: أتتولون فتبغون غير دين الله، وقدم المعمول؛ لأنه المقصود بالإنكار، و { طوعاً وكرهاً } : حالان، أي: طائعين أو كارهين.

يقول الحق جلّ جلاله: للنصارى واليهود، لما اختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وادعوا أن كل واحد على دين إبراهيم، فقال لهم - عليه الصلاة والسلام: " كلاكما بريء من دينه، وأنا على دينه، فخذوا به " ، فغضبوا، وقالوا: والله لا نرضى بحكمك ولا نأخذ بدينك، فقال لهم الحق جلّ جلاله - منكرأ عليهم -: أفتبغون غير دين الله الذي ارتضاه لخليله وحبيبه، وقد انقاد له تعالى { من في السماوات والأرض } طائعين ومكرهين، فأهل السماوات انقادوا طائعين، وأهل الأرض منهم من انقاد طوعاً بالنظر واتباع الحجة أو بغيرها، ومنهم من انقاد كرهاً أو بمعايينة ما يُلجئ إلى الإسلام؛ كتنق الجبل وإدراك الغرق والإشراف على الموت، أو: " طوعاً " كالملائكة والمؤمنين، فإنهم انقادوا لما يراد منهم طوعاً، { وكرهاً } كالكفار فانقادوا لما يراد منهم كرهاً، وكلّ إليه راجعون، لا يخرج عن دائرة حكمه، أو راجعون إليه بالبعث والنشور. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الدين الحقيقي هو الانقياد إلى الله في الظاهر والباطن، أما الانقياد إلى الله في الظاهر فيكون بامثال أمره واجتناب نهيه، وأما الانقياد إلى الله في الباطن فيكون بالرضى بحكمه والاستسلام لقهرة. فكل من قصّر في الانقياد في الظاهر، أو تسخط من الأحكام الجلالية في الباطن، فقد خرج عن كمال الدين، فيقال له: أغير دين الله تبغون وقد انقاد له { من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً } ، فإما أن تنقاد طوعاً أو ترجع إليه كرهاً. وفي بعض الآثار يقول الله تبارك وتعالى: " من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي، فليخرج من تحت سمائي، وليتخذ رباً سواي " .

وسبب تبرّم القلب عن نزول الأحكام القهرية مرضه وضعف نور يقينه، فكل من استنكف عن صحة الطيب، فله من هذا العتاب حظ ونصيب، فالأولياء حجة الله على العلماء، والعلماء حجة الله على العوام، فمن لم يستقم ظاهره عُوتب على تفريطه في صحة العلماء، ومن لم يستقم باطنه عاتبه الله تعالى على ترك صحة الأولياء، أعني العارفين. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ }

قلت: { أنزل } يتعدى بالي؛ لأنه ينتهي إلى الرسل، ويتعدى بعلى، لأنه يأتي من ناحية الحلو والاستعلاء، وفرّق بعضهم بين التعبير هنا بعلى وفي البقرة بالي، فقال: لأن الخطاب هنا للرسول بالخصوص؛ وقد أنزل عليه الوحي مباشرة، وهناك الخطاب للمسلمين، وإنما أنزل الوحي متوجهاً إليهم بالواسطة، ولم يكن عليهم بالمباشرة. والله تعالى أعلم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد لأهل الكتاب الذين فرقوا في إيمانهم بين الرسل: أما نحن فقد آمننا بالذي { أنزل علينا وما أنزل } على جميع الأنبياء والرسل { لا نفرق بين أحد منهم } كما فرّقتم أنتم، فَصَلُّنَا، { ونحن له مسلمون } أي: منقادون لأحكامه الظاهرة والباطنة، أو مخلصون في أعمالنا كلها، وقدّم المنزل علينا على المنزل على غيرنا، لأنه عيار عليه ومُعَرَّفٌ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للفقير أن يبالي في تعظيم شيخه، ويسوغ له التغالي في شأنه ما لم يخرج عن طور البشر، وما لم يؤد ذلك إلى إسقاط حرمة غيره من الأولياء بالتنقيص أو غيره، فحرمة الأولياء كحرمة الأنبياء، فمن فرّق بينهم حُرِمَ بركة جميعهم. وبالله التوفيق.

@ { وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } \* { كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }

قلت: { وشهدوا } عطف على ما في { إيمانهم } من معنى الفعل، والتقدير: بعد أن آمنوا وشهدوا.

يقول الحقّ جلّ جلاله: لرجال من الأنصار ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، منهم الحارث بن سويد الأنصاري: { ومن } يطلب { غير الإسلام ديناً } يتدين به { فلن يقبل منه } أبداً، { وهو في الآخرة من الخاسرين }؛ لأنه أبطل الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، واستبدلها بالتقليد الرديء، بعد أن عاين سواطع البرهان، وشهدت نفسه بالحق والبيان، ولذلك وقع التعجب والاستبعاد من هدايته فقال: { كيف يهدي الله قوماً كفروا } بعد أن آمنوا، { وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات } أي: المعجزات الواضحات، فإن الحائد عن الحق بعدما وضع، منهمك في الضلال، بعيد عن الرشاد، فقد ظلم نفسه وبخسها، { والله لا يهدي القوم الظالمين }

الظالمين { الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر، ووضعوا الكفر موضع الإيمان، ولعل هذا في قوم مخصوصين سبق لهم الشقاء.

@ { أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } \* { خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { أولئك } المرتدون عن الإسلام - { جزاؤهم } : أن تلعنهم الملائكة والناس أجمعون، مؤمنهم وكافرهم، لأن الكافر يلعن من ترك دين الحق، وإن كان لا يشعر بمن هو على الحقّ. { خالدين } في اللعنة، أو في النار، لدلالة السياق عليها، أو في العقوبة. { لا يخفف عنهم العذاب } ساعة، ولا هم يمهلون عنها لحظة.

ثم إنّ الحارث تدم، وأرسل إلى قومه أن اسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم، هل لي من توبة؟

@ { إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: إلا من تاب من بعد الردة، فأسلم وأصلح ما أفسد، { فإن الله غفور } له فيما فعل، { رحيم } به حيث تاب.

ولمّا نزلت الآية حملها إليه رجلٌ من قومه وقرأها عليه، فقال الحارث: إنك ولله فيما علمت لصدوق، وإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصدق منك، وإن الله - تعالى - لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة، فأسلم وحسن إسلامه.

الإشارة: كل من ابتغى الخصوصية من غير أهلها، أو ادعاها ولم يأخذها من معدنها، فلن تُقبل منه، وهو عند القوم من الخاسرين في طريق الخصوص، فكل من لا شيخ له في هذا الشأن فهو لقيط، لا أب له، دعيّ، لا نسب له.

والمراد بأهلها: العارفون بالله، أهلُ الفناء والبقاء، أهل الجذب والسلوك، أهل السكر والصحو، الذين شربوا الخمر فسكروا ثم صحوا وتكلموا، فمعدنُ الخصوصية عند هؤلاء، فكل من لم يصحبهم ولم يشرب من خمرتهم، لا يُقتدي به، ولو بلغ من الكرامة ما بلغ، وأخسر من صحب أهل هذه الخمرة، وشهد بأن طريقهم حق، ثم رجع عنها، فهذا مغبون ملعون عند كافة الخلق، أي: مطرود عن شهود الحق، إلا من تاب ورجع إلى صحبتهم والأدب معهم، فإن الله غفور رحيم.

@ { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعَدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ إِزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الصَّالُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين } ارتدوا عن الإيمان { ثم ازدادوا } في الكفر، وقالوا: نترىص بمحمد ريب المنون، { لن تقبل توبتهم } أي: لا توبة لهم فتقبل، لأنه سبق لهم الشقاء، أو لأنهم لا يتوبون إلا عند الغرغرة، أو { لن تقبل توبتهم } ما داموا على كفرهم. { وأولئك هم الصالون } المنهمكون في الضلالة.

قيل: نزلت في أصحاب الحارث بن سويد المتقدم، وكانوا أحد عشر رجلاً، لما رجع الحارثُ قالوا: نقيم بمكة على الكفر ما بدا لنا، فمتى أردنا الرجعة رجعنا، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، دخل في الإسلام بعضهم، فقبلت توبته، وبقي من بقي على كفره، فنزلت الآية فيهم. وقيل: نزلت في اليهود، كفروا بعبسى بعد إيمانهم بأنبيائهم، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: نزلت في النصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بعبسى، { ثم ازدادوا كفراً } بإصرارهم عليه. وقيل: نزلت في الفريقين معاً، كفرا بيننا محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم به قبل ظهوره، { ثم ازدادوا كفراً } بتمردهم فيه، وتماديهم على المعاصي. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن من دَخَلَ طريق التربية، وأخذ في تهذيب نفسه وتطهيرها من المساوئ وأوساخ الحس، ثم غلبته القهريّة ورجع عنها، فإن تاب قريباً ورجع إليها سهل عليه الرجوع، ورجى نجه وقبلت توبته، وإن استمر على رجوعه عنها حتى ألقت نفسه البطالة؛ لن ترحى توبته وصار من الضالين، فمثله كانية، فرغّت منها لبناً أو عسلاً، وعمّزتها بالقطران، فإن بادرت بإهراقه منها قريباً سهل غسلها، وإن أمهلتها حتى صيغ فيها عسّر غسلها، وتعذب زوال راحتها منها. [فإن مات على رجوعه فلا يحشر في الآخرة مع أهل هذه الرفقة، ولو شفع فيه ألف عارف، بل من كمال المكر به أن يلقي شبهه في الآخرة على غيره، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو، فلا يخطر بباله أنه يشفع فيه]. قاله القشيري.

قال المحشي: وما ذكره ربما ينظر إلى قضية الخليل مع أبيه، حين يلقاه وعليه القتر، فيريد الشفاعة له، فيمسح ذيحاً متلطخاً - أي: خنزيراً - فينكره، كما في الحديث الصحيح، فتذكر واعتبر. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ }

قلت: { ذهباً } تمييز، و { لو افتدى به } محمول على المعنى، كأنه قيل: فلن يقبل من أحدهم فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، أو عطف على محذوف، أي: فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو تقرب به في الدنيا، ولو افتدى به من العذاب في الآخرة. قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين كفروا } ، واستمروا على كفرهم حتى ماتوا، { يقبل } منهم فدية، ولو افتدوا بملء الأرض ذهباً، بل يحصل لهم الإياس من رحمة الله، { أولئك لهم عذاب أليم }؛ فلا ينفعهم فداء منه ولا شفاعة ولا حميم، { وما لهم من ناصرين } ينصروهم من عذاب رب العالمين.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " يُجَاءُ بِالْكَافِرِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا - أَكُنْتَ مَفْتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ " يعني: لا إله إلا الله: ثبتنا الله عليها إلى الممات عالمين بها. أمين.

الإشارة: كل من كفر بطريق أهل الخصوصية، وحرم نفسه من دخول الحضرة القدوسية، واستمر على كفرانه إلى الممات، فلا شك أنه يحصل له الندم وقد زلت به القدم، لأنه مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر، فإذا حشر مع عوام المسلمين، وسكن في رِيض الجنة مع أهل اليمين، ثم رأى منازل المقربين في أعلي عليين، ندم وتحسر، وقد غلبه القدر، فلو اشترى المَقَام معهم بملء الأرض ذهباً ما نفعه ذلك، فيمكث في غَمِّ الحجاب وعذاب القطيعة هنالك، مقطوع عن شهود الأحباب على نعت الكشف والبيان، ممنوع عن الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

@ { لَنْ تَتَّالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ }

قلت: البرّ: كمال الطاعة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لن تنالوا } كمال الطاعة والتقرب { حتى تنفقوا مما تحبون } ، أو: لن تنالوا برّ الله الذي هو الرضى والرضوان، { حتى تنفقوا } بعض ما { تحبون } من المال وغيره، كبذل الجاه في معاونة الناس، إن صحبه الإخلاص، وكبذل البدن في طاعة الله، وبذلك المهج في سبيل الله. ولما نزلت الآية جاء أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن أحب أموالي إليّ بَيْزْحَاء - وهو بستان كان خلف المسجد النبوي - وهو صدقة لله، أرجوا برّها وذخرها، فقال له - عليه الصلاة والسلام - " بَخْ بَخْ؛ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ - أو رَائِحٌ - وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ " فقسّمها أبو طَلْحَةَ في أقاربه.

وجاء زيدُ بنُ حَارِثَةَ بفرس كان يُحبها، فقال: هذه في سبيل الله، فحمل عليها رسولُ الله أسامةٌ ولده، فقال زيد: إنما أردت أن أتصدق بها، فقال - عليه الصلاة والسلام -: " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَبِلَهَا " فدلّ ذلك على أن الصدقة على الأقارب أفضل. وأعتقت امرأةً جارية لا تملك غيرها، كانت تحبها، واشترطت عليها أن تقيم معها، فلما عُتِقَتْ، ذهب، فقال لها عليه الصلاة والسلام: " دعيها فقد حَبَّبْتُكَ عن النار "

وأمر عمر بن الخطاب بشراء جارية من سبي العراق، فلما جيء بها، ورأها عمرُ أعجبته غايةً، فقال: إن الله تعالى يقول: { لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون } ، فأعتقها. وذكر ابن عمر هذه الآية، فلم يجد عنده أحبّ من جارية كانت عنده، يطؤها فأعتقها، وقال: لولا أنني لا أعود في شيء جعلته لله لنكحتها. وكان الربيع يعطي للسائل إذا وقف في بابه السكر، فإذا قيل له في ذلك، قال: إن الربيع يحب السكر.

ثم إن الله - تعالى - يقبل الصدقة من المحبوب أو غيره، ولذلك قال: { وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم }؛ فيجازيكم بحسبه.

الإشارة: ليس للفقير شيء أحبّ من نفسه التي بين جنبيه، بل عند جميع الناس، فمن بذل روحه في مرضاة الله نال رضوان الله ومعرفته، وهو غاية البر، فمن أذل نفسه لله أعزه الله، ومن أفقر نفسه لله أغناه الله، من تواضع لله رفع، فبذل النفس لله هو تقديمها لشيخ التربية يفعل بها ما يشاء، فكل ما يشير به إليه بادر إليه بلا تردد، فمن فعل ذلك فقد نال غاية البر، وأنفق غاية ما يُحب، وكل من بذل



نفسه بذل غيرها بالأحرى، إذ ليس أعز منها، وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه: مَا لِي سَيَّوَى رُوحِي، وبأذل نَفْسِهِ فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفٍ قَلْبِي رَضِيَتْ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي يَا حَيِّبَةَ الْمَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي: حقيقة المحبة أن تهب كلَّك لمن أحبته، حتى لا يبقى لك منك شيء. هـ. وقال الجنيد رضي الله عنه: لن تناولا محبة الله حتى تسخّوا بأنفسكم لله. هـ.

ولما قال عليه الصلاة والسلام لليهود: "أنا على ملة إبراهيم" - كما تقدم - قالوا: كيف تكون على ملة إبراهيم، وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟، وكان ذلك حراماً على إبراهيم.

@ { كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَيْنَا تَفْسِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنَزِّلَ التَّوْرَةَ قُلْ قَاتِلُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } \* { فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } \* { قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ }

قلت: { إسرائيل } هو يعقوب عليه السلام.

قول الحقّ جلّ جلاله: { كل الطعام كان حلالاً على بني إسرائيل، كما كان حلالاً على الأنبياء كلهم، { إلا ما حرم إسرائيل } أي: يعقوب، { على نفسه }، كلحوم الإبل وألبانها، قيل: كان به عرق النساء، فنذر: إن شفاه الله لم يأكل أحب الطعام إليه، وكان ذلك أحب الطعام إليه. وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطباء، فترك ذلك بنوه ولم يحرم عليهم في التوراة، وإنما هو شيء حرموه على أنفسهم.

فالطعام كله كان حلالاً على بني إسرائيل وعلى الأنبياء كلهم قبل نزول التوراة، فلما نزلت التوراة حرم الله عليهم أشياء من الطيبات لظلمهم وبغيهم، فإن ادعوا أن لحوم الإبل كانت حراماً على إبراهيم، وأن كل ما حرم عليهم كان حراماً على إبراهيم وعلى الأنبياء قبله، فقل لهم: كذبتهم؛ { فأتوا بالتوراة فاتلوها } هل تجدون ذلك فيها؟ { إن كنتم صادقين } في قولكم: إن كل شيء حرم عليكم كان حراماً على إبراهيم، روي: أنه - عليه الصلاة والسلام - لما قال لهم ذلك بهتوا، ولم يجسروا أن يأتوا بالتوراة، فتبين افتراءهم على الله؛ { فمن افتري على الله الكذب } بزعمه أن الله حرّم لحوم الإبل وألبانها قبل نزول التوراة، { من بعد ذلك } البيان وإلزامهم الحجة، { من بعد ذلك } المكابرون بالباطل بعدما وضح الحق.

{ قل } لهم يا محمد: { صدق الله } فيما أنزل، وكذبتهم فيما قلتهم، فتبين أن ملة إبراهيم هي الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فأسلموا، واتبعوا { ملة إبراهيم حنيفاً }، فإن ملة الإسلام موافقة لملة إبراهيم، أو عيئها، فادخلوا فيه وتخلصوا من اليهودية التي اضطرتكم إلى التحريف والمكابرة، وألزمتكم تحريم طيبات أهلها لله لإبراهيم ومن تبعه، وقد خالفتم التوراة التي زعمتم أنكم متمسكون بها، وأشركتم مع الله عزيزاً وغيره، وقد كان إبراهيم حنيفاً مسلماً { وما كان من المشركين }.

قال البيضاوي: فيه إشارة إلى أن اتّباعه - أي: إبراهيم - واجب في التوحيد الصرف والاستقامة في الدين، والتجنب عن الإفراط والتفريط، وتعرض بشرك اليهود. هـ. الإشارة: إذا تحقق للفقير الإخلاص، وحصل على التوحيد الخاص، كان الطعام كله

حلالاً له، لأنه يأخذه بالله، ويتناوله من يد الله ويدفعه لله، مع موافقة الشريعة، ولم يعض من أنوار الطريقة؛ بحيث لا يصحبه شره ولا طمع. وكان عبد الله بن عمر يقول: كل ما شئت، والتبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف أو مخيلة. هـ.

وإنما امتنعت العباد والزهاد من تناول الشهوات المباحات خوفاً على أنفسهم أن تجمع بهم إلى تناول أسبابهما، فتعطلهم عن العبادة، وكذلك المریدون السائرون، ينبغي لهم التقلل من تناولها؛ لئلا يتعلق قلبهم بشيء منها، فتعطلهم عن السير، وأما الواصلون العارفون، فقد تحقق فناؤهم وبقاؤهم، فهم يأخذون بالله من يد الله، كما تقدم.

@والحاصل: أن النفس ما دامت لم تُسلم ولم تنفد إلى مشاهدة ربها، وجب جهادها ومخالفتها، فإذا أسلمت وانقادت إلى ربها، وجب الصلح معها وموافقتها فيما يتجلى فيها، والله تعالى أعلم.

ولما كانت اليهود لا تحج بيت الله الحرام، الذي بناه خليل الله إبراهيم عليه السلام، مع زعمهم أنهم على ملته، ردّ الله تعالى عليهم بقوله: { إن أول بيت... } الخ، وقيل: تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل؛ لأنه مهاجر الأنبياء، وقال المسلمون: الكعبة أفضل؛ لأنه أول بيت وضع في الأرض.

@ { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } \* { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ }

قلت: { بكة } لغة في مكة، والعرب تعاقب بين الباء والميم، تقول: ضربة لازم ولازب، وأغبطت عليه الحمى وأعمطت، وقيل: { مكة } بالميم: اسم للبلد كله، وبكة: اسم لموضع البيت، سميت بذلك؛ لأنها تبك أعناق الجابرة - أي: تدقها - فما قصدها جبار بسوء إلا قصمه الله. و { مباركاً } : حال من الضمير في المجرور، والعامل فيه الاستقرار، أي: الذي استقر بكة مباركاً، و { مقام إبراهيم } : مبتدأ، والخبر محذوف، أي: منها مقام إبراهيم، أو بدل من { آيات } ، بدل البعض من الكل، أو عطف بيان، على أن المراد بالآيات: أثر القدم في الصخرة الصماء، وغوضوها فيها إلى الكعبين، وتخصيئها بهذه المزية من بين الصخور، وإبقاؤه دون سائر آثار الأنبياء، وحفظه مع كثرة أعدائه ألوف سنة، فكان مقام إبراهيم، وإن كان مفرداً، في قوة الجمع، وبدل عليه أنه قرئ { آية } : بالتوحيد.

وقيل: { الآيات } : مقام إبراهيم، وأمن من دخله، فعلى هذا يكون: { ومن دخله } ، عطفاً على { مقام } ، وعلى الأول: استئنافاً. و { حج البيت } مبتدأ، و { لله } : خبر، والفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد، و { من استطاع } : بدل من { الناس } ، وقيل: فاعل.

يقول الحق جلّ جلاله: { إن أول بيت وضع { في الأرض } للناس { للذي استقر بمكة، وبعده بيت المقدس، وبينهما أربعون سنة. بنت الأول الملائكة حيال البيت المعمور، وأمر الله من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، ثم بُني الثاني. وقيل: بناهما آدم عليه السلام ثم جدّ الأول إبراهيم. حال كونه { مباركاً } ؛ لأنه يتضاعف فيه الحسنات، بكل واحدة مائة ألف، وتكفر فيه السيئات، وتنزل في الرحمات، وتتوارد فيه النفحات.

{ فيه آيات بينات } واضحات، منها: الحجر الذي هو { مقام إبراهيم } ، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر في الهواء، حتى أكمل البناء، وغرقت فيه قدمه كأنه طين، ومنها: أن الطير لا تعلقه، ومنها: إهلاك أهل الفيل وردُّ الجابرة عنه، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السلام، وحفر عبد المطلب لها بعد دُثورها، وأن ماءها ينفع لما شرب له، { ومن دخله كان آمناً } من العقاب في الدارين؛ لدعاء الخليل:

{ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا } [إبراهيم: 35]، فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهَاج ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة: الحكم باق، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهَاج، ولكن يُضَيَّق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج.

قال - عليه الصلاة والسلام: " مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الْحَرَمَيْنِ بَعَثَهُ اللَّهُ مِنَ الْآمِنِينَ " @وقال أيضاً: " مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ - فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، حَرَجَ مِنْ ذَنْبِهِ كَيَوْمِ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ " .

{ ولله على الناس حج البيت } فرض عين على { من استطاع إليه سبيلاً } بالقدرة على الوصول بصحة البدن، راجلاً أو ركباً مع الزاد المُبلِّغ، والأمن على النفس والمال والدين. وقيل: الاستطاعة: الزاد والراحة. { ومن } تركه، و { كفر } به، كاليهود والنصارى، وكل من جرده، { فإن الله غني } عنه، و { عن } حجه، وعن جميع { العالمين } ، أو عبر بالكفر عن الترك، تغليظاً كقوله: " مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ " رُوِيَ أنه - عليه الصلاة والسلام - لما نزل صدر الآية - جمع أرباب الملل، فخطبهم، وقال: " إن الله كتب عليكم الحج فحجوا " ، فأمنت به ملة واحدة، وكفرت به خمس ملل، فنزل { ومن كفر... } الخ.

الإشارة: قد وضع الله للناس بيتين: أحدهما حسي، وهو الكعبة، والآخر معنوي، وهو القلب، الذي هو بيت الرب، فما دام بيت القلب خالياً من نور الرب اشتاق إلى حج البيت الحسي، فإذا تعمر البيت بنور ساكنه، صار قبلة لغيره، واستغنى عن الالتفات إلى غير نور ربه، بل صار كعبة تطوف به الواردات والأنوار، وتحفه المعارف والعلوم والأسرار، ثم يصير قطب دائرة الأكوان، وتدور عليه من كل جانب ومكان، فكيف يشتااق هذا إلى الكعبة الحسية، وقد طافت به دائرة الوفود الكونية؟ ولله در الحلاج رضي الله عنه حيث قال:

يَا لَأَيْمِي لَا تَلْمَنِي فِي هَوَاهُ قَلْوُ      عَايَنْتَ مِنْهُ الَّذِي عَايَنْتَ لَمْ تَلْمِ  
لِلنَّاسِ حَجٌّ وَلِي حَجٌّ إِلَى سَكْنِي      تُهْدِي الْأَصَاحِي، وَأَهْدِي مُهْجَتِي وَدَمِي  
يَطُوفُ بِالْبَيْتِ قَوْمٌ لَا بَجَارِحَةَ،      بِاللَّهِ طَافُوا فَأَغْتَاهُمْ عَنِ الْحَرَمِ  
فِي هَذَا الْبَيْتِ آيَاتٌ وَاضِحَاتٌ، وَهُوَ إِشْرَاقُ شَمُوسِ الْمَعَارِفِ وَالْأَنْوَارِ، فِي فِضَاءِ  
سَمَاءِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَسْرَارِ، وَسَطُوعِ أَنْوَارِ قَمَرِ التَّوْحِيدِ فِي أَرْضِ التَّجْرِيدِ وَالتَّفْرِيدِ،  
وظهور أنوار نجوم العلم والحكم، في أفق سماء ارتفاع الهمم، فهذا كان مقام  
إبراهيم، إما الموحدين، فمن دخله كان آمناً من الطرد والبعاد إلى يوم الدين، ومن  
كفر وجوده؛ فإن الله غني عن العالمين.

قال في الحاشية في قوله: { وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا } ، قيل: وهكذا من دخل في قلب وليٍّ من أوليائه، فإن قلب العارف حرم المراقبات والمشاهدات. هـ. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ } \* { قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }

قلت: { تبغونها } : جملة حالية من الواو، أي: لِمَ تصدون عن السبيل باغين لها عوجاً. والعوج - بالكسر - في الدين والقول والعمل -، وبالفتح - في الجدار والحائط وكل شخص قائم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { قل } يا محمد في عتابك لليهود: { يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله { السمعية والعقلية الدالة على صدق نبيه صلى الله عليه وسلم فيما يدعوكم إليه من الإسلام؟ { والله شهيد على ما تعملون } مطلع على سرها وجهرها، فيجازيكم عليها، فلا ينفعكم التحريف ولا الإسرار.

{ يا أهل الكتاب لما تصدون } عن طريق الله { من آمن } بها، وتبع من جاء بها، { تبغونها عوجاً } أي: طالبين لها اعوجاجاً، بأن تلبسوا على الناس، وتوهموا أن فيها عوجاً عن الحق، بزعمكم أن التوراة لا تُنسخ، وتغيير صفة الرسول - عليه الصلاة والسلام، أو بأن تحرثوا بين المسلمين؛ لتختلف كلمتهم، ويختل أمر دينهم، وأنتم شهداء على أنها حق، وأن الصد عنها ضلال، أو: وأنتم عُدول عند أهل ملتكم، يثقون بأقوالكم، ويستشهدونكم في القضايا، { وما الله بغافل عما تعملون }؛ فلا بد أن يجازيكم على أعمالكم، فإنه يمهل ولا يهمل.

كّرر الخطاب والاستفهام مرتين؛ مبالغة في التقرع ونفي العذر، وإشعاراً بأن كل واحد من الأمرين مُسْتَبَح في نفسه، مستقل باستجلاب العذاب. ولمّا كان المنكر عليهم في الآية الأولى: كفرهم، وهم يجهرون به، ختم بقوله: { والله شهيد على ما تعملون } ، ولمّا كان هذه الآية: صدهم المؤمنين عن الإسلام، وكانوا يخفونه ويحتالون فيه، قال: { وما الله بغافل عما تعملون } . قاله البيضاوي.

الإشارة: كل من جحد وجود الخصوصية عند أهلها، وصد القاصدين للدخول فيها، استحق هذا العتاب بلا شك ولا ارتياب. والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } \* { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَلُّوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هَدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } \* { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا } ، الخطاب عامٌّ، والمراد: نفر من الأوس والخزرج، { إن تُطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب } ، وهو شاسن بن قيس اليهودي، كان شيخاً كبيراً، وكان عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، مرّ بنفر من الأوس والخزرج، جلوساً يتحدثون، وكان بينهما عداوة في الجاهلية، فغاطه تألفهم واجتماعهم، وقال: قد اجتمع ملا بني قَيْلَة بهذه البلاد، فما لنا معهم

قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس بينهم ويُذكّرهم يوم بعث - وهو يوم حرب كان بينهم في الجاهلية - ويُنشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس، ففعل، وتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا، وقالوا: السلاح السلاح، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم، فتوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألف بينكم؟" فعلموا أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح، واستغفروا وعانق بعضهم بعضاً، وانصرفوا مع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - فنزلت الآية.

{ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً { من اليهود { يردوكم بعد إيمانكم كافرين {؛ يُبَيِّح بعضكم دماء بعض، كما كنتم في الجاهلية، { وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله { الدالة على تحريم الدماء والشحناء، { وفيكم رسوله { الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو إنكار وتعجب من كفرهم، بعد اجتماع الأسباب الداعية إلى الإيمان، الصارفة عن الكفران، وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسول بأن يخاطب أهل الكتاب؛ إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنهم الأحقاء بأن يخاطبهم الله ويكلّمهم، دون أهل الكتاب؛ لبعدهم عن استحقاق مواجهة الخطاب من الكريم الوهاب. { ومن يعتصم بالله { ويتمسك بدينه { فقد هدي إلى صراط مستقيم { لا عوج يفه وأصل الاعتصام: التمتع.

ثم حض على التقوى الكاملة والدوام على الإسلام، تنفيراً من الاستماع لمن يخرج عنها، قال: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته {، قال عليه الصلاة والسلام: "حق تقاته هو أن يُطاع فلا يُعصى طرفة عين، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر" ولما نزلت قالوا: يا رسول الله؛ من يقوى على هذا؟ وشق عليهم، فنزلت:

{ قَاتُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ {

[التغابن: 16]، فنسختها. وقال مقاتل: معناه: (اتقوا الله حق تقاته، فإن لم تستطيعوا فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون). وعن أنس مالك، قال: (لا يتقي الله عبدٌ حق تقاته حتى يُخزن من لسانه)، وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأنَّ مَنْ جَاتَبَ ما نهى الله عنه، وفعل من الطاعة ما استطاع، فقد اتقى الله حق تقاته، فمعناها واحد. وسيأتي تحديد ذلك في الإشارة، إن شاء الله.

@ قال البيضاوي: وقيل: معنى { حق تقاته {؛ أن يُنزه الطاعة عن الالتفات إليها، وعن توقع المجازاة عليها، وفي هذا الأمر تأكيد للنهي عن طاعة أهل الكتاب، { ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون { أي: لا تكونوا على حالة سوى الإسلام، إلى أن يردكم الموت. هـ. أماتنا الله على حسن الختام، مع السلامة والعافية على الدوام.

الإشارة: كما نهى الله عن طاعة من يرد عن الإيمان، نهى عن طاعة من يصد عن مقام الإحسان، كائناً ما كان، وكيف يرجع عن مقام التحقيق، وقد ظهرت معالم الطريق لمن سبقت له العناية والتوفيق!. قال بعضهم: والله ما رجَعَ مَنْ رَجَعَ إلا من الطريق، وأما من وصل فلا يرجع أبداً. إذ لا يمكن أن يرجع من عين اليقين إلى علم اليقين، أو من اليقين إلى الظن. ومن أراد الثبات على اليقين فليعتصم بحبل الله المتين، وهو وصية العارفين، فمن اعتصم بهم فقد اعتصم بالله، { وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ { [آل عمران: 101].

ثم خاطب أهل الإحسان فقال: { يا أيها الذين آمنوا اقتوا الله حق تقاته } بأن تغيبوا عما سواه، ولا تموتن إلا وأنتم منقادون لأحكام الربوبية، قائمون بوظائف العبودية. فهذه الآية خطاب لأهل الإحسان، و  
{ قَاتُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ }

[التغابن: 16]: خطاب لأهل افسلام والإيمان، أو هذه لأهل التجريد، والثانية لأهل الأسباب، أو لأهل الباطن، والثانية لأهل الظاهر، فلكل آية أهل ومحل، فلا نسخ ولا تعارض. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: من أراد الجمع بين الآيتين فليثق الله حق تقاته بباطنه، وليثق الله ما استطاع بظاهره. هـ. وبالله التوفيق.

@ { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَيَا شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }

قلت: أصل الحبل في اللغة: السبب الموصول إلى البغية، سمي به الإيمان أو القرآن؛ لأنه يوصل إلى السعادة السرمدية، و { شفا حفرة } ، وأصله: (شفو)، فقلت ألفاً في المذكر، وحذفت في المؤنث، فقالوا: شفة.

يقول الحق جلّ جلاله: { واعتصموا } أي: تمسكوا يا معشر المسلمين { بحبل الله } أي: الإيمان، أو كتاب الله، لقوله عليه الصلاة والسلام: " إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشقاء النافع، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ... " الحديث. حال كونكم { جميعاً } أي: مجتمعين عليه، { ولا تفرقوا } تفرقكم الجاهلي، أو لا تفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. قال عليه الصلاة والسلام: " إن بني إسرائيل افرقت على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفرق على ثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، فقيل: يا رسول الله، ما هذه الواحدة؟ فقبض يده وقال: الجماعة، ثم قرأ: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } "

{ واذكروا نعمت الله عليكم } ، التي من جملتها الهداية للإسلام المؤدّي إلى التآلف وزوال الغل، { إذ كنتم أعداء } في الجاهلية، يقتل بعضكم بعضاً، { فألف بين قلوبكم } بالإسلام، { فأصبحتم بنعمته إخواناً } متحابين مجتمعين على الأخوة في الله. قال عليه الصلاة والسلام: " لا تحابسدا، ولا تباغصوا، ولا تدابروا، وكونوا عباداً لله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله " الحديث. روي أن الأوس والخزرج كانوا أحوين، فوقع بين أولادهما العداوة، وتناولت الحرب بينهما مائة وعشرين سنة، حتى أطفاها الله بالإسلام، وألف بينهم برسول الله عليه الصلاة والسلام - فنزلت فيهم هذه الآية.

ثم قال لهم: { وكنتم على شفا حفرة من النار } أي: مُشرفين على نار جهنم، إذ لو أدرككم الموت لوقعتم في النار، { فأنقذكم } الله { منها } برسوله - عليه الصلاة والسلام -: روي أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية، فقال الأعرابي: والله ما أنقذهم منها وهو يريد أن يوقعهم فيها، فقال ابن عباس رضي الله عنه خذوها من غير فقيه. هـ. { كذلك يبين الله لكم آياته } أي: مثل هذا التبيين { يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون } إلى الخير، وتزيدون ثباتاً فيه.

الإشارة: المذاهب كلها وقع فيها الاختلاف والتفرق في الأصول والفروع، إلا مذاهب الصوفية فكلها متفقة بداية ونهاية، إذ بدايتهم مجاهدة، ونهايتهم مشاهدة، وإلى ذلك أشار في المباحث، حث قال:

مذاهبُ الناس على اختلافٍ ومذهبُ القوم على ائتلافٍ  
وإن وقع الاختلاف في بعض الطرق الموصلة إلى المقصود، فقد اتفقت في النهاية، بخلاف أهل الظاهر، لا تجدهم يتفقون إلا في مسائل قليلة، لأن مذهبهم مبني على غلبة الظن، ومذهب القوم مبني على التحقيق ذوقاً وكشفاً، وكذلك ائتلفت أيضاً قلوبهم وأرواحهم، إذ كلهم متخلقون بالشفقة والرافة والمودة والألفة والصفاء؛ لأنهم دخلوا الجنة - أعني جنة المعارف - فتخلقوا بأخلاق أهل الجنة، قال تعالى:

{ وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ }  
[الحجر: 47]، فيقال لهم بعد الفتح: واذكروا نعمة الله عليكم، إذ كنتم أعداء قبل اتصالكم بالطيب، فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً متحابين، وكنتم على شفا حفرة من نار القطيعة والحجاب { فأنقذكم منها } مثل هذا البيان يوضح الله آياته، أي: تجلياته، لعلمكم تهتدون إلى مشاهدة ذاته في أنوار صفاته. والله تعالى أعلم.

@ { وَلَتَكُنْ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }  
[آل عمران: 110] الخ، و { يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر } عطف على الخبر، من عطف الخاص على العام؛ للإيدان بفضله.

قلت: (من): للتبويض؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية؛ إذ لا يصلح له كلُّ أحد، أو للبيان، أي؛ كونوا أمة تأمرون بالمعروف، كقوله: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ }  
[آل عمران: 110] الخ، و { يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر } عطف على الخبر، من عطف الخاص على العام؛ للإيدان بفضله.

{ يقول الحقُّ جلَّ جلاله } : { ولتكن منكم } يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم { أمة } أي: طائفة { يدعون إلى الخير } ، وهو كل ما فيه صلاح ديني، أو دنيوي إذ كان يؤول إلى الديني، أو صلاح قلبي أو روحاني، { ويأمرون بالمعروف } وهو ما يستحسنه الطبع ويرتضيه الشرع، { وينهون عن المنكر } وهو كل ما ينكره الطبع السليم والشرع المستقيم، فمن فعل ذلك فأولئك { هم المفلحون } المخصوصون بكمال الفلاح.

رُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام: أنه سئل مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ فقال: " أَمْرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَتَقَاهُمُ اللَّهَ، وَأَوْصَلَهُمُ لِلرَّحْمِ " وقال أيضاً: " مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ خَلِيقَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَخَلِيقَةَ رَسُولِهِ وَخَلِيقَةَ كِتَابِهِ " وقال عليُّ رضي الله عنه: (أفضل الجهاد: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشنان الفاسقين - أي بغضهم - فمن أمر بالمعروف شدَّ ظهرَ المؤمن، ومن نهى عن المنكر أزعَمَ أنفَ المنافق، ومن شنَّ الفاسقين وعَضَبَ لله عَضَبَ الله له). وقال أبو الدرداء: (لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو يُسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يُجَلِّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياطكم فلا يستجاب لهم، ويستنصرون فلا يُنصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم). وقال حذيفة: (يأتي على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار، أحب إليهم من مؤمنٍ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وللمتصدّي له شروط: العلم بالأحكام، ومراتب الاختساب وكيفية إقامتها، والتمكن من القيام بها، ولذلك خاطب الحق تعالى الجميع، وطلب فعل بعضهم، إذ لا يصلح للقيام به إلا البعض، كما هو شأن فرض الكفاية، إذ هو واجب على الكل، بحيث لو تركوه لعوقبوا جميعاً، لكنه يسقط بفعل البعض.

والأمر بالمعروف يكون واجباً ومندوباً، على حسب ما يأمر به، والنهي عن المنكر واجب كله؛ لأن جميع ما أنكره الشرع حرام. وأما المكروه فليس بمنكر، فيستحب الإرشاد إلى تركه. والأظهر أن العاصي يجب أن ينهى عما يرتكبه هو؛ لأنه يجب عليه تركه، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر. وقد قال عليه الصلاة والسلام: "مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَعْمَلُوا بِكُلِّهِ، وَإِنَّهُوَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَنْهَوْا عَنْهُ كُلَّهُ".

الإشارة: { ولتكن منكم أمة { أي: طائفة ينهض حالهم ويدلُّ على الله مقالهم، يدعون إلى الخير العظيم، وهو شهود ذات السميع العليم، ويأمرون بالمعروف بالهمة العلية، وينهون عن المنكر بالحال القوية، فكلُّ من رآهم بالصفة أتمروا وانتهى، وكل من صحبهم بالوفاء أخذ حظه من الغنى بالمكيال الأوفى، إن لله رجالاً من نظر إليهم سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، فهؤلاء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بالحال دون المقال.

@يُحكى أن بعض الشيوخ مرَّ مع أصحابه بقوم يشربون الخمر تحت شجرة فأراد أصحابه أن يُغيروا عليهم، فقال لهم: إن كنتم رجالاً فغيروا عليهم بحالكم دون مقالكم، فتوجهوا إلى الله بهمهمهم، فإذا القوم قد كسروا الأواني، وجاءوا إلى الشيخ تائبين. وكذلك قضية معروف الكرخي مع أصحاب السفينة، الذي كانوا مشغولين باللهو واللعب، فقال له أصحابه: ادع عليهم، فقال: اللهم كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة، فتابوا على يده جميعاً. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } \* { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } \* { وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } \* { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تُلْوَاهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ } \* { وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ }

قلت: { يوم } متعلق بالاستقرار في خبر { أولئك } ، أو باذکر؛ محذوفة، وقوله: { أكفرتم } : محكي بقول محذوف جواب { أما } ، أي: فيقال لهم: أكفرتم.

يقول الحق جلَّ جلاله: { ولا تكونوا } كاليهود والنصارى الذين { تفرقوا } في التوحيد والتنزيه، { واختلفوا } في أحوال الآخرة، قال عليه الصلاة والسلام: " أفترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وأفترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة. قيل: ومن تلك الواحدة؟ قال: ما أتا وأصحابي عليه " وهذا الحديث أصح مما تقدم، والصحابة يروون الحديث بالمعنى، فلعلَّ الأول نسي بعض الحديث. والله أعلم.



ثم إن النهي مخصوص بالتفرق في الأصول دون الفروع، لقوله عليه الصلاة والسلام: " اِجْتَلَاؤُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ " ، ولقوله: " من اجْتَهَدَ وَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، ومن اجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ " .

ثم إن أهل الكتاب تفرقوا { من بعد ما جاءهم البينات } أي: الآيات والحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه، { وأولئك لهم عذاب عظيم } ، يستقر لهم هذا العذاب { يوم تبيض وجوه } المؤمنين المتقين على التوحيد، { وتسود وجوه } الكافرين المتفرقين فيه، أو تبيض وجوه المخلصين وتسود وجوه المنافقين، أو تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة. وبياض الوجوه وسوادها كِتَابَتَانِ عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف فيه، وقيل: يُوسَمُ أهل الحق ببياض الوجوه والصحيفة وإشراق البشرة وسعي النور بين يديه وبيمينه، وأهل الباطل بأضداد ذلك. { فأما الذين اسودت وجوههم } فيقال لهم يومئذ: { أكفرتم } - عليه الصلاة والسلام - بعد ظهوره، { بعد إيمانكم } به قبل ظهوره، وهم اليهود أو أهل الردة، آمنوا في حياته صلى الله عليه وسلم وكفروا بعد موته. أو جميع الكفار، آمنوا في عالم الذر وأقروا على أنفسهم، ثم كفروا في عالم الشهادة، ويقال لهم أيضاً: { ذوقوا العذاب } بسبب ما كنتم { تكفرون } .

{ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله } أي: جنته، { هم فيها خالدون } .  
وعبر بالرحمة عن الجنة؛ تنبيهاً على أن المؤمن، وإن استغرق عمره في طاعة الله - تعالى -، لا يدخل الجنة إلا برحمة الله وفضله، وكان حق الترتيب أن يقدم حلية المؤمنين لتقدم ذكرهم، لكن قصد أن يكون مطلع الكلام ومقطع حلية المؤمنين وثوابهم.

{ تلك آيات الله } الواردة في وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، { تتلوها عليك } متلبسة { بالحق } لا شبهة فيها، فقد أَعَدَّ وَأَنْذَرَ، { وما الله يريد ظلماً للعالمين }؛ إذ لا يحق عليه شيء فيظلم بنقصه، ولا يُمنع من شيء فيظلم بفعله، كما بيَّنه بقوله: { ولله ما في السماوات وما في الأرض } ملكاً وخلقاً وعبداً، فيجازي كلا بما وَعَدَهُ، وَأَوْعَدَهُ، { وإلى الله ترجع الأمور } كلها؛ فيتصرف على وفقٍ مراده وسابق مشيئته، @ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ { [الأنبياء: 23].

الإشارة: قد نهى الله - تعالى - أهل الجمع عن التشبه بأهل الفرق، في اختلاف قلوبهم ووجوههم وأرائهم وأنظارهم، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على طلب جمع القلب على الله، والتودد في الله، وصرف النظرة في شهود الله، وأولئك المفترقون لهم عذاب عظيم، وأيِّ عذاب أعظم من الحجاب؟ يوم تبيض وجوه العارفين، فتكون كالشمس الضاحية، يسرحون في الجنان حيث شاءوا، وتسود وجوه الجاهلين؛ لما يعتربها من الندم، وسوادها باعتبار وجوه العارفين في النقص عنها، وإن كانت مُبَيَّضَةً بنور الإيمان، لكن فاتهم نور الإحسان، فيقال: أكفرتم بالخصوصية في زمانكم، بعد إيمانكم بها فيمن سلف قبلكم؟ فذوقوا عذاب القطيعة عن شهود الحبيب في كل حين، وأما الذين ابيضت وجوههم وأشرفت بنور البقاء، ففي رحمة الله، أي: جنة المعارف

{ فِي مَفْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ } [القمر: 55]، فقد اتضحت الطريق، وظهرت أعلام التحقيق، لكن الهداية بيد الله، كما أنَّ الأمور كلها بيده، يهدي مَنْ يشاء ويضل مَنْ يشاء،

{ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }  
[فُصِّلَتْ: 46]. وبالله التوفيق.  
@ { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَلَوْ أَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ } \* {  
لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلِّدُوكُمْ يُؤَلِّدُوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصِرُونَ } \* { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ  
الدَّلِيلَةُ أَنْ يَنْتَفِعُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَخَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَيَأْتُوا بِعَصَبٍ مِّنَ اللَّهِ  
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْبُكَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ  
حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ }

قلت: { كان } : على بابها من الدلالة على المضى، أي: كنتم في اللوح المحفوظ، أو  
في علم الله، أو فيما بين الأمم المتقدمة، أو: صلة، أي: أنتم خير أمة، و { للناس  
{ يتعلق بأخرجت، أو بكنتم، أي: كنتم خير الناس للناس.

يقول الحق جل جلاله: لآمة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: { كنتم } في سابق  
علمي { خير أمة } ظهرت { للناس } تجيئون بهم إلى الجنة بالسلاسل. ثم بين  
وجه فضلهم فقال: { تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله } وجميع  
ما يجب الإيمان به.

وقد ورد في مدح هذه الأمة المحمدية أحاديث، منها قوله صلى الله عليه وسلم: "  
حُرِّمَتْ الْجَنَّةُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ حَتَّىٰ ادْخَلُوهَا أَنَا، وَحُرِّمَتْ الْجَنَّةُ عَلَى الْأُمَّمِ حَتَّىٰ تَدْخُلَهَا  
أُمَّتِي " ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: " أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ  
أَعْطَى اللَّهُ كُلَّ رَجُلٍ مِّنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلًا فَيَقَالُ: هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ "

وعن أنس قال: " خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا صوت يجيء من  
شعب، فقال: يا أنس: فم فانظر ما هذا الصوت، فانطلقت فإذا برجل يصلي إلى  
شجرة، ويقول: اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، آلمة المرحومة،  
المغفورة لها، المستجاب لها، المتاب عليها، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم،  
فأخبرته، فقال: انطلق، فقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام،  
ويقول لك: من أنت؟ فأتيت، فأعلمته ما قال النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اقرأ  
مني السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقل له: أخوك الخضر يقول  
لك: ادع الله أن يجعلني من أمتك المرحومة المغفورة لها ". وقيل لعيسى ابن مريم:  
هل بعد هذه الأمة أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد. قيل: وما أمة أحمد؟ قال: علماء،  
حكماء، أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون باليسير من الرزق، ويرضى الله  
عنهم باليسير من العمل، يدخلهم الجنة بشهادة أن لا إله إلا الله. هـ.

وليس أولها أولى بالمدح من آخرها، لقوله صلى الله عليه وسلم: " أمتي كالمطر، لا  
يُدْرِي أَوْلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ " ؟ وفي خبر آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال: "  
اشتفتُ إلى إخواني، فقال أصحابه: نحن إخوانك يا رسول الله، فقال أنتم أصحابي،  
إخواني: ناس يأتون بعدي، يؤمنون بي ولم يروني، يودُّ أحدهم لو يراني بجميع ما  
يملك. يعدل عمل أحدهم سبعين منكم. قالوا: منهم يا رسول الله؟ قال: منكم. قالوا:  
ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنكم وجدتم على الخير أعواناً، وهم لا يجدوا عليه  
أعواناً " أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

@قلت: التفضيل باعتبار أجور الأعمال، وأما باعتبار اليقين والمعرفة، فالصحابه أفضل الخلق بعد الأنبياء - عليهم السلام - ويدل على هذا قوله - عليه الصلاة والسلام - " يعدل عمل أحدهم " ، ولم يقل إيمان أحدهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كنتم يا معرّش الصوفية خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالجمع على الله والغيبة عما سواه، وتنهون عن كل ما يُبعد عن الله ويفرق العبد عن مولاه، وتؤمنون بالله وبما وعد به الله، إيمان الشهود والعيان، الذي هو مقام الإحسان. قال القشيري في رسالته: (قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه).

وقال الجنيد رضي الله عنه: لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه ولو حبواً. هـ. وكان كثيراً ما ينشد:

عِلْمُ التَّصَوُّفِ عِلْمٌ لَيْسَ يَعْرفُهُ  
وَلَيْسَ يُبْصِرُهُ مَنْ لَيْسَ يَشْهَدُهُ  
إِلَّا أَحْوُ فُطِنَتْ بِالْحَقِّ مَعْرُوفٌ  
وَكَيْفَ يَشْهَدُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مَكْفُوفٌ  
وقال الشيخ الصقلي: (كل من صدّق بهذا العلم فهو من الخاصة، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة، وكل من عبّر به وتكلم فيه فهو من النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا ينزف). وقال في الإحياء - لَمَّا تكلم على معرفة الله والعلم بالله، قال: (والرتبة العليا في ذلك للأنبياء، ثم للأولياء العارفين، ثم للعلماء الراسخين، ثم للصالحين). فقد قدّم الأولياء على العلماء. قال ابن رشد: وما قاله القشيري والغزالي متفق عليه. قال: ولا يشك عاقلٌ أنّ العارفين بالله وما يجب له من الكمال، أفضل من العارفين بأحكام الله. انظر تمامه في المعيار. وقال في المباحث:

حُجَّةٌ مِنْ يُرْجَعُ الصُّوفِيَّةُ  
عَلَى سِوَاهُمْ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ  
هُمُ أَتْبَعُ النَّاسِ لَخَيْرِ النَّاسِ  
مِنْ سَائِرِ الْأَتَامِ وَالنَّاسِ  
ثم قال:

ثُمَّ يَتَّبِعِينَ تَقْوَمُ الْحُجَّةُ  
وَمَا أَتَوْا فِيهِ بِحَرْقِ الْعَادَةِ  
أَنَّهُمْ قَطَعُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ  
إِذْ لَمْ تَكُنْ لِمَنْ سِوَاهُمْ عَادَةً  
قَدْ رَفَضُوا الْأَتَامَ وَالْعُيُوبَ  
وَوَطَّهَرُوا الْأَبْدَانَ وَالْقُلُوبَ  
وَتَلَعُوا حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ  
وَأَنْتَهَجُوا مَتَاهِجَ الْإِحْسَانِ  
ثم دعا أهل الكتاب إلى الإيمان، وهون أمرهم، فقال:

{... وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ لَنْ يَصْرُوكُمْ إِلَّا أَدَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَبْنَ مَا تَقَفُوا إِلَّا بِحَيْلٍ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِعَصَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَالِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَالِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ }

قلت: الاستثناء في قوله { إلا بحبل } من أعم الأحوال، أي: ضربت عليهم الذلة في جميع الأحوال، إلا متلبسين بذمة من الله وذمة من الناس.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولو آمن أهل الكتاب { إيماناً كإيمانكم، { لكان خيراً لهم { مما هم عليه.

@وليس أهل الكتاب سواء، بل { منهم المؤمنين } كعبد الله بن سلام وأصحابه، { وأكثرهم الفاسقون } المتمردون في الكفر والفسوق، فلا يهولكم أمرهم، فإنهم { لن يضرركم } إلا ضرراً يسيراً؛ كاذى باللسان من عيب وسب وتحريش بينكم، ولا قدرة لهم على القتال، { وإن يقاتلوكم } يهزموا، و { يولوكم الأديار ثم لا ينصرون } أبداً عليكم.

وهذه الآية من المُغيبات التي وافقها الواقع، إذ كان كذلك في بني قريظة والنضير وبني قينقاع وخيبر، فلم تُرفع لهم راية أبداً، بل { ضُربت عليهم الذلة } والخزي والهوان، أي: أحاطت بهم إحاطة البيت المضروب على أهله، أو لزمتهم لزوم الدرهم المضروب لضربه، فلا تنفك عنهم { أيم ما ثقفوا } ووجدوا، فلا يأمنون { إلا بحبل من الله } أي: بسبب عهد من الله، وهو عقد الذمة التي أمر الله بها، إذا أدوا الجزية للمسلمين، فلمهم حرمة بسبب هذا العقد، فلا يجوز التعرض لهم في مال ولا دم ولا أهل، { وحبل من الناس }، وهو عقد الذمة التي يعقدها مع الكفار إذا كانوا تحت ذمتهم. والحاصل أن الذلة لازمة لهم فلا يأمنون إلا تحت الذمة، إما من المسلمين وإما من الكفار. { وباءوا بغضب من الله } أي: انقلبوا به مستحقين له، { وضربت عليهم المسكنة } أي: أحاطت بهم، فاليهود في الغالب فقراء مساكين، لأن قلوبهم خاوية من اليقين، فالفقر والجزع لازم لهم، ولو ملكوا الدنيا بأجمعها.

{ ذلك } الذل والمسكنة والباء بالغضب بسبب أنهم { كانوا يكفرون بآيات الله } المنزلة على رسوله، أو الدالة على توحيده، { ويقتلون الأنبياء بغير حق } بل ظلماً وعدواناً، ذلك الكفر بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله، فإن الإصرار على الصغائر يُفضي إلى الكبائر، والإصرار على الكبائر يؤدي إلى الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، والعباد بالله.

الإشارة: ولو آمن أهل الظاهر بطريق الخصوص، وخطو رؤوسهم لأهل الخصوصية لكان خيراً لهم، للتسع عليهم دائرة العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهوم، منهم من يقر بوجود الخصوصية، ويعجز عن حمل شروطها، وأكثرهم ينكرونها ويحتجون لأنفسهم بقول من قال: انقطعت التربية في القرن الثامن، فيموتون مصرين على الإنكار والعصيان، فلن يضرركم إنكارهم أيها الفقراء، فإنهم لا قدرة لهم عليكم، للرعاية التي أحاطت بكم، إلا أذى بلسانهم، وعلى تقدير لحوق ضررهم في الظاهر، فإن الله يُعَيِّبُ أَلَمَ ذَلِكَ عَنْكُمْ فِي الْبَاطِنِ، كما شاهدناه من بعض الفقراء، وإن يُهددوكم بالقتل والجلاء، فإن الله لا يَنْصُرُهُمْ فِي الْغَالِبِ.

قلت: وقد هددونا بالضرب والرفع إلى السلطان والجلاء إلى برِّ النصارى، فلم يقدرنا على شيء من ذلك، وقد وقع ذلك لبعض الصوفية زيادةً في شرفهم وعزِّهم، فالمنكر على الصوفية لا يزال في هَمٍّ وغمٍّ ودُلٍّ ومسكنة، لخراب باطنه من نور اليقين. فإنَّ الانتقاد على الأولياء جنابة واعتقادهم عناية، فإن استمر على أذاهم كان عاقبته سوء الخاتمة، فيبوء بغضب من الله سبب اعتدائه على أولياء الله، " ومن أذى لي ولياً فقد أذن بالحرب " رزقنا الله الأرب معهم، وأماتنا على محبتهم، أمين.

@ { لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ } \* { يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ } \* { وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ }

قلت: { قائمة } أي: مستقيمة، من أقمت العود فقام، أو قائمة بأمر الله. و { آناء الليل } : ظرف: واحده: { إِنِّي } ، بكسر الهمزة وسكون النون، كنجى وأنجاء، أو { إنني } ، كَمِعَى وَأَمْعَاءُ، و { لن تكفروه } أي: لن تحرموه، وعدي { كفر } إلى مفعولين لتضمنه معنى حرم أو منع.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ليس أهل الكتاب { سواء } في الكفر والعدوان، بل منهم { أمة } { أي: طائفة } قائمة { بالعدل مستقيمة في الدين، أو قائمة بأمر الله، أو قائمة في الصلاة } يتلون آيات الله { في تهجدهم } { آناء الليل } { أي: في ساعاته، { وهم يسجدون } في صلاتهم، أو في صلاة العشاء، لأن أهل الكتاب لا يصلونها، لَمَّا رُويَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْرَهَا، ثُمَّ حَرَجَ، فَإِذَا النَّاسُ يَبْتَظِرُونَهَا، فَقَالَ: " أَبْشُرُوا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَحَدٌ يُصَلِّي فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَيْرَكُمْ ".

ثم وصفهم بالإيمان فقال: { يؤمنون بالله واليوم الآخرة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات } ، وهو عبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، فقد وصفهم الله تعالى بخصائص لم توجد في اليهود، فإنهم منحرفون عن الحق غير متعبدين، مشركون بالله ملحدون في صفاته، يصفون اليوم الآخر بغير صفاته، مدهنون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متباطئون عن الخيرات، بخلاف ما وصف به من أسلم منهم، { وأولئك } الموصوفون بتلك الصفات { من الصالحين } { أي: ممن صلحت أحوالهم عند الله، واستوجبوا رضاه وثنائه، وهذه عادة الله مع خلقه، من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً. ولذلك قال: { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه } { أي: فلن تحرموا ثوابه. ولن تجحدوا جزاءه، بل يشكره لكم ويجزيكم عليه، سَمَى الْحَرَمَانَ كَفْرَانًا كَمَا سَمَى الْعَطَاءَ شُكْرًا. } { والله عليهم بالمتقين }؛ فلا يخفى عليه مقاماتهم في التقوى، وفيه إشعار بأن التقوى مبدأ الخير وأحسن الأعمال، وأن الفائزين عند الله هم أهل التقوى. رزقنا الله منها الحظ الأوفر بمثته. أمين.

الإشارة: ليس أهل العلم سواء، بل منهم من جعله شبكةً يصطاد به الدنيا، يبيع دينه بعرض قليل، وهم علماء السوء وقضاة الجور، ومنهم من قرأه لله وعلمه لله، فأفنى عمره في تعليمه وتقييده، ومنهم من صرفي همته إلى جمعه وتأليفه، ومنهم من صرف همته إلى العمل به فالتحق بالعباد والزهاد، { يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون } ومنهم من حرره وحققه، ثم توجه إلى علم الباطن وصحب العارفين، فكان من المقربين، فهؤلاء كلهم { يسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين } ، فيقال لهم: { وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين }.

@ { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } {

يقول الحقّ جلّ جلاله: { إن الذين كفروا } ووجدوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، { لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من } عذاب { الله شيئاً } { وأولئك أصحاب النار } { أي: مُلَازِمُوها، كَمُلَازِمَةِ الرَّجُلِ لَصَاحِبِهِ، } هم فيها خالدون {.

الإشارة: إن الذين كفروا بالخصوصية عند أهل زمانهم، وفاتهم اقتباس أنوارهم، لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا علومهم مما فاتهم من معرفة الله شيئاً، ماذا وَجَدَ مَنْ قَدَّ اللهُ؟ وماذا فقد من وجد الله؟! قال الشاعر:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقْتَهُ عِوَضٌ      وَلَيْسَ لِلَّهِ إِنْ فَارَقْتَ مِنْ عِوَضٍ  
ولا طريق لمعرفة الحق المعرفة الخاصة - أعني معرفة العيان - إلا صحبة أهل  
الشهود والعيان، فكل من أنكرهم كان غايته الحرمان، ولزمته البطالة والخذلان،  
وَجَرَّبَ، ففي التجريب علم الحقائق، ومن حُرِمَ صحبتهم لا ينفك عن نار القطيعة  
وعذاب الحجاب، وعنت الحرص والتعب، عائداً بالله من ذلك.  
@ { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ  
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَا كُنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }

قلت: في الكلام حذف، أي: مثل تلف ما ينفقون كمثل إتلاف ربح... الخ، و { الصر  
{: البرد الشديد، أو ربح فيها صوت وبرد، أو السموم الحارة.

يقول الحق جلّ جلاله: مثل ما يُنفق الكفار، قربة أو مفاخرة وسمعة، أو ما ينفق  
سفلة اليهود على أبحارهم، أو المنافقون؛ رياء وخوفاً، { كمثل ربح } فيها برد شديد  
{ أصابت حرث قوم } أي: زرعهم، فأتلفته وأهلكته، والمراد: تشبيه نفقتهم وأعمالهم  
في تلفه وضياعه وعدم الانتفاع به، بحرث كفار، ضربته ربح فيها برد فاجتاحته،  
فأصبح صعيداً زلقاً، ولم تبق فيه منفعة في الدنيا والآخرة، { وما ظلمهم الله } بأن  
ضيع أعمالهم من غير سبب، ولكنهم ظلموا أنفسهم بارتكاب الكفر الذي أحبط  
أعمالهم.

الإشارة: كل من لم يحقق مقام الإخلاص، ولم يصحب أهل التخليص والاختصاص، لا  
تنفك أعماله من علل، ولا أحواله من دخل، فأعماله فارغة خفيفة، أقل ربح تقلعها  
وتسقطها عن درجة الاعتبار، وما زالت العامة تقول: الصحيح يصح، والخاوي يدره  
الريح. وبالله التوفيق.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ  
بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ  
تَعْقِلُونَ } \* { هَآئِنْتُمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَفُوكُمْ  
قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَٰلِيَكُمْ مِنَ الْأَمَانِ مِنَ الْعَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } \* { إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسْبَهُ تَسِيهُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا  
وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ }

قلت: بطانة الرجل: خواصه الذين يطلعهم على باطنه وسره، وسميت بطانة؛ تشبيهاً  
لها بالثوب الذي يلي بطنه كالشعار. قال عليه الصلاة والسلام: " الْأَنْصَارُ شِعَارُ  
وَالنَّاسُ رِتَآؤُ " وهي اسم تطلق على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث. والألو:  
التقصير، وأصله: أن يتعدى بالحرف، تقول: لا ألو في نصحك؛ أي: لا أقصر فيه. ثم  
عدي إلى مفعولين، كقولهم: لا ألوك نصحاً، على تضمن معنى المنع أو النقص.  
والخبال: الفساد.

و { ما عنتم } مصدرية، والعنت: التعب والمشقة، والأنامل: جمع أئمة - بضم الميم  
وفتحها -، والضير والضر واحد. ومضارع الأول: يضير، والثاني: يضر، وهو هنا مجزوم،

وأصله: يضُرُّكم، نقلت حركة الراء إلى الصاد، وضمت الراء، إتباعاً لحركة الضاد طلباً للمشاكلة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة { أي: أصدقاء وأصدقاء، تطلعونهم على سرّكم، وهم { من دونكم { ليسوا على دينكم، فإنهم { لا يألونكم خيالاً { أي: لا يقصرون جهدهم في إدخال الفساد بينكم بالتخليط والنميمة وإطلاع الكفار على عورتكم. نزلت في رجال من المسلمين، كانوا يصلون رجالاً من اليهود؛ لما كان بينهم من القرابة والصدقة، أو في المنافقين؛ كان يصلهم بعض المسلمين.

ثم وصفهم بأوصاف توجب التنفير منهم فقال: { ودوا ما عنتم { أي: تمنوا عنتم وهلاككم وضلالكم، { قد بدت البغضاء من أفواههم { أي: ظهرت أمارّة العداوة من أفواههم بالوقية في المسلمين، أو بإطلاع المشركين على عوراتهم، أو في كلامهم مع المسلمين بالغيظ، لأنهم لا يتمالكون أنفسهم لفرط بغضهم، { وما تخفي صدورهم { من العداوة والبغضاء، { أكبر { مما أظهره، لأن ظهوره منهم ليس عن روية واختيار، بل من غلبة غيظ واضطرار. { قد بيّنا لكم { أيها المؤمنون { الآيات { الدالة على مجانبة الكافرين ومولاة المؤمنين، { إن كنتم تعلقون { ما يبين لكم.

{ هأنتم { يا هؤلاء المخاطبين { تحبونهم { لما بينكم من المصاهرة والصدقة، { ولا يحبونكم { لما بينكم من مخالفة الدين، أو تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر، وأنتم { تؤمنون بالكتاب { أي: بجنس الكتب، { كله { أي: بالكتب كلها، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبونهم وهم يكذبون كتابكم ورسولكم؟ وهم أيضاً ينافقونكم؛ { إذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا { مع أنفسهم { عضوا عليكم الأنامل من الغيظ { لما يرون من ائتلاف المؤمنين، ولم يجدوا سبيلاً إلى التشفي فيكم، وهذه كناية عن شدة حقدهم، وإن لم يكن تمّ عض في الخارج.

قال لهم الحقّ جلّ جلاله: { قل { لهم يا محمد: { موتوا بغيظكم {؛ فإنما ضرر غيظكم عليكم، أو دوموا على غيظكم حتى تموتوا عليه، فإن مادة الإسلام لا تزال تنمو حتى تهلكوا، { إن الله عليم بذات الصدور { أي: بحقيقة ما في قلوبكم من البغضاء والحقّ، أو بما في القلوب من خير أو شر.  
@ هو من مقول الرسول لهم، أو من كلام الله تعالى، استئناف، أي: لا تعجب من إطلاعي إياك على أسرارهم، فإني عليم بالأخفى من ضمائرهم.

ومن فرط عداوتهم أنهم { إن تمسّسكم حسنة { كنصر وغنيمة { تسوءهم { أي، تحزنهم، { وإن تصبكم سيئة { كهزيمة أو قتل أو إصابة عدو منكم أو اختلاف بينكم، { يفرحوا بها وإن تصبروا { على عداوتهم وأذاهم، وتخافوا ربكم، { وتتقوا { ما نهاكم عنه، { لا يضركم كيدهم شيئاً {، بفضل الله وحفظه، الموعود للصابرين والمتقين،

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ {

[البقرة: 153]،

{ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا {

[النحل: 128]. ومن كان الحق معه لا يضره شيء، { إن الله بما يعملون محيط {؛ لا يخفى عليه ما يعمل أهل الكفر من العداوة والحق، فيجازيهم عليه.

الإشارة: لا ينبغي لأهل الخصوصية أن يتخذوا بطانة من دونهم من العامة حتى يطلعوهم على سرهم، فإن الإطلاع على السر، ولو كان غير الخصوصية، كله ضعف في العقل ووهن في الرأي، وفي ذلك يقول القائل:

من أطلعَ الناسَ على سره استحقَّ الكيِّ على جِبْهَتِهِ  
وأما سر الربوبية فإفشأؤه لغير أهله حرام، والعامة مضادون لأهل الخصوصية، لا يألونهم خبالاً في قلوبهم وتشتيتاً لفكرتهم، إذا صحبوهم يودون أن لو كانوا مثلهم في العنت وتعب الأسباب، فإذا ظهر بالفقراء نقص أو خلل ظهرت البغضاء من أفواههم، وما تحفى صدورهم أكبر، فإن كنتم أيها الفقراء تحبون لهم الخير فإنهم بعكس ذلك، وإن كنتم تقرون شريعتهم فإنهم لا يؤمنون بحقيقتكم، بل ينكرونها عليكم، ومنهم من يتصف بالنفاق، إذا لقي أهل الخصوصية أظهر التصديق والمحبة، وإذا خلا مع العامة أظهر العداوة والحنق، وإن تمسكتم أيها الفقراء حسنة، كعز وفتح وشهود ومعرفة تسوؤهم، وإن تصبكم سيئة؛ كمحنة أو بلية، يفرحوا بها، وإن تصبروا على أذاهم وجفوتهم، وتتقوا شهود السوى فيهم، لا يضركم كيدهم شيئاً؛ { إن الله بما يعملون محيط }.

@ { وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } \* { إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: واذكر يا محمد حين { غدوت من أهلك } من منزل عائشة، الذي تزلت فيه بأحد، حين خرجت بها، حال كونك { تبوئ المؤمنين } أي: تهيئ لهم، { مقاعد للقتال } أي: مواقف وأماكن يقفون فيها للحرب { والله سميع } لأقوالكم، { عليم } بإخلاصكم.

قال الواقدي: خرج النبي صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة - رضي الله عنها - ماشياً على رجليه إلى أحد، فجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدح. أن رأى صدراً خارجاً، قال: تأخر. وذلك أن المشركين نزلوا بأحد، يوم الأربعاء، فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بنزولهم استشار أصحابه، ودعا عبد الله بن أبي بن سلول - ولم يدعه قط قبلها - فاستشاره، فقال عبد الله بن أبي وأكثر الأنصار: يا رسول الله؛ أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخل علينا إلا أصابنا منه، فكيف وأنت فينا! فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خاسئين. فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم هذا الرأي، وقال بعض أصحابه، يا رسول الله؛ اخرج بنا إلى هذه الأكلب، لا يرون أنا جبتنا عنهم وضعفنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني رأيت في منامي بقرأ تذبج، فأولتها ناساً من أصحابي يُقتلون، ورأيت في دباب سيفي ثلماً، فأولتها هزيمة، ورأيت أني أدخل يدي في درع حصينة، فأولتها المدينة. فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة وتدعوهم فافعلوا" فقال رجال ممن فاتهم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، وبالغوا، حتى دخل النبي صلى الله عليه وسلم وليس لأمته. فلما رآه قد لبس سلاحه ندموا، وقالوا: بئس ما صنعنا، نشير على النبي صلى الله عليه وسلم والوحي يأتيه، فقاموا واعتذروا إليه. وقالوا: اصنع ما رأيت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا ينبغي لئبي أن يلبس لأمته فيصعها حتى يُفائِلَ ".



فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب من أُحد، يوم السبت للنصف من شوال، سنة ثلاث من الهجرة، ونزل في عدوة من الوادي، وجعله ظهره وعسكره إلى أحد، وسوى صفهم كما تقدم، وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا ياتونا من خلقنا، فكان من أمر الله ما كان، على ما يأتي.

وخرج مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد زهاء ألف، ووعدهم النصر إن صبروا، فلما بلغوا الشواط - موضع - انخزل ابن أبيّ في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا! فتبعهم أبو جابر السلمي، فقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم. @ فقال ابن أبيّ: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، وهمت بنو حارثة وبنو سلمة بالانصراف معه، فثبتوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم، فذكرهم نعمته بقوله: { إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما } وناصرهما، حيث عصمهما من اتباع المنافقين، قال جابر: (ما يسرنا أنها لم تنزل، لقوله: { والله وليهما } ) فبنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، { وعلى الله فليتوكل المؤمنون } لا على غيره، إذ لا ناصر غيره.

الإشارة: من شأن شيوخ التربية أن يدُلُّوا المريدين على محاربة النفوس ومقاتلتها، ويطلعوهم على دسائسها ومخادعتها، ليهيئوا لهم بذلك مقاعد لقتالها، والله مطلع على إخلاصهم ونياتهم، فمنهم من يمل ويكل، فيرجع إلى وطن عوائده، ومنهم من يصبر حتى يفوز بالغنيمة العظمى والسعادة القصوى، وفي ذلك يقول القائل:

وَبَالَغُوا فِي الْجِدِّ حَتَّى مَلَّ أَكْثَرُهُمْ وَعَاتَقَ الْمَجْدَ مَنْ وَاقَى وَمَنْ صَبَرَ  
قال بعضهم: انتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.  
ومنهم من يلحقه الملل والفشل فيهم بالانصراف والرجوع، ثم يثبته الله تعالى وينصره، فيلحق بالصابرين السابقين، وعمدة المريدين في مجاهدة نفسه: التوكل على الله والاعتماد عليه دون شيء سواه؛ " من علامة النجاح في النهايات: الرجوع إلى الله في البدايات ". { وعلى الله فليتوكل المؤمنون }.

@ { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } {

قلت: { بدر } : بئر بين مكة والمدينة، كانت لرجل اسمه بدر، فسميت باسم صاحبها، وقعت فيها الغزوة التي نصر الله فيها رسوله صلى الله عليه وسلم، فسميت الغزوة باسم المكان، وجملة: { وأنتم أذلة } : حال من الكاف، و { أذلة } : جمع دليل، كأعزة، جمع عزيز.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولقد نصركم الله } في وقعة بدر { وأنتم أذلة } ليس معكم مراكب ولا كثرة سلاح، مع قوة عدوكم بالعدة والعدد، { فاتقوا الله } وأثبتو مع رسوله، وانتظروا النصر من الله كما عودكم، { لعلكم } تكونون شاكرين، لما أنعم به عليكم من العز والنصر، فيزيدكم منه كما وعدكم.

الإشارة: جعل الله سبحانه وتعالى الأيأء كامنة في أصدادها، فمن أراد العز والنصر فليتحقق بالذل والمسكنة، ومن أراد الغني فليتحقق بالفقر، ومن أراد الرفعة فليتحقق بالضعف وإسقاط المنزلة، ومن أراد القوة فليتحقق بالضعف، وهكذا: { تحقق

بأوصافك يمدك بأوصافه { . فاتقوا الله يا معشر المريرين، واطلبوا الأشياء في أزدادها لتظفروا بها، واشكروا الله على ما أولاكم يزدكم من فضله ونواله.

@ { } إِنْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ { } \* { } بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن قُدْرِهِمْ هَادًا يُمَدِّدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ { }

قلت: { إذا } : طرف لنصركم، إذا قلنا: إن الإمداد يوم بدر فقط، أو بدل من { إذ غدوت } ، إذا قلنا: كان الإمداد يوم أحد بشرط الصبر، فملا لم يصبروا لم يقع. والتسويم: التعليم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: ولقد نصركم الله ببدر حين كنت { تقول للمؤمنين } حين رأوا كثرة عدوهم وقلة عدتهم وعددهم: { أَلَنْ يَكْفِيكُمْ } في القوة والكثرة، { أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين } في السحاب؟ { بلى } يكفيكم كما وعدكم، { إن تصبروا } وتثبتوا { وتتقوا } الله { ويأتوكم من فورهم } أي: من سرعتهم { هذا } الوقت، { يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة } بلا تراخ ولا تأخير، { مسومين } أي: مُعلمين بعمائم بيض إلا جبريل، فإنه كان عمامته صفراء. أو معلمين أنفسهم أو خيلهم. قيل: كانت مجزوة الأذنان، وقيل: كانت بُلْقًا.

فإن قلت: ما ذكر في الأنفال إلا ألفاً، هنا خمسة آلاف. فالجواب: أن الله تعالى أمدهم أولاً بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال معنا، ولا يقاتلون. هـ.

الإشارة: كل من توجّه لجهاد نفسه في الله، واشتغل بذكر مولاه، أمده الله في الباطن بالأنوار والأسرار، وفي الظاهر بالملائكة الأبرار، وقد شوهد ذلك في الفقراء أصحابنا، إذا كانوا ثلاثة رأهم العامة ثلاثين، وإذا كانوا ثلاثين رأوهم ثلاثمائة، وقد كنا في بيئته سبعين، فرأونا سبعمائة على ما أخبرونا به، { وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ } [آل عمران: 13].

@ { } وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ { } \* { } لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنقَلِبُوا خَائِبِينَ { } \* { } لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ طَالِمُونَ { } \* { } وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ { }

قلت: { ليس لك من الأمر شيء } : جملة معترضة بين قوله: { أو يكتسبهم } وقوله: { أو يتوب عليهم } ، أو تكون { أو } بمعنى { إلا } ، أي: ليس لك من الأمر شيء، إلا أن يتوب عليهم فتبشرهم، أو يعذبهم فتشفى فيهم. قاله البيضاوي.

يقول الحقّ جلّ جلاله: وما جعل الله ذلك الإمداد إلا بشارة لكم بالنصر، { ولتطمئن قلوبكم به } فتثبتوا للقتال، { وما النصر إلا من عند الله } فهو قادر على أن ينصركم بلا واسطة، لكن أراد أن يثيبكم وينسب المزية إليكم، حيث قتلهم على

أيديكم، فإن الله عزيز لا يغلب، حكيم فيما دبر وأبرم، وإنما نصركم يوم بدر { ليقطع طرفاً من الذين كفروا } بقتل بعض وأسر آخرين، فإنه قتل يومئذ سبعون، وأسر سبعون، { أو يكتبهم } أي: يحزنهم ويغيظهم، والكبت: شدة الغيظ، { فينقلبوا خائبين } مما أملوا.

ولما جُرِحَ - عليه الصلاة والسلام - في وجهه، وشُجَّ على قرن حاجبه، وكُسِرَت ربايعته، هَمَّ بالدعاء على الكفار، بل دعا عليهم، فأنزل الله: { ليس لك من الأمر شيء }؛ إنما أنت رسول إليهم، مأمور بإنذارهم وجهادهم، وأمرهم بيد مالكم، إن شاء هداهم وإن شاء عذبهم. وإنما نهاه عن الدعاء عليهم؛ لعلمه بأن منهم من يُسلم ويجاهد في سبيل الله، وقد كان كذلك؛ فجلهم أسلموا وجاهدوا، منهم خالد بن الوليد - سيف الله في أرضه.

ثم عطف على قوله: { ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم } قوله: { أو يتوب عليهم } إن أسلموا { أو يعذبهم } إن لم يسلموا، { فإنهم ظالمون } قد استحقوا العذاب بظلمهم، والأمور كلها بيد الله، { ولله ما في السماوات وما في الأرض } خلقاً وملكاً وعبداً، { يغفر لمن يشاء } غفرانه، { ويعذب من يشاء } تعذيبه، ولا يجب عليه شيء، { والله غفور رحيم } لعباده، فلا تبادر بالدعاء عليهم.

الإشارة: وما جعل الله التأييد الذي ينزله على أهل التجريد، حين يقابلهم بالابتلاء والتشديد، إذا أراد أن يوصلهم لصفاء التوحيد، إلا بشارة لفتحهم، ولتطمئن بمعرفته قلوبهم، فإن الامتكان على قدر الامتحان، وكل محنة تزيد مكنة، وهذه سنة الله في أوليائه، يسלט عليهم الخلق في بدايتهم، ويشدد عليهم ابلاء، حتى إذا طهروا من البقايا، وكملت فيهم المزايا، كف عنهم الأذى، وانقلب الجلال جمالاً، وذلك اعتناء بهم، ونصراً لهم على أنفسهم، فإن النصر كله { من عند الله العزيز الحكيم }. وذلك ليقطع عنهم طرفاً من الشواغل والعلائق، التي تقبضهم عن العروج إلى سماء الحقائق، فإن الروح إذا رقدت في ظل العز والجاه صعب خروجها من هذا العالم، فإذا ضيق عليها، وعكس مرادها، رحلت إلى عالم الملكوت، والأمر كله بيد الله. ليس لك أيها الفقير من الأمر شيء، إنما أنت مأمور بتحريك الأسباب والله يفتح الباب.

@ ليس لك أيها الشيخ من الأمر شيء، إنما أنت مذكر، وعلى الله البلاغ، فلا تأس على ما فاتك، ولا تفرح بما آتاك، فملكوت السماوات والأرض بيد الله، { يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم }.

قال القشيري: جرّده - أي: نبيه صلى الله عليه وسلم لما به عرفه عن كلِّ غيرٍ وسبب، حيث أخبره أنه ليس له من الأمر شيء، ثم قال: ويقال: أقامه في وقتٍ مقاماً؛ رمى بقبضة من التراب فأصابت جميع الوجوه، وقال: { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى } [الأنفال: 17]، وقال في وقت آخر: { لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ } [آل عمران: 128]. هـ.

يشير إلى أنهما مقامان: نيابة عن الله بالله، ونيابة الله عن عبده، والأول بقاء، والثاني فناء، قاله المحشي. قتل: الأول في مقام البسط، والثاني في مقام القبض، فقد قالوا: إذا بسط فلا فاقة، وإذا قبض فلا طاعة. والله تعالى أعلم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }  
\* { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } \* { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }  
\* { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ }  
\* { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

قلت: الكظم هو: الكف والحبس، تقول: كظمت القربة: إذا ملأته وسددت رأسها.

يقول الحقُّ جلِّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا لا تأكلوا الربا } وتزيدوا فيها إذا حلَّ الأجل { أضعافاً مضاعفة } ، ولعل التخصيص بحسب الواقع، إذ كان الرجل يَحُلُّ أجلَ دَنيه، فيقول للمدين: إما أن تقضي وإما أن تزيد، فلا يزال يؤخره ويزيد في دينه حتى يستغرق مال المدين، فنهوا عن ذلك. ورغبتهم في التقوى التي هي غنى الدارين. فقال: { واتقوا الله } فيما نهيتكم عنه، { لعلك تفلحون } في الدارين. ثم خوفهم بالنار إن لم ينتهوا، فقال: { واتقوا النار التي أعدت للكافرين } ، وفيه إشعار بأن النار موجودة؛ إذ لا يُعَدُّ المعدوم، وأنها بالذات معدة للكافرين، وبالعرض للعاصين.

قال الورتجبي: في الآية إشارة إلى أن النار لم تعد للمؤمنين، ولم تخلق لهم، ولكن خوفهم بها زجراً وعظة، كالأب البار المشفق على ولده يخوفه بالأسد والسيف، وهو لا يضره بالسيف، ولا يلقيه إلى الأسد، فهذه الآية تلتطف وشفقة على عباده. هـ.

{ وأطيعوا الله } فيما أمر ونهى، { والرسول } فيما شرع وسنَّ، { لعلكم ترحمون } . والتعبير بلعل وعيسى في أمثال هذه: دليل على عون التوصل إلى ما جعل طريقاً له.

{ وسارعوا } : أي: بادروا { إلى مغفر من ربكم } ؛ كالإسلام والتوبة والإخلاص، وسائر الطاعات التي توجب المغفرة، وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على الاستئناف. وسارعوا أيضاً إلى { جنة عرضها السماوات والأرض } لو وصل بعضها ببعض، وذكر العرض؛ للمباغلة في وصفها بالسعة؛ لأنه دون الطول. قال بعضهم: لم يُرد العرض الذي هو ضد الطول، وإنما أراد عظمها، ومعناه: كعرض السماوات السبع والأرضين السبع في ظنكم، أي: لا تدرك ببيان. { أُعِدَّتْ } أي: هُيئتُ { للمتقين } . وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة، وأنها خارجة عن هذا العالم.

ثم وصف أهلها من المتقين بأوصاف الكمال، فقال: { الذين ينفقون في السراء والضراء } أي: في حالتَي الرخاء والشدة، وفي الأحوال كلها، كما هي حالة الأسخياء، قال صلى الله عليه وسلم: " الجنة دارُ الأسخياء " وقال أيضاً: " السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِّنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِّنَ الْجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِّنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِّنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِّنَ اللَّهِ، بَعِيدٌ مِّنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِّنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِّنَ النَّارِ، وَلِجَاهِلٍ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِّنَ الْعَالَمِ الْبَخِيلِ " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: " السَّخَاءُ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ، أَغْصَانُهَا فِي الدُّنْيَا، مَن تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِّنْ أَغْصَانِهَا قَادَتْهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْبَخْلُ شَجَرَةٌ فِي النَّارِ، أَغْصَانُهَا فِي الدُّنْيَا، مَن تَعَلَّقَ بِبَعْضٍ مِّنْ أَغْصَانِهَا قَادَتْهُ إِلَى النَّارِ " .

{ والكاظمين الغيظ } أي: الكافين عن إمصائه مع القدرة عليه، قال عليه الصلاة والسلام " مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِمْصَائِهِ؛ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا " .

@وقال بعض الشعراء:

وَإِذَا عَصَبْتَ فَكُنْ وَفُورًا كَاطِمًا  
لِلْغَيْطِ، تُبْصِرَ مَا تَقُولُ وَتَسْمَعُ  
فَكَفَى بِهِ شَرَفًا، تَصْبُرُ سَاعَةً  
يَرْضَى بِهَا عَنكَ الْإِلَهَ وَيَرْفَعُ  
{ والعافين عن الناس } أي: عمن ظلمهم، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه  
قال عند ذلك:

" إِنَّ هَؤُلَاءِ فِي أُمَّتِي قَلِيلٌ، مَنْ عَصَمَ اللَّهُ، وَقَدْ كَانُوا كَثِيرًا فِي الْأُمَّةِ الَّتِي مَصَّتْ  
وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ، فَجَاءَ  
رَجُلٌ فَوَقَعَ فِي أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ سَاكِتٌ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَسَمَّى، ثُمَّ رَدَّ  
أَبُو بَكْرٍ بَعْضَ الرَّدِّ، فَغَضِبَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَقَامَ، فَلَحَقَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: يَا  
رَسُولَ اللَّهِ، شَتَمَنِي وَأَنْتَ تَتَسَمَّى، ثُمَّ رَدَّدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ مَا قَالَ، فَغَضِبْتَ وَقُمْتَ.  
قَالَ: " حِينَ كُنْتَ سَاكِنًا كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ، فَمَا تَكَلَّمْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ  
أَكُنْ لِأَقْعَدَ فِي مَقْعَدٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ، يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثُ حَقٍّ: تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يَظْلَمُ  
مَظْلَمَةً فَيَعْفُو عَنْهَا إِلَّا أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَلَيْسَ عَبْدٌ يَفْتَحُ بَابَ مَسْأَلَةٍ يَرِيدُ بِهَا  
كَثْرَةَ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ قَلَّةً، وَلَيْسَ عَبْدٌ يَفْتَحُ عَطِيَّةً أَوْ صَلَةَ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا كَثْرَةً ".

{ والله يحب المحسنين } الذين أحسنوا فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين  
عباد الله، و " أل " : يحتمل أن تكون للجنس، فيعم كل محسن، أو للعهد، فتكون  
الإشارة إلى من تقدم ذكرهم.

الإشارة: كل ما يُقوي مادة الحس فهو ربا؛ لأنه يربي الحس ويقوي مادة الغفلة،  
فلا ينبغي لمريد أن يضاعفه ويتعاطى أسباب تكثيره، بل ينبغي أن يفر من موارده،  
وهي ثلاثة: مباشرة الحس، أو الفكر فيه، أو الكلام مع أهله فيه. والذي يقوي مادة  
المعنى ثلاثة: صحبة أهل المعنى، والفكرة في المعاني، وذكر الله بالقلب. واتقوا الله  
في مباشرة الحس { لعلكم تفلحون } بالوصول إلى صف المعاني، واتقوا نار  
القطيعة التي أعدت لمنكر الخصوصية، { وأطيعوا الله والرسول } فيما ندبكم إليه،  
{ لعلكم ترحمون } بالوصول إلى صفة المعاني، واتقوا نار القطيعة التي أعدت  
لمنكر الخصوصية، { وأطيعوا الله والرسول } فيما ندبكم إليه، { لعلكم ترحمون }  
ياحياء قلوبكم وأرواحكم وأرواحكم بأسرار المعاني، وسارعوا إلى ما يوجب تغطية  
مساوءكم، حتى يغطي وصفكم بوصفه، ونعتكم بنعته، فيوصلكم بما منه إليكم، لا  
بما منكم إليه، فتدخلوا جنة المعارف، التي لا نهاية لفضاء شهودها، التي أعدت  
للمتقين السوي، الذي يبذلون مهجهم وأموالهم في حال الجلال والجمال،  
{ والكاظمين الغيظ }؛ حيث ملكوا أنفسهم وأحوالهم، { والعافين عن الناس }؛ لأن  
الصوفي ماله مباح ودمه هدر. وكان بعض الصوفية يقول: إذا أردت أن تعرف حال  
الفقير فأغضبه، وانظر إلى ما يخرج منه.  
@وقال شيخ شيوختنا رضي الله عنه: قطب التصوف: لا تغضب ولا تُغضب. هـ.

ولعروة بن الزبير - رضي الله عنه:

لن يبلغَ المجدَ أقوامٌ وإنْ كَرُمُوا، حتى يُدَلُّوا وإنْ عَرَّوا لأقوام  
ويُشْتَمُوا فترى الألوانَ مُشْرِقَةً، لا عَفْوٌ دَلٌّ، ولكن عَفْوٌ أحلام.

{ والله يحب المحسنين } الذين حازوا مقام الإحسان، فعبدوا الله بالشهود والعيان، فعم إحسانهم ذا الإساءة والإحسان والإنس والجان. قال الحسن البصري: (الإحسان: أن يعم إحسانه، ولا يكون كالشمس والرياح والمطر). أي: يخص بلداً دون بلد. وقال سفيان الثوري: (ليس الإحسانُ أن تُحسنَ إلى من أحسن إليك، وإنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك. فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنفقد السوق، خذ مني وهات). وقال السري السقطي: (الإحسان: أن تُحسن وقت الإمكان، فليس في كل وقت يمكنك الإحسان)، وأنشدوا:

ليس في كلِّ ساعةٍ وأوانٍ تَتَهَيَّأُ صنائعُ الإحسانِ  
فإذا أمكنتُ فبادرُ إليها حذرًا من تعذُّرِ والإمكانِ

وقال الورتجي: قوله: { وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة... } الخ، علم الحق - سبحانه - علل الخلق وميلهم إلى منى النفوس، فدعاهم بطاعته إلى العلتين: المغفرة والجنة، ودعا الخاصة إلى نفسه، فقال: { ففرّوا إلى الله }، ثم أعلم أن الكل في درك امتحان الجرم، وأثبت بالآية ذنب الكل، لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل، فذنبهم قلة معرفتهم لأقدار الحق، كما قال عليه الصلاة والسلام: " لو أن الله عذب الملائكة لحق منه، فقيل: إنهم معصومون، فقال عليه الصلاة والسلام: من قلة معرفتهم بربهم " ولذلك دعاهم إلى المغفرة. هـ. قال في الحاشية: وقوله: (أثبت بالآية ذنب الكل)، يعني: شمول قوله: { يغفر لمن يشاء } من في السماوات الصادق بالملائكة، وإنما تكون المغفرة بعد ذنب، ولكنه في كل أحد على حسبه، وأما قوله: دعاهم إلى المغفرة، فكأنه من قوله: { سارعوا إلى مغفرة من ربكم }، وأن الخطاب يعم من في السماوات أيضاً، وقد يتصور في حق الملائكة الاستناد لطواهر الأمور والاختلاف بينهم والاختصاص، مما هو معرض للخطأ، وذلك من دواعي المغفرة، وكذلك القصور عن معرفة كنه جلاله الله: نقص لا يخلو منه مخلوق، لاستحالة الإحاطة به علماً، ولذلك كان الترقى في المعرفة لا حد له أبداً سرمداً. هـ.

@ { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَيَّا مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } \* { أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { والذين إذا فعلوا فاحشة } أي: فعلة بالغة في الفحش والقبح، كالزنى، { أو ظلموا أنفسهم } بأي ذنب كان، أو فعلوا كبيرة أو صغيرة، أو الفاحشة: ما يتعدى للغير، وظلم النفس ما يخص، أو الفاحشة بالفعل، وظلم النفس بالقول، { ذكروا الله } أي: عاقبه وغضبه وعرضه الأكبر، أو { ذكروا الله } في أنفسهم أن الله سائلهم عنه، أو كونه رقيباً عليهم، أو { ذكروا الله } باللسان { فاستغفروا لذنوبهم } بالندم والتوبة، { ومن يغفر الذنوب إلا الله } أي: لا أحد يغفره إلا الله، والمراد: وصفه تعالى بسعة الرحمة وعموم المغفرة، والحث على الاستغفار.

{ ولم يصروا على ما فعلوا } أي: لم يدوموا عليها غير مستغفرين، لقوله صلى الله عليه وسلم: " ما أصبرَّ من استغفر، ولو عادَ في اليوم سبعين مرّةً " وذلك إذا صحبه الندم، وقال أيضاً: " لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار " قال قتادة: إياكم والإصرار، فإنما هلك المصرون الماضون قدماً في معاصي الله تعالى، لم يتوبوا حتى أتاهم. هـ. { وهم يعلمون } أن الإصرار يضر بهم، أو: وهم يعلمون أن

لهم رباً يغفر الذنوب؛ لقوله - عليه الصلاة والسلام-: " مَنْ أَذَّتَبَ ذَنْبًا، وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنُوبَ، عَقَرَ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَسْتَغْفِرْ " وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: " من علم أنني ذو قدرة على المغفرة غفرْتُ له ولا أبالي " وفي بعض الكتب المنزلة: " يا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي لِأَغْفِرَنَّ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي " أو: { وهم يعلمون } أن التوبة تمحق الذنوب.

{ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم }؛ تغطية لذوئهم، { وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها } ، ولا يلزم من إعدادها للتائبين اختصاصهم بها، كما لا يلزم من إعداد النار للكفار اختصاصهم بها، ثم مدح أجر التائبين فقال: { ونعم أجر العالمين } ، وانظر هذا الفرق العظيم الذي بين المحسنين وأهل اليمين، قال في الآية الأولى: { والله يحب المحسنين } وقال في هذه الآية: { ونعم أجر العاملين } ، أهل الآية الأولى من خواص الأحاب، وأهل هذه يأخذون أجرهم من وراء الباب، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى عين التحقيق.

الإشارة: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فبيت عندهم الرسول والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان.  
@واعلم أن لمعرفة الشهود والعيان ثمرات ونتائج، حصرها بعضهم في إحدى عشرة خصلة.

الأولى: الحرية، ومعناها أن يكون العارف فرداً لِقَرْدٍ، من غير أن يكون تحت رق شيء من الموجودات، لا من أغراض الدنيا ولا من أغراض الآخرة، فالحرية عبارة عن غاية التصفية والطهارة. قال بعضهم: ليس بحرُّ من بقي عليه من تصفية نفسه مقدار فص نواة، المكاتب عبد ما بقي عليه درهم.

الثانية: الوجود، وهو الفوز بحقيقة الأشياء في الأصل، وهو عبارة عن إدراك مقام تضمحل فيه الرسوم، بالاستغراق في الحقيقة الأزلية.

الثالثة: الجمع الأتم، وهو الحال الذي يقضي بقطع الإشارات، والشخص عن الأمارات والعلامات، بعد صحة التمكين والبراءة من التلوين.

الرابعة: الصحو، وهو عبارة عن تمكين حال المشاهدة، واتصالها، مع براء الروح من لدغات الدَّهَشِ، ولا يكمل الصحو إلا بحياة الروح بوارد الجمع الدائم.

الخامسة: التحقيق، وهو الوصول إلى المعرفة بالله، التي لا تدرك بالحواس، لتخليص المشرب من الحق بالحق في الحق، حتى تسقط المشاهدات، وتبطل العبارات، وتفتى الإشارات.

السادسة: البسط، ونعني به: بسط الروح باسترسال شهود المعاني عند سقوط الأواني، وفي ذلك يقول ابن الفارض:

فما سكنتُ والهَمَّ يوماً بموضعٍ كذلك لم يسكنُ مع النعمِ العَمُّ  
السابعة: التلبس، وهو تغطية الأسرار بأسرار الأسباب، إبقاء للحكمة وستراً عن العامة.

الثامنة: البقاء، والمراد به الخروج عن فناء المشاهدة إلى بقاء المعرفة، من غير أقول بخل بشمس المشاهدة، ولا رجوع إلى شواهد الحس، إنما هو استصحاب الجمع مع استئناس الروح بحلاوة المعاني، فهو كباين دان. انظر بقيتها في [بغية المسالك]. وبالله التوفيق.

@ { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ } \* { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } \* { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }

قلت: السُّدن: الطرق المسلوكة، وقيل: الأمم.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: قد مضت { من قبلكم سننٌ } جرت على الأمم المكذبة لأنبيائها قبلكم، { ولن تجد لسنة الله تبديلاً }، وهو إمهالي واستدراجي إياهم، حتى يبلغ الكتاب الذي أجل لهم، فإذا بلغهم أهلكتهم، وأدلت الأنبياء وأتباعهم عليهم، فإذا هلكوا بقيت آثارهم دراسة، اعتباراً لمن يأتي بعدهم، { فسيروا في الأرض } وتعرفوا أخبارهم، وانظروا { كيف كان عاقبة المكذبين } لأنبيائهم قبلكم، فكذلك يكون شأنكم مع من كذبكم.

{ هذا } الذي أمرتكم به من الاعتبار، { بيان للناس } لمن أراد أن يعتبر من الكفار، وزيادة هداية واستبصار { للمتقين }.

ثم سلَّاهم وبشرهم فقال: { ولا تهنوا } أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم بما أصابكم، { ولا تحزنوا } على من قُتل منكم، وهم سبعون من الأنصار وخمسة من المهاجرين، منهم: حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير - صاحب راية النبي صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن جحش، وعثمان بن شماس، وسعد مولى عتبة - رضي الله عنهم -. أو: { لا تحزنوا } لفوات الغنيمة { وأنتم الأعلون } بأن تكون لكم العاقبة والنصر، أو: وحالكم أنكم أعلى منهم شأنًا، فإنكم على الحق وقتالكم لله، وقتالكم في الجنة، وهم على الباطل، وقتالهم للشيطان، وقتلهم في النار، فلا تفشلوا عن الجهاد { إن كنتم مؤمنين }؛ فإن الإيمان يقتضي قوة القلب بالوثوق بالله والاعتماد عليه، أو: { إن كنتم مؤمنين } بما وعدتكم من العلو والنصر. والله أعلم.

الإشارة: قد خلت من قبلكم، أيها المريدون، سنن الله في أوليائه مع المنكرين عليهم من عوام عباده، فإنه أبعدهم عن ساحة حضرته، وحرّمهم من سابق عنايته،



حتى ماتوا على البُعد، فاندريست آثارهم وخربت ديارهم، فسيروا في الأرض وانظروا كيف كان عاقبة المكذبين لأوليائه، هذا بيان للمعتبرين، وزيادة هدى وموعظة للمتقين، فلا تهنوا أيها الفقراء وتضعفوا عن طلب الحق بالرجوع عن طريق الجد والاجتهاد، لما يصيبكم من أذى أهل العناد، وأنتم الأعلى بالنصر والتأييد، ورفع درجاتكم مع خواص أهل التوحيد، إن كنتم مؤمنين بوعد الملك المجيد، فمن طلب الله وجهه، وأنجز بالوفاء مواعده، لكن بعد تجرع كؤوس مرارة الصبر، ودوام الحمد والشكر، وأنشدوا:

لَا تَحْسَبِ تَمَرًا أَنْتَ أَكَلُهُ لَنْ تَبْلُغَ الْمَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبْرَ

@ { إِنْ يَمْسِسِيكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَيَلْعَلِمُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } \* { وَيَلْمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ } \* { أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ } \* { وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ }

قلت: القرح - بالفتح والضم -: الجرح، وقيل: بالفتح: الجرح، وبالضم: ألمه ووجعه. والمدولة: المفاعلة من الدولة، وهي الغلبة، و { الأيام } نعت أو خبر، و { نداولها } خبر أو حال، و { يعلم } متعلق بمحذوف، أي: وفعل ما فعل من الادالة ليعلم، أو عطف على علة محذوفة، أي: نداولها ليكون كيت وكيت، وليعلم... الخ، إيذاناً بأن العلة فيه غير واحدة، وأن ما يصيب المؤمن: فيه من المصالح ما لا يُعلم، و { الصابرين } منصوب بأن، على أن الواو للجمع.

يقول الحق جلّ جلاله: { إن يمسسكم } في غزوة أحد { قرح } كقتل أو جرح، { فقد مس القوم } من أعدائكم يوم بدر { قرح مثله }، فإن كان قُتل منكم خمسة وسبعون يوم أحد، فقد قتل منهم يوم بدر سبعون وأُسّر سبعون: أو: { فقد مسّ القوم } يوم أحد { قرح } مثل ما أصابكم، فإنكم نلتهم منهم وهزمتموهم، قبل أن تخالفوا أمر الرسول - عليه الصلاة -، كما نالوا منكم يومئذ. { وتلك الأيام نداولها بين الناس } أي: تُصرف دولتها بينهم، فنديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى، كما قال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا، وَيَوْمٌ نُسَاءُ، وَيَوْمٌ نُسْرُ  
فقد أدب المسلمون عليّ المشركين يوم بدر، فكانت الدولة لهم، وأدب المشركون يوم أحد. والمراد بالأيام: أيام الدنيا، أو أيام النصر والغلبة. وإنما أدب للمشركين يوم أحد ليميز المؤمنون من المنافقين، وبطهر علمهم للناس، وليتخذ الله { منكم شهداء } حين ماتوا في الجهاد، أكرمهم الله بالشهادة، ولا تدل إدالة المشركين على أن الله يحبهم، فإن الله { لا يحب الظالمين }. وإنما أدلهم { ليمحص الله الذي آمنوا } أي: ليظهرهم ويصفيهم من الذنوب، وإنما أدال المسلمين عليّ المشركين ليمحق الكافرين ويقطع دابرهم. والمحق: نقص الشيء قليلاً قليلاً.

ثم عاتب المسلمين فقال: { أم حسبت } أي: ظننتم { أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم } علم ظهور، { ويعلم الصابرين } أي: لا تظنوا أن تدخلوا الجنة كما دخلها من قُتل منكم، ولم يقع منكم مثل ما وقع لهم من الجهاد والصبر على القتل والجرح؛ حتى يقع العلم ظاهراً بجهادكم وصبركم.

{ ولقد كنتم { قبل خروجكم إلى الجهاد { تمنون الموت { أي: الحرب؛ لأنه سبب الموت، وتقولون: ليت لنا يوماً مثل يوم بدر، فلقد لقيتموه وعينتموه يوم أحد { وأنتم تنظرون { من مات من إخوانكم، فما لكم حين رأيتموه جبنتم وأنهزمتم؟ وهو عتاب لمن طلب الخروج يوم أحد، ثم انهزم عن الحرب، ثم تداركهم بالتوبة والعفو، على ما يأتي إن شاء الله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إن يمسسكم يا معشر الفقراء قرح؛ كحبس أو ضرب أو سجن أو حرج أو جلاء، فقد مس العموم مثل ذلك، غير أنكم تسيرون به إلى الله تعالى لمعرفتكم فيه، وهم لا سير لهم لعدم معرفتهم، أو إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم المتقدمين من أهل الخصوصية مثل ما أصابكم، ففيهم أسوة لكم، وهذه عادة الله في أوليائه، يديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم حتى يتطهروا ويتخلصوا، ثم يُديل لهم، وإنما أديل عليهم أولاً ليتطهروا من البقايا وتكمل فيهم المزايا، وليعلم الصادق في الطلب من الكاذب، فإنَّ محبة الله مقرونة بالبلاء، وليتخذ منهم شهداء إن ماتوا على ذلك، كالحلاج وغيره، أو يتخذ منهم شهداء الملكوت إن صبرا حتى ظفروا بالشهود.  
@والله لا يحب الظالمين { أي: المؤذنين لأوليائه، بل يمقتهم ويبعدهم.

{ ولیمحص الله الذي آمنوا { بطريق الخصوص، أي: يخلصهم من بقايا الحس، سلط عليهم الناس، وليمحق المنكرين عليهم بما يصيبهم من إذابتهم، فإن المنكر على أهل النسبة كمن يدخل يده في الغيران، فإذا سلم من الأول والثاني، قال: لا يلحقني منهم شيء، فإذا أدخل يده في غار آخر لدغته حية فأهلكته.

أم حسبتم يا معشر المریدین أن تدخلوا جنة المعارف، ولما يعلم الله الذين جاهدوا نفوسهم، ويعلم الصابرين على إيذاية من أذاهم، ولقد كنتم تمنون موت نفوسكم وتطلبون ما يعينكم على موتها من قبل أن تلقوا الجلال، فقد رأيتموه وعايتموه وأنتم تنظرون ما أصاب الأولياء غيركم، فما لكم تجزعون منه وتفرون من مواطنه؟ وكان شيخ شيوخنا رضي الله عنه يقول: العجب كل العجب، ممن يطلب معرفة الله، فإذا تعرف إليه أنكره.

وفي الحكَم: " إذا فتح الله لك وجهة من التعرف فلا تبال معها، وإن قلَّ عملك، فإنه ما فتحها إلا وهو يريد أن يتعرف إليك فيها، ألم تعلم أن التعرف هو موردك عليك، والأعمال أنت مهديها إليه، وأين ما تهديه إليه مما هو موردك عليك؟ ". وباللغة التوفيق.

@ { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلْنَا أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلْنَا عَقَبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ } \*  
{ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ } {

قلت: { كتاباً } : مصدر، أي: كتب الموت كتاباً مؤجلاً.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وما محمد إلا رسول { يصيبه ما أصابهم، { قد { مضت { من قبله الرسل { ، فسيمضي كما مضوا بالموت أو القتل، { أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم { بعد تقرر شريعته وظهور براهينه، عاتبهم على تقدير أن لو

صار منهم انقلاب لو مات صلى الله عليه وسلم أو قتل، أو على صدر من بعض المنافقين وهم ساكتون.

قال أصحاب المغازي: خرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالشعب من أحد، في سبعمائة رجل، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة، وهم خمسون رجلاً، وقال: انضحوا عنا بالنبل، لا يأتونا نم خلقنا، لا ترحوا مكانكم؛ كانت لنا أو علينا، فإننا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، فجاءت قريش، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى ميسرتهم عكرمة، ومعهم النساء. ثم انتشب القتال فقال عليه الصلاة والسلام: " مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه؟ " فجاء رجال فمنعهم، حتى جاء أبو دُجانة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: " تضرب به العدو حتى ينحني " ، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، فأخذه واعتم بعمامة حمراء، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال عليه الصلاة والسلام: " إنها لمشيئة يبغيها الله إلا في هذا الموضع " .

ثم حمل النبي صلى الله عليه وسلم على المشركين فهزموهم، قال الزبير: (فأريت هنداً وصواحبها هاربات مصعدات في الجبل)، فلما نظر الرماة إلى القوم فك انكشفوا، قالوا: الغنيمة الغنيمة فقال لهم بعضهم: لا تتركوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقال يلتفتوا، وانطلق عامتهم، فلما رأى خالد قلة الرماة، صاح في خيله من المشركين، ثم حمل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من خلفهم، وقتل عبد الله بن جبير، واختلط الناس، فقتل بعضهم بعضاً، ورمى عبد الله بن قمنة الحارثي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر، فكسر أنفه ورباعيته، وشجّه في وجهه، وكسر البيضة على رأسه، فذّب عنه مصعب بن عمير، وكان صاحب الراية، فقتله ابن قمنة وهو يرى أنه قتل النبي صلى الله عليه وسلم ورجع إلى قومه، وقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد مات. وقيل: إنه الشيطان، فانكفأ الناس، وجعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - يدعو: " إني عبد الله " ، فانحاز إليه ثلاثون من الصحابة، وضموه حتى كشفوا عنه المشركين، وأصابت طلحة بن عبيد الله فيبست، حتى وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم، وأصابت عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنتيه، فردها النبي صلى الله عليه وسلم مكانها، فعادت أحسن مما كانت.

@وفشا في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات - فقال بعض المسلمين: ليت ابن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. وقال بعض المنافقين: لو كان نبياً ما قتل، ارجعوا إلى دينكم الأول. فقال أنس بن النضر - عم أنس بن مالك: (إن كان قد قتل محمداً فإن رب محمد لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، حتى تمتوا على ما مات عليه). ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك ما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني الكفار-، ثم شد سيفه وقاتل حتى قُتل، رحمة الله عليه.

فأنزل فيما قال المنافقون: { ومن ينقلب على عقبيه } بارتداده { فلن يضر الله شيئاً } وإنما يضر نفسه، { وسيجزى الله الشاكرين } على نعمة الإسلام بالثبات عليه، كأنس وأضرابه، { وما كان } ينبغي { لنفس أن تموت إلا بإذن الله } أي: بإرادته ومشيئته، أو بإذنه لملك في قبض روحه، والمعنى: أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه، لا تستأخر عنه ساعة ولا تستقدم، بالتأخر عن القتال ولا بالإقدام عليه، وفيه تشجيعهم على القتال ووعد للرسول بحفظه وتأخر أجله؛ فإن الله تعالى كتب أجل الموت { كتاباً مؤجلاً }؛ مؤقتاً لا يتقدم ولا يتأخر.

ونزل في الرماة الذين خلفوا المركز للغنيمة: { ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤتها منها } الجزاء الجليل، { وسنجزي الشاكرين } الذين كروا نعم الله، فلم يشغلهم شيء عن الجهاد في سبيل الله، بل كان همهم رضي الله ورسوله دون شيء سواه.

الإشارة: ينبغي للمريد أن يستغني بالله، فلا يركن إلى شيء سواه، وتكون بصيرته نافذة حتى يغيب عن الواسطة بشهود الموسوط، فإن مات شيخه لم ينقلب على عقبيه، فإن تمكن من الشهود فقد استغنى عن كل موجود، وإن لم يتمكن نظر من يكمله، فالوقوف من الوسائط وقوف مع النعم دون شهود المنعم، فلا يكون شاكرًا للمنعم حتى لا يحجبه عنه شيء، ولما مات - عليه الصلاة والسلام - دهشت الناس، وتحيرت لوقوفهم مع شهود النعمة، إلا الصديق؛ كان نفذ من شهود النعمة إلى شهود المنعم، فخطب حينئذ على الناس، وقال: (مَنْ كَانَ يَعْْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ). ثم قرأ: { وما محمد إلا رسول... } إلى قوله: { وسنجزي الشاكرين } ، وهم الذين نفذوا إلى شهود المنعم، ولم يقفوا مع النعمة.

ودخل بعض العارفين على بعض الفقراء فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ قال: مات أستاذي، فقال له العارف: ولم جعلت أستاذك يموت؟ وهلا جعلته حيًّا لا يموت. فنبهه على نفاذ بصيرته إلى شهود المنعم دون الوقوف مع النعمة، فالشيخ الحقيقي هو الذي يغني صاحبه عنه وعن غيره، بالدلالة على ربه.

@ { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ } \* { وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَاقَنَا فِي أَمْرِنَا وَنَبِّئْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } \* { فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }

قلت: { كَأَيِّن } أصله: أي، دخلت الكاف عليها وصارت بمعنى { كم } ، وأثبت التنوين نونا على غير قياس، وقرأ ابن كثير، { وكأئن } ، على وزن فاعل، ووجهه: أنه قلب الياء قبل الهمزة فصار: كَيَاءٍ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فصار كائِن، وهما لغتان، وقد جمع الشاعر بينهما في بيت، فقال:

كأين أبَدْنَا مِنْ عَدُوِّ بَعْرِنَا  
و { الرَبِّيُونَ } : جمع رَبَّة، أي: الفرقة. أي: معه جموع كثيرة، وقيل: العلماء الأتقياء، وقيل: الكوالة، وهو: إما مبتدأ فيوقف على { قُتِل } ، أو نائب فاعل { قُتِل } ، أو فاعل على من قرأ بالبناء له، و { كثير } : نعت له، كقوله: { وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } [التَّحْرِيم: 4]؛ لأن فعلاً يخبر به عن المفرد والجمع.

يقول الحق جلّ جلاله: { وكأين } ؛ وكم { من نبي قتل } في المعركة ومعه جموع كثيرة، أو ربانيون علماء أتقياء، فلم يفتشلوا ولم يضعفوا، بل ثبتوا على دينهم وجهاد عدوهم، أو يقول: كثير من الأنبياء قتل معهم ربانيون كثير، أي: ماتوا في الحرب فثبت الباقون، ولم يفتروا ولم يضعفوا عن عدوهم، وبترجح الأول بما صرح به الصارخ يوم أحد: إن محمداً قد مات، فضرب لهم المثل بقوله: { وكأين من نبي قُتِل } ، وبترجح الثاني بأنه لم يقتل نبي قط في المحاربة.

أو: { وكأين من نبيِّ قاتلٍ { أي: جاهد معه { ربيون كثير } ، وبعدما قتل نبيهم أو جموعهم { فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله { أي: فما فتروا: ولم ينكسر جندهم؛ لأجل ما أصابهم من قتل نبيهم أو بعضهم، { وما ضعفوا { عن جهاد عدوهم ولا عن دينهم، { وما استكانوا { أي: خضعوا لعدوهم، من السكون؛ لأن الخاضع يسكن لعدوه يفعل به ما يريد، فالألف إشباع زائد، أي: فما سكنوا لعدوهم بل صبروا له، { والله يحب الصابرين { فينصرهم ويعزهم ويُعظم قدرهم.

{ وما كان قولهم { عند قتل نبيهم مع ثباتهم على دينه، { إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا { الصغائر، { وإسرافنا في أمرنا { أي: ما تجاوزنا به الحد في أمر ذنوبنا، كالكبائر، { وثبت أقدامنا { في مداحض الحرب؛ لئلا ننهزم، { وانصرنا على القوم الكافرين { من أعدائنا، فهلاً فعلتم مثلهم، وقتلتم ذلك يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

{ فاتاهم الله { في ثواب الاستغفار واللجوء إلى الله { ثواب الدنيا { وهو النصر والغنيمة والعز وحسن الذكر، { وحسن ثواب الآخرة { وهو النعيم الذي لا يفنى ولا يبید، وخص ثواب الآخرة بالحسن؛ إشعاراً بفضله، وأنه المعتمد به عنده، { والله يحب المحسنين { الثابتين على دينهم، لأنهم أحسنوا فيما بينهم وبين ربهم بحفظ دينه، فأحبهم الله وقربهم إلى حضرته.

الإشارة: وكم من المريدين والأتباع مات شيخهم أو قتل، فثبتوا على طريقهم، فما قشِلوا ولا ضعفوا، ولا خضعوا لمن يقطعهم عن ربهم، بل صبروا على السير إلى ربهم، أو الترقى في المقامات، ومن لم يرشد منهم طلب من يكمل له، { والله يحب الصابرين { ، فإذا أحبهم كان معهم وبصرهم، كما في الحديث. وما كان حالهم عند موت شيخهم إلا الالتجاء إلى ربهم، والاستغفار مما بقي من مساوئهم، وطلب الثبات في مواطن حرب أنفسهم، فأعطاهم الله عزَّ الدنيا والآخرة عزَّ الدنيا بالإيمان والمعرفة، وعزَّ الآخرة بدوام المشاهدة، فكانوا أحباب الله؛ { والله يحب المحسنين {.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلْنَا أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ } \* { بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا { وهم المنافقون، لما قالوا للمسلمين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دينكم الأول، ولو كان نبياً ما قتل، { يردوكم على أعقابكم { راجعين عن إيمانكم، { فتنقلبوا خاسرين { مفتونين عن دينكم، فتحبط أعمالكم فتخسروا الدنيا والآخرة، بل أثبتوا على إيمانكم، فإن الله { مولاكم { سينصركم ويعزكم، { وهو خير الناصرين { ، وقيل: إن تسكنوا إلى أبي سفيان وأشياعه وتستأمنوهم يردوكم إلى دينهم. وقيل: عام في مطاوعة الكفرة والنزول على حكمهم؛ فإنه يجر إلى موافقتهم على دينهم، لا سيما إن طال مدة الاستئمان.

قلت: وهذا هو السبب في ارتداد من بقي من المسلمين بالأندلس حتى رجعوا نصارى، هم وأولادهم، والعياذ بالله من سوء القضاء.

الإشارة: يا أيها المریدون - وخصوصاً المتجردين - إن تطيعوا العامة، وتركبوا إليهم، يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين بطلب الدنيا وتعاطي أسبابها، فتزل قدم بعد ثبوتها، وتنحط من الهمة العالية إلى الهمة السفلى، فإن الطباع تُسرق، والمرء على دين خليله، بل أثبتوا على التجريد وتحقيق التوحيد، فإن الله مولاكم { وهو خير الناصرين }؛ فينصركم ويعزكم ويغنيكم بلا سبب، كما وعدكم؛  
{ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ }  
[الطلاق: 2، 3].

@ { سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبئسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ }

قلت: { الرعب } : الخوف، وفيه الضم والسكون، وهكذا كل ثلاثي ساكن الوسط، كالقدس والعسر واليسر، وشبه ذلك، و { بما أشركوا } : مصدرية.

يقول الحق جل جلاله: سنقذف { في قلوب الذين كفروا } كأبي سفيان وأصحابه، { الرعب } والخوف، حتى يرجعوا عنكم بلا سبب، بسبب شركهم بالله { ما لم ينزل به سلطاناً } ولا حجة على استحقاق العبادة، { وماؤاهم النار } أي: هي مقامهم، { وبئس مَثْوًى الظالمين } أي: قبح مقامهم. ووضع الظاهر موضع المضمرة للتغليظ في العلة.

الإشارة: فيها تسلية للفقراء، فإن كل من هم بإذابتهم ألقى الله في قلبه الرعب، حتى لا يقدر أن يتوصل إليهم بشيء مما أمّل فيهم، وقد رأيتهم هموا بقتلهم وضربهم وحبسهم، وسعوا في ذلك جهدهم، وعملوا في ذلك بينات على زعمهم، تُوجب قتلهم، فكفاهم الله أمرهم، وألقى الرعب في قلوبهم، فانقلبوا خائبين وماتوا ظالمين، والله ولي المتقين.

@ { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَخُسُّوْتَهُمْ بِإِيْدِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنِي يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: حسّه: إذا قتله وأبطل حسه، وجواب { إذا } : محذوف، أي: حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم امتحناكم بالهزيمة، والواو لا ترتب، والتقدير: حتى إذا تنازعتم وعصيتم وفشلتم سلينا النصر عنكم.

يقول الحق جل جلاله: { ولقد صدقكم الله } ما وعدكم من النصر لو صبرتم واتقيتم، وذلك حين كنتم { تحسونهم } بالسيف، وتقتلونهم حتى انهزموا هارين، بإذنه تعالى وإرادته، { حتى إذا فشلتم } أي: جبنتم وضعف رأيكم وملتم إلى الغنيمة، { وتنازعتم } في الثبات مع الرماة حين انهزم المشركون، فقلت: الغنيمة الغنيمة، فما وقوفكم هنا! وقال آخرون: لا تخالفوا أمر الرسول، ثم تركتم المركز، { وعصيتم الرسول من بعد ما أراكم ما تحبون } من النصر والغنيمة، امتحناكم حينئذ بالهزيمة.

فمنكم { من يريد الدنيا } ليصرفها في الآخرة، وهم الذين خالفوا المركز وذهبوا للغنيمة، { ومنكم من يريد الآخرة } صرفاً، وهم الثابتون مع عبد الله بن جبير،

محافظةً على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، { ثم صرفكم عنهم } حين خالفتم أمر الرسول، { ليلتليكم } أي: ليختبركم، فيتين الصابر من الجازع، والمخلص من المنافق، { ولقد عفا عنكم } فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة، لاستحقاقكم ذلك، أو تجاوز عن ذنبكم وتفضل بالتوبة والمغفرة، { والله ذو فضل } عظيم { على المؤمنين }؛ يتفضل عليهم بالمغفرة في الأحوال كلها، سواء أديل عليهم أو لهم، فإن الابتلاء أيضاً رحمة وتطهير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول للفقراء الذين استشرفوا على بلاد الخصوصية، ثم فشلوا ورجعوا إلى بلاد العمومية: ولقد صدقكم الله وعده في إدراك الخصوصية لو صبرتم، فإنكم حين كنتم تجاهدون نفوسكم وتحسونها بسيوف المخالفة، لمعت لكم أنوار المشاهدة، حتى إذا فشلتم وتفرقت قلوبكم، وعصيتم شيوخكم قلت أمدادكم، وأظلمت قلوبكم، من بعد ما رأيتم ما تحبون من مبادئ المشاهدة، فملتم إلى الدنيا الفانية، فمنكم يا معشر المنتسبين من يريد الدنيا، فصحب العارفين على حرف، وهو الذي رجع وفشل، ومنكم من يريد الآخرة وقطع يأسه من الرجوع إلى الدنيا، وهو الذي ثبت حتى ظفر، ثم صرفكم عن حصبة العارفين، يا من أراد الدنيا من المنتسبين، ليلتليكم، هل صحبتموهم لله أو لغيره، ولقد عفا عنكم وجعلكم من عوام المسلمين، ولم يسلب عنكم الإيمان عقوبة لترك صحبة العارفين. أو لقد عفا عنكم إن رجعتم إلى صحبتهم والأدب معهم، فإن الله { ذو فضل على المؤمنين } حيث لم يعاجلهم بالعقوبة. وبالله التوفيق.

وقال الورتجي: قوله: { منكم من يريد الدنيا } ، أي: منكم من وقع في بحر غني القدم، واتصف به بنعت التمكين ورؤية النعم في شكر المنعم، كسليمان عليه السلام. ومنكم من وقع في بحر التنزيه وتقديس الأزلية، فغلب عليه القدس والطهارة، فخرج بنعت الفقر؛ تجريداً لتوحيده وإفراجه من الحدث، كمحمد صلى الله عليه وسلم حيث قال: " الفقر فخري "

@ { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَيَا وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعَّمْ لَكَيْلًا تَخْرَبُوا عَلَيَا مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ }

قلت: { إِذْ } : ظرف لعفا، أو اذكر. وأصعد: أبعد في الأرض، وصعد: في الجبل، فالإصعاد: الذهاب في الأرض المستوية، والصعود: الارتقاء في العلو. وقرئ بهما معاً؛ لأنها وقعا معاً، فمنهم من فرّ ذاهباً في الأرض، ومنهم من صعد إلى الجبل.

و { لكيلاً } : متعلق بآتابكم.

يقول الحق جلّ جلاله: ولقد عفا عنكم حين كنتم { تُصْعِدُونَ } عن نبيه - عليه الصلاة والسلام -، منهزمين عنه، تبعدون عنه، { ولا تلوون على أحد } أي: لا يلتفت بعضكم إلى بعض، ولا ينتظر بعضكم بعضاً، { والرسول } محمد صلى الله عليه وسلم { يدعوكم في أخراكم } أي: في ساقبتكم، يقول: " إليّ عباد الله، أنا رسول الله، من يكره فله الجنة " ، وفيه مدح للرسول صلى الله عليه وسلم بالشجاعة والثبات، حيث وقف في آخر المنهزمين، فإن الآخر هو موقف الأبطال، والفرار في حقه صلى الله عليه وسلم محال.

{ فأتابكم } أي: فجازاكم على ذلك الفرار، { غمًّا }؛ وهو ظهور المشركين عليكم وقتل إخوانكم، بسبب غم أوصلتموه للنبي صلى الله عليه وسلم بعصيانه والفرار عنه، وقدّر ذلك { لكيلا تحزنوا على ما فاتكم } من الغنيمة، { ولا } على { ما أصابكم } من الجرح والهزيمة، لأن من استحق العقوبة والأدب لا يحزن على ما فاته ولا على ما أصابه؛ إذ جريمته تستحق أكثر من ذلك، يرى ما نزل به بعض ما يستحقه، فيهون عليه أمر ما نزل به أو ما فاته من الخير.

أو يقول: { فأتابكم غمًّا } متصلاً { بغم }؛ فالغم الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: ما نالهم من القتل والهزيمة، أو الأول: ما أصابهم من القتل والجراح، والثاني: ما سمعوا من الإرجاف بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك ليتمرنوا على المحن والشدائد حتى لا يجزعوا من شيء، وبذلك وصفهم كعب بن زهير في لاميته، حيث قال:

لَا يَفْرَحُونَ إِذَا تَأَلَّتْ رِمَاحُهُمْ      وَكَيْسُوا مَجَازِعًا إِذَا نِيلُوا  
فإن المتمرّن على المصائب المتعوّد عليها يهون عليها أمرها، فلا يحزن على ما أصابه ولا ما فاته، { والله خير بما تعملون } وبما قصدتم، فيجازيكم على ذلك.

الإشارة: ما زال الدعاة إلى الله من أهل التربية النبوية يدعون الناس إلى الله، ويعرفونهم بالطريق إلى الله، ينون لهم الطريق إلى عين التحقيق، والناس يبعدون عنهم ويفرّون منهم، وهم في آخرهم يقولون بلسان الحال أو المقال: يا عباد الله، هلم إلينا نعرفكم بالله، وندلكم على الله، فلا يلوي إليهم أحد ولا يلتفت إليهم بشر، إلا من سبقت له العناية، وأراد الحق تعالى أن يوصله إلى درجة الولاية، " سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه " ، فأتابهم على الفرار غم الحجاب، متصلاً بغم الأسباب، فلا يحزنوا على ما فاتهم من المعرفة؛ إذ لم يعرفوا قدرها، ولا على ما أصابهم من الغفلة والبطالة، إذ لم يتفطنوا لها { والله خير بما تعملون } يا معشر العباد، من التودد أو العناد. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغِيثَ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِيهَا أَنفُسَهُمْ مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْنَا مَصَاجِعَهُمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

قلت: { نعاساً }؛ بد لمن { أمنة } ، أو هو المفعول، و { أمنة }؛ حال منه، مقدمة، أو مفعول له، أي: أنزل عليكم نعاساً لأجل الأمنة، أو حال من كاف { عليكم } ، أي: أنزل عليكم حال كونكم آمينين، والأمنة: مصدر أمن، كالعظمة والعلبة.

يقول الحق جلّ جلاله: { ثم أنزل عليكم } أيها المؤمنون { من بعد الغم } الذي أصابكم بموت إخوانكم، والإرجاف بقتل نبيكم، الأمن والطمانينة، حتى أخذكم النعاس وأنتم في الحرب. قال أبو طلحة: (عشيتنا النعاس ونحن في المصاف، حتى كان السيف يسقط من يد أحداً فيأخذه، ثم يسقط فيأخذه). وقال الزبير رضي الله عنه. لقد رأيتني حين اشتدّ الخوف، ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم، أرسل الله -



تعالى - علينا النوم، والله إنى لأسمع قول معتب، والنعاس يغشاني، ما أسمعته إلا كالحلم: { لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا }.

ثم إن هذا النعاس إنما { يغشى طائفة منكم } وهم المؤمنون، أو: هذه الأمانة إنما تغشى طائفة منكم، وأما المنافقون فقد { أهمتهم أنفسهم }، أي: أوقعتهم في الهموم والغموم، أو ما يهمهم إلا أنفسهم، يُدبرون خلاصها ونجاتها، فقد طارت قلوبهم من الخوف، فلا يتصور في حقهم النوم، { يظنون بالله غير الحق } أي: غير الظن الحق، لأنهم ظنوا أنه لا ينصر - عليه الصلاة والسلام، وأن أمره مضمحل، أو ظنوا أنه قتل، ظناً كظن الجاهلية، أهل الشرك، { يقولون } أي: بعضهم لبعض: { هل لنا من الأمر من شيء } أي: عُزلنا عن تدبير أنفسنا، فلم يبق لنا من الأمر من شيء. قاله ابنُ أبي، لما بلغه قتل الخرج.

{ قل } لهم يا محمد: { إن الأمر كله لله }؛ ليس بيد غيره شيء من التدبير والاختيار، حال كون المنافقين { يخفون في أنفسهم } من الكفر والنفاق { ما لا يُبدون لك } يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا { أي: لو كان تدبيراً أو اختياراً ما خرجنا سلسلة المقادير، رغباً على أنفسكم، فلو { كنتم في بيوتكم } آمنين { لبرز الذين كتب عليهم القتل }، ووصل أجلهم { إلى مضاجعهم } ومصارعهم، رغباً على أنفسهم، فإن الله قَدَّرَ الأمور ودبرها في سابق أزله، لا معقب لحكمه، وإنما فعل ذلك، وأخرجكم إلى المعركة { ليبتلّي الله ما في صدوركم } أي: يختبر ما فيها من الخير أو الشر، { وليمحص ما في قلوبكم } أي: يكشف ما فيها من النفاق أو الإخلاص، فقد ظهر حيث سريرتكم ومرض قلوبكم بالنفاق الذي تمكن فيه، { والله عليم بذات الصدور } أي: بخفاياها قبل إظهارها. وفيه وعد ووعد وتنبه على أنه غني عن الابتلاء، وإنما فعل ذلك لِيُمَيِّزَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُظْهِرَ حَالَ الْمُنَافِقِينَ. قاله البيضاوي.

الإشارة: ثم أنزل عليكم أيها الواصلون المتمكنون، أو من تعلق بكم من السائرين. @من بعد غم المجاهدة وتعب المراقبة أمانة في قلوبكم بالطمأنينة بشهود الله، وراحة في جوارحك من تعب الخدمة في السير إلى الله، حتى وصلتكم فنتمتم في ظل الأمن والأمان، وسكنتم في جوار الكريم المنان.

قال بعض العارفين: (إذا انتقلت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح)، وهذه الراحة إنما تحصل للعارفين، أو من تعلق بهم من المريدين، وطائفة من غيرهم؛ وهم المتفكرة الجاهلون، الذين لا شيخ لهم، قد أهمتهم أنفسهم، تارة تصرعهم وتارة يصرعونها، تارة تُشرق عليهم أنوار التوجه، فيقوى رجاؤهم في الفتح، وتارة تنقبض عنهم فيظنون بالله غير الحق، ظن الجاهلية، يقولون: هل لنا من الفتح من شيء؟.

قل لهم: { إن الأمر كله لله }؛ يوصل من يشاء ويبعد من يشاء، يُخفون في أنفسهم من العيوب والخواطر الرديئة ما لا يبدون لك، فإذا طال عليهم الفتح، وغلب عليهم الفقر، ندموا على ما فاتهم من التمتع بالدنيا، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا بالذل والفقر والجوع، قل لهم: ذلك الذي سبق في علم الله، لا محيد لأحد عنه، ليظهر الصادق في الطلب من الكاذب، [كن صادقاً تجد مرشداً]، فلو صدقتم في الطلب لأرشدكم إلى من يُوصلكم ويريحكم من التعب. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { إن الذين تولوا منكم } وانهزموا يوم أحد؛ { يوم التقى الجمعان } جمع المسلمين وجمع الكفار إنما كان السبب في انهزامهم أن الشيطان { استزلهم } أي: طلب زللهم فأطاعوه، أي: زين لهم الفرار فأطاعوه، بسبب بعض { ما كسبوا } من الإثم، كمخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، والحرص على الغنيمة، وذنوب اقترفوها قبل الجهاد، فإن المعاصي تجر بعضها بعضاً، كالطاعة، { ولقد عفا الله عنهم } فيما فعلوا من الفرار؛ لتوبتهم واعتذارهم؛ { إن الله غفور { للذنوب، { حلیم } لا يعاجل بعقوبة المذنب كي يتوب.

الإشارة: إن الذين تولوا منكم يا معشر الفقراء، ورجعوا عن صحبة الشيوخ، حين التقى في قلبهم الخصمان: خصم يرغبهم في الثبوت، وخصم يدلهم على الرجوع، ثم غلب خصم الرجوع فرجعوا، إنما استزلهم الشيطان بسوء أدبهم، فإن تابوا ورجعوا، أقبلوا عليهم، وقبل الله توبتهم، وعفا عنهم، فإنه سبحانه غفور حلیم.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ }

قلت: { غُزًى } : جمع غَزٍ، كعافٍ وعفى، وإنما وضع { إذا } موضع { إذ }؛ لحكاية الحال،

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا } وناقفوا، كعبد الله بن أبي، وأصحابه، { وقالوا لإخوانهم } في النسب، أو في المذهب، أي: قالوا لأجلهم أو في شأنهم، { إذا ضربوا في الأرض } أي: سافروا للتجارة أو غيرها فماتوا، { أو كانوا غُزًى } أي: غازين فقتلوا في الغزو: { لو كانوا عندنا } مُقيمين { ما ماتوا وما قتلوا } ، وإنما نطقوا بذلك { ليجعل الله ذلك } القول الناشئ عن الاعتقاد الفاسد { حسرة في قلوبهم } بالاعتقاد على ما فات، والتحسر على ما لم يأت، { والله } هو { يحيي ويميت } بلا سبب في الإقامة والسفر، فليس يمنع حذر من قدر، { والله بما تعملون } ، أيها المؤمنون { بصير } ، ففيه تهديد لهم على أن يُماتوا المنافقين في هذا الاعتقاد الفاسد، ومن قرأ بالياء فهو تهديد لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينبغي للأقوياء من أهل اليقين أن يتشبهوا بضعفاء اليقين، كانوا علماء أو صالحين أو طالحين، حيث يقولون لإخوانهم إذا سافروا لأرض مخوفة أو بلد الوباء. لو جلسوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وما دَرَوْا أن الله قدَّر الآجال كما قدَّر الأرزاق وجميع الشؤون والأحوال، وعيَّن لها أوقاتاً محدودة في أزله، فكل مقدور يبرز في وقته، " ما من نفس تبديه، إلا وله قدر فيك يمضيه " ، فما قدَّره في سابق علمه لا بد أن يكون، وما لم يقدره لا يكون، ولا تجلبه حركة ولا سكون. ولله در القائل:

مَا لَا يُقَدَّرُ لَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ      أَبْدًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ  
سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ فِي وَقْتِهِ      وَأَخُو الْجَهَالَةِ مُتَعَبٌ مَحْرُومٌ

يَجْرِي الْحَرِيصُ وَلَا يَتَالُ بِحَرْصِهِ      سَيِّئًا وَيَخْطَى عَاجِزٌ وَمَهِينٌ  
قَدَحَ الْهُمُومَ، تَعَرَّ مِنْ أَنْوَابِهَا،      إِنْ كَانَ عِنْدَكَ بِالْقَصَاءِ يَقِينٌ  
هُوَ عَلَيْكَ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَائْفًا      فَأَخُوا الْحَقِيقَةَ شَأْنَهُ النَّهْوِينُ  
وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يتمثل بهذه الآيات:

فَهَوُّنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأُمُورَ      بِكَفِّ الْإِلَهِي مَقَادِيرُهَا  
فَلَيْسَ بِأَتِيكَ مَضْرُوفُهَا      وَلَا عَازِبٌ عَنْكَ مَقْدُورُهَا  
وكل من لم يحقق الإيمان بالقدر لا ينفك عن الحسرة والكدر، ومن أراد النعيم المقيم فليتلج صدره ببرد الرضا والتسليم، ومن أراد الروح والريحان فعليه بجنات العرفان، وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواءه الطريق.  
@ { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }  
\* { وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ }

قلت: إذا اجتمع القسم والشرط ذكر جواب الأول وأغنى عن الثاني، فقوله: { لمغفرة } : جواب القسم، أغنى عن جواب { إن } ، والتقدير: إن قتلتم في سبيل الله غفر الله لكم، ثم سد عنه { لمغفرة... } الخ، ومن قرأ: { متم } بكسر الميم، فهو من: مات يمات، كهاب يهاب هبث، وخاف يخاف خفت، ومن قرأ بالضم: فمن مات يموت، كقال يقول قُلت.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: إن السفر والغزو ليس هما مما يجلب الموت أو يقدم الأجل، وعلى تقدير: لو وقع ذلك وحضر أجلكم فيه وقتلتم { في سبيل الله } بالسيف، { أو متم } حتف أنفكم، لما تنالون من المغفرة والرحمة والروح والريحان { خير مما تجمعون } من حطام الدنيا الفانية لو لم تموتوا، وعلى أي وجه متم أو قتلتم فلا تحشرون إلا إلى الله، لا إلى أحد غيره، فيوفى جزاءكم ويعظم ثوابكم، وأما البقاء في الدنيا فلا مطمع لأحد فيه، سافر أو قعد في بيته، وقدم أولاً القتل على الموت وأخره ثانياً؛ لأن الأول رتب عليه المغفرة والرحمة، وهما في حق من قتل في الجهاد أعظم ممن مات بغيره، فقدمه؛ اعتناء به، وفي الثاني رتب عليه الحشر، وهو مستوٍ في القتل والموت، فلا مزية فيه للقتل على الموت. والله أعلم.

الإشارة: ولئن قتلتم نفوسكم وبذلتهم مهجكم في طلب محبوبكم، فظفرتم بالوصول إليه قبل موتكم، أو متم في السير قبل الوصول إلى محبوبكم، لما تنالون من كمال اليقين وشهود رب العالمين، أو من المغفرة والرحمة التي تضمكم إلى جواره، خير مما كنتم تجمعون من الدنيا قبل توجهكم إليه، فإن الموت والحشر مكتوب على كل مخلوق، فيظهر فوز المجاهدين والمتوجهين، وغبن القاعدين المستوفين. وبالله التوفيق.

@ { فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا الْقَلْبَ لَآتَفَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ }

قلت: { فيما } : صلة. والفظ، الجافي، يقال: فظ فظاطةً وفظوطاً، ورجل فظ، وامرأة فظة، والفض - بغير المشالة: التفرق، ويطلق على الكسر، ومنه: لا يفيض الله فاك.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: فبرحمة من الله ونعمة كنت سهلاً لينا رفيفاً، فحين عصوا أمرك، وفروا عنك، ألنت لهم جانبك، ورفقت بهم، بل اغتممت من أجلهم مما أصابهم، { ولو كنت فظاً { جافياً سبىء الخلق { غليظ القلب { قاسية فأغلظت لهم القول، { لانفضوا من حولك { أي: لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك، { فاعف عنهم { فيما يختص بك، { واستغفر لهم { في حق ربك حتى يشفعك فيهم { وشاورهم في الأمر { الذي يصح أن يشاور فيه؛ تطيباً ل خاطرهم، ورفعاً لأقدارهم، واستخراجاً وتمهيداً لسنة المشاورة لغيرهم، وخصوصاً الأمراء.

قال عليه الصلاة والسلام: " ما شقا عبد بمشورة، وما سعد باستغناء برأي " قال أيضاً: " مَا حَاتَ مِنْ إِسْتِخَارٍ، وَلَا يَدَمَ مِنْ اسْتِشَارٍ " وقال أيضاً - عليه الصلاة والسلام - " إِذَا كَانَ أَمْرًاؤُكُمْ خِيَارُكُمْ، وَأَعْيَانُكُمْ أَسْخِيَاءُكُمْ، وَأَمْرُكُمْ سُورَى بَيْنِكُمْ، فَظَهَرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا. وَإِذَا كَانَ أَمْرًاؤُكُمْ شِرَارُكُمْ وَأَعْيَانُكُمْ بُحْلَاءُكُمْ، وَلَمْ تَكُنْ أُمُورُكُمْ سُورَى بَيْنِكُمْ، فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ ظَهْرِهَا " .

{ فإذا عزمت { على شيء بعد الشورى، { فتوكل على الله { أي: ثق به وكيلاً، { إن الله يحب المتوكلين { فينصرهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم.

الإشارة: ما اتصف به نبينا - عليه الصلاة والسلام - من السهولة والليونة والرفق بالأمّة، اتصفت به ورثته من الأولياء العارفين، والعلماء الراسخين، ليتيها لهم الدعوة إلى الله، أو إلى أحكام الله، ولو كانوا فظاظاً غلاظاً لانفض الناس من حولهم، ولم يتيها لهم تعريف ولا تعليم، فينبغي لهم أن يعفوا ويصفحوا ويغفروا ويصبروا على جفوة الناس، ويستغفروا لهم، ويشاوروهم في أمورهم، اقتداء برسولهم، فإذا عزموا على إمضاء شيء فليتوكلوا على الله؛ { إن الله يحب المتوكلين } .

قال الجنيد - رضي الله عنه -: (التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض عمن دونه). وقال الثوري: أن تفني تدبيرك في تدبيره، وترضى بالله وكيلاً ومدبراً، قال الله تعالى:

{ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا }

[النساء: 81]. وقال ذو النون: (خُلِع الأرباب، وقطع الأسباب) وقال الخواص: قطع الخوف والرجاء مما سوى الله تعالى. وقال العرجي: رد العيش إلى يوم واحد، وإسقاط هم غد. هـ. وقال سهل: معرفة معطي أرزاق المخلوقين، ولا يصح لأحد التوكل حتى تكون عنده السماء كالصفر والأرض كالحديد، لا ينزل من السماء قطرة، ولا يخرج من الأرض نبات، ويعلم أن الله لا ينسى له ما ضمن من رزقه بيه هذين. هـ. وقيل: هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل، كإكتفاء الخليل بالخليل، حين لم ينظر إلى عناية جبريل.

@وقيل لبهلوان المجنون: متى يكون العبد متوكلاً؟ قال: إذا كان بالنفس غريباً بين الخلق، وبالقلب قريباً إلى الحق.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ، وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَعْنَى النَّاسِ فَيَكُنْ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ " .

قال ابن جزي: التوكل هو الاعتماد على الله في تحصيل المنافع وحفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات، لوجهين: أحدهما: قوله: { إن الله يحب المتوكلين } ، والآخر: الضمان الذي في قوله:

{ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }  
[الطلاق: 3]، وقد يكون واجباً لقوله:  
{ وَعَلَى اللَّهِ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }  
[المائدة: 23]، فجعله شرطاً في الإيمان، ولظاهر قوله:  
{ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }  
[آل عمران: 122]؛ فإن الأمر محمول على الوجوب.

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يعتمد العبد على ربه، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده، الذي لا يشك في نصيحته له وقيامه بمصالحه. الثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه؛ لا يعرف سواها ولا يلجأ إلا إليها. الثالثة: أن يكون العبد مع ربه كالमित بين يدي الغاسل، قد أسلم إليه نفسه بالكلية.

فصاحب الدرجة الأولى عنده حظ من النظر لنفسه، بخلاف صاحب الثانية. وصاحب الثانية له حظ من الاختيار، بخلاف صاحب الثالثة. وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص، الذي تكلمت عليه في قوله:  
{ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ }  
[البقرة: 163]، فهي تقوى بقوته وتضعف بضعفه.

فإن قيل: هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا؟ فالجواب: أن الأسباب على ثلاثة أقسام:

أحدها: سبب معلوم قطعاً قد أجراه الله، فهذا لا يجوز تركه؛ كالأكل لرفع الجوع ولللباس لرفع البرد.

الثاني: سبب مظنون: كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدر فعله في التوكل، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه.

والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدر فعله في التوكل، قلت: ولعل هذا مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر، وشبه ذلك.

ثم فوق التوكل التفويض، وهو: الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية، فإن المتوكل له مراد واختيار، وهو يطلب مراده في الاعتماد على ربه، وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار، بل أسند الاختيار إلى الله تعالى، فهو أكمل أدباً مع الله. هـ. وأصله للغزالي، وسيأتي بقية الكلام عند قوله:  
{ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ }  
[الفرقان: 58]. وبالله التوفيق.

@ { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ }

يقول الحق جلّ جلاله: { إن ينصركم الله { كما نصركم يوم بدر، { فلا غالب لكم { من أحد من الناس، { وإن يخذلكم { كما خذكم يوم أحد، { فمن { هذا { الذي

ينصركم من بعده { تعالى، أي: فلا ناصر سواه. وهذا تنبيه على الحث على التوكل، وتحريض على ما يستوجب به النصر، وهو الاعتماد على الله، وتحذير مما يستوجب الخذلان، وهو مخالفة أمره وعصيان رسوله، أو الاعتماد على غيره، ولذلك قال: { وعلى الله فليتوكل المؤمنون }؛ لِمَا عِلِمُوا أَلَا نَاصِرَ سِوَاهُ.

الإشارة: إن ينصركم الله على مجاهدة النفوس، ودوام السير إلى حضرة القدوس، فلا غالب لكم من النفس، ولا من الناس ولا من الهوى ولا من الشيطان، وإن يخلدكم - والعياذ بالله - فمن ذا الذي ينصركم من بعد خذلانه لكم؟ فليعتمد المرید في سيره على مولاه، وليستنصر به في قطع حظوظه وهواه، فإنه لا ناصر له سواه. وأنشدوا:

إِذَا كَانَ عُوْنُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ تَاصِرًا      تَهَيَّأْ لَهُ مِنْ كُلِّ صَعْبٍ مُرَادُهُ  
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عُوْنُ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى      فَأَكْثُرْ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ  
وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.  
@ { وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَمَ مَمَّا يَعْلَمُ } وَمَنْ يَعْلَمُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّقَا كُلُّ نَفْسٍ  
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {

قلت: الغلول: السرقة من الغنائم، فمن قرأ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: لا ينبغي له أن يأخذ شيئاً من الغنيمة خفية، والمراد: تبرئة رسوله - عليه الصلاة والسلام - من ذلك. ومن قرأ بضم الياء ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى، ما كان لنبي أن يخان، أي: أن تخونه أمته في المغنم، وكذلك الأمراء، وإنما خص النبي صلى الله عليه وسلم بذلك؛ لبشاعة ذلك مع النبي؛ لأن المعاصي تعظم بحضرته، والثاني: أن يكون المعنى: ما كان لنبي أن ينسب إلى الخيانة؛ كقوله: { فَاتَّبَعْنَاهُمْ لَا يُكَذِّبُوكَ } [الأنعام: 33] أي: لا ينسبونك إلى الكذب.

يقوله الحق جل جلاله: { ما كان } ينبغي { لنبي أن يغل } ويأخذ شيئاً من الغنيمة خفية؛ لأن ذلك خيانة والنبوة تنافي ذلك، والمراد: نزاهة الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن ذلك، كقوله:

{ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ }  
[مریم: 35]، ودفع ما توهمه الرماة، فقد روي أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لهم لما تركوا المركز: " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ أَلَّا تَتْرُكُوا الْمَرْكَزَ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ أَمْرِي؟ " قالوا: تَرَكْنَا بَقِيَّةَ إِخْوَانِنَا وَقُوفًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنَّا تَعْلَمُ وَلَا نَعْلَمُ لَكُمْ " فنزلت الآية. وقيل إنه - عليه الصلاة والسلام - بعث طلائع، فغنم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم على من معه فقط، فنزلت، فاسترجع ذلك منهم. وقيل: في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال المنافقون: لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدَهَا، فنزلت.

ثم ذكر وعيد الغلول، فقال: { وَمَنْ يَعْلَمُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أي: يأتي بالذي غله يحمله على رقبته، قال عليه الصلاة والسلام: " لَا أَلْقَى أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَجِيءُ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٌ لَهُ حُورٌ، أَوْ سَاءٌ تَبِعَرٌ " ثم قال: " اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ ثلاثاً " كما في البخاري.

{ ثم توفى كل نفس { جزاء { ما كسبت { تاماً، { وهم لا يظلمون { بنقص ثواب مُطيعهم، ولا يزداد على عقاب عاصيهم وكان اللائق بما قبله أن يقول: ثم يوفى ما كسب. لكنه عمم الحكم؛ ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، وأنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله، فالغال مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوي.

الإشارة: ما قيل في النبي - عليه الصلاة والسلام - يقال في ورثته الكرام، كالأولياء والعلماء الأتقياء، فإنهم ورثة الأنبياء، فيُظن بهم أحسن المذاهب، ويلتمس لهم أحسن المخارج، لأن الأولياء دلوا على معرفة الله، والعلماء دلوا على أحكام الله، وبذلك جاءت الرسل من عند الله، فلا يظن بهم نقص ولا خلل، ولا غلول ولا دخل، فلهم قسط ونصيب من حرمة الأنبياء، ولا سيما خواص الأولياء، ومن يظن بهم نقصاً أو خللاً، ويغل قلبه على شيء من ذلك، فسيرى وباله يوم تفضح السرائر، { ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون { ، فلحوم الأولياء والعلماء سموم قاتلة، وظن السوء بهم خيانة حاصلة. والله تعالى أعلم.

@ { أَفَمَن اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {  
\* { هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ {

يقول الحقّ جلّ جلاله: { أفمن اتبع رضوان الله { بأن اعتقد في نبيه الكمال، وأطاعه في وصف الجلال والجمال، وهم المؤمنون، حيث نزهوا نبيهم من النقائص، ومَن هَجَسَ في قلبه شيء بادر إلى التوبة، ثم اتصف بكمال الخصائص، هل يكون { كمن باء { بغضب { من الله {؟ وهم المنافقون، حيث نافقوا الرسول واتهموه - عليه الصلاة والسلام - بالغلول.

أو يقول: { أفمن اتبع رضوان الله { بالطاعة والانقياد { كمن باء بسخط من الله { بالمعاصي وسوء الاعتقاد { ومأواه جهنم وبئس المصير { أي المنقلب، والفرق بين المصير والمرجع: أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى، ولا كذلك المرجع. قاله البيضاوي.

{ وهم درجات عند الله { أي: أهل الرضوان درجات متفاوتة عند الله، على قدر سعيهم في موجب الرضا، وأهل السخط درجات أيضاً، على قدر تفاوتهم في العصيان، وهو على حذف مضاف، أي: دُور درجات، { والله بصير بما يعملون {؛ { فيجازي كلاً { على قدر سعيه.

الإشارة: { فأمن اتبع رضوان الله { بتعظيم الأولياء والعلماء وأهل النسبة، كمن باء بسخط من الله بإهانة من أمر الله أن يُعظم ويُرفع، ومأواه حجاب الحس وعذاب البعد، { وبئس المصير { ، فأهل القرب درجات على قدر تقربهم إلى ربهم، وأهل البعد درجات في البعد على قدر بعدهم من ربهم، بشؤم ذنبهم وسوء أدبهم، والله بصير بأعمالهم وما احتوت عليه قلوبهم.

@ { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَتُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لقد منّ الله على المؤمنين } حيث { بعث فيهم رسولاً من أنفسهم } أي: من جنسهم، أو من نسبهم، عربياً مثلهم، ليفهموا كلامه بسهولة، ويفتخروا به على غيرهم. وتخصيص المؤمنين بالمنة، وإن كانت نعمته عامة؛ لزيادة انتفاعهم على غيرهم؛ لشرفهم وذكرهم به، حال كونه { يتلو عليهم آياته }؛ القرآن بعد أن كانوا جاهلية لا يعرفون الوحي ولا سمعوا به، { ويزكيهم } أي: يطهرهم من دنس الذنوب ودرن العيوب، { ويعلمهم الكتاب } أي: القرآن، { والحكمة } أي: السنة، { وإن كانوا } أي: وإنه، أي: الأمر والشأن كانوا { من قبل } بعثته { لفي ضلال مبين } أي: ظاهر بين.

الإشارة: لقد منّ الله على المتوجهين إليه الطالبين لمعرفته، حيث بعث لهم من يأخذ بأيديهم، ويطوي مسافة البعد عنهم، وهم شيوخ التربية، يتلون عليهم آياته الدالة على كشف الحجاب وفتح الباب، ويزكيهم من دنس العيوب المانعة لعلم الغيوب، ثم يزيكهم من درن الحس إلى مشاهدة القرب والأنس، ويعلمهم الكتاب المشتمل على عين التحقيق، والحكمة المشتملة على التشريع وبيان الطريق، فيجمعون لهم ما بين الحقيقة والشريعة، وقد كانوا قبل ذلك في ضلال مبين عن الجمع بينهما. وهذه المنة عامة في كل زمان، إذا لا تخلو الأرض من داع يدعو إلى الله، ومن اعتقد قطعه فقد قطع مئة الله، واستعجز قدرة الله، وسد باب الرحمة في وجه عباد الله، والعياذ بالله.

@ { أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّا هَادَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قلت: الهمزة - للتفريع، و { لَمَّا } : ظرف، خافضة لشروطها، منصوبة بجوابها، وهي معطوفة على محذوف، أي: أكان من كان يوم أحد، ولَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ، قلت ما قلت، و { قد أصبتم } : جملة حالية.

يقول الحقّ جلّ جلاله: أحيان { أصابتم مصيبة } يوم أحد بقتل سبعين منكم، و { قد أصبتم مثلها } يوم بدر فقتلتم سبعين وأسرتهم سبعين، { قلت أئى هذا } أي: من أين أصابنا هذا البلاء وقد وعدنا النصر؟ { قل } لهم: { هو من عند أنفسكم } أي: مما افترفته أنفسكم من مخالفة المركز، والنصر الموعود كان مشروطاً بالثبات والطاعة، فلما اختل الشرط اختل المشورط، { إن الله على كل شيء قدير }؛ فيقدر على النصر بشرط وبغيره، لكن حكمته اقتضت وجود الأسباب والشروط؛ لأن هذا العلام قائم بين قدرة وحكمة.

أو: { قل هو من عند أنفسكم } باختياركم الفداء يوم بدر: رُوِيَ عن عليّ رضي الله عنه قال: (جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال: خَيْرُ أَصْحَابِكَ فِي الْأَسَارَى، إِنْ شَاءُوا الْقِتْلَ، وَإِنْ شَاءُوا الْفِدَاءَ، عَلَى أَنْ يُقْتَلَ مِنْهُمْ عَاماً مَقْبِلاً مِنْهُمْ، قَالُوا: الْفِدَاءَ وَيُقْتَلُ مِنَّا). والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا أصاب المرید شيء من المصائب والبلايا، فلا يستغرب وقوع ذلك به، ولا يتبرم منه، فإنه في دار المصائب والفجائع، " لا تستغرب وقوع الأكدار ما دُمت في هذه الدار، فإنما أبرزت ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها ". وإذا كان أصابته



مصيبة في وقت، فقد أصابته نعمٌ جمة في أوقات عديدة، فليشكر الله على ما أولاه، وليصبر على ما ابتلاه، ليكون صابراً شكوراً.

قال الشيخ أبو الحسن - رضي الله عنه -: (العارف هو الذي عرف إساءاته في إحسان الله إليه، وعرف شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون). وأيضاً: كل ما يصيب المؤمن فمن كسب يده، ويعفو عن كثير.

وإن كان المرید وعد بالحفظ والنصر، فقد يكون ذلك بشروط خفيت عليه، فلم تحقق فيه، فيخلف حفظه لينفذ قدر الله فيه،  
{ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا }  
[الأحزاب: 38].

وليتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق.

@ { وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَليَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ } \* { وَليَعْلَمَ الَّذِينَ تَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } \* { الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قَلَّ قَادِرُوا عَن أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }  
قلت: { وقيل لهم تعالوا } : استئناف، أو معطوف على { نافقوا } ، و { الذين قالوا لإخوانهم } : بدل من الضمير المحرور في { لهم } ، أي وقيل للمنافقين: قاتلوا أو ادفعوا، ثم فسرههم بقوله: وهم { الذين قالوا لإخوانهم... } الخ. أو من الواو في { يكتمون } ، أو منصوب على الذم، أو مبتدأ، والخبر: { قل... } على من يجيز إنشاء الخبر، و { قعدوا } : جملة حالية، على إضمار قد.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { وما أصابكم } يا معشر المسلمين يوم أحد { يوم التقى } جمع المسلمين وجمع الكفار، من القتل والجرح والهزيمة، { فيا ذنَّ الله } وقضائه، لا راد لإمضائه، { وليعلم } علم ظهور في عالم الشهادة { المؤمنين } والمنافقين؛ فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء، وقد ظهر نفاقهم حيث رجعوا مع عبد الله بن أبي، وكانوا ثلاثمائة.

وذلك أنَّ ابن أبي كان رأيه ألا يخرج المسلمون إلى المشركين، فلما طلب الخروج قومٌ من المسلمين، فخرج - عليه الصلاة والسلام - كما تقدم، غضب ابن أبي، وقال: أطاعهم وعصاني. فرجع، ورجع مع أصحابه، فتبعهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام، وقال لهم: ارجعوا { قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا } ، أي: كثروا سواد المسلمين، فقال ابن أبي - رأس المنافقين - : ما أرى أن يكون قتالاً، ولو علمنا أن يكون قتال { لاتبعناكم } ، وكنا معكم.

قال تعالى: { هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان }؛ لظهور الكفر عليهم من كلامهم، فأمارات الكفر عليهم أكثر من أمارات الإيمان، أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان، لأن رجوعهم ومقاتلتهم تقوية للكفار عليهم وتخذيل للمسلمين، { يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم } ، فهم يظهرون خلاف ما

يبطنون، لا تواطئ قلوبهم ألسنتهم بالإيمان، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتغليظ، { والله أعلم } منكم { بما تكتُمون } من النفاق؛ لأنه يعلمه مفصلاً بعلم واجب، وأنتم تعلمونه مجملًا بأمرات.

وهؤلاء المنافقون هم { الذي قالوا } في شأن إخوانهم الذي قُتلوا يوم أحد: { لو أطاعونا } وجلسوا في ديارهم { ما قتلوا } ، قالوا هذه المقالة وقد قعدوا عن الخروج، { قل } لهم يا محمد: { فادْرِعُوا } أي: فادفعوا { عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين } أنكم تقدرُون أن تدفعُوا القتلَ عنكم كتب عليه، فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه حين يبلغ أجلكم، فإنه أخرى بكم، فالقعود لا يُنجي من الموت إذا وصل الأجل، فإن أسباب الموت كثيرة، فقد يكون القعود سبباً للموت إن بلغ الأجل، وقد يكون الخروج سبباً للنجاة إن لم يبلغ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وما أصابكم يا معشر الفقراء عند توجهكم إلى الحق فارين من الخلق، حين استشرفتكم على الجمع وجمع الجمع فيأذن الله؛ فإن الداخل على الله منكور، والراجع إلى الناس مبرور، وليظهر الصادق من الكاذب، فإن محبة الله مقرونة بالبلاء والطريق الموصلة إليها محفوفة بالمكاره، مشروطة بقتل النفوس وخط الرؤوس، ودفع العلائق، والفرا من العوائق.

@ فإذا قيل للعوام: قاتلوا أنفسكم في سبيل الله لتدخلوا حضرة الله، ادفعوا عن أنفسكم العلائق لتشرق عليكم أنوار الحقائق، قالوا: قد انقطع هذا الطريق واندرست أرباب علم التحقيق، ولو نعلم قتلاً بقي يُوصلنا إلى ربنا، كما زعمتم؛ لاتبعناكم ودخلنا في طريقكم. وهم للكفر يومئذ أقرب للإيمان، حيث تحكّموا على القدرة الأزلية، وسدوا باب الرحمة الإلهية، وإنما يقولون ذلك احتجاجاً لنفوسهم، وأبقاء على حظوظهم، وليس ذلك من خالص قلوبهم، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

وإذا نزل بأهل النسبة نكبة أو بلية، قالوا لأخوانهم، الذين دخلوا في طريق القوم، وقد قعدوا هم مع العوام: لو أطاعونا ولم يدخلوا في هذا الشأن، ما قتلوا أو عذبوا، فقل لهم أيها الفقير: القضاء والقدر يجري على الجميع، فادفعوا عن أنفسكم ما تكرهون، إن كنتم صادقين أن المكاره لا تصيب إلا من توجه لقتال نفسه. والله تعالى. أعلم بأسرار كتابه.

@ { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَرِّقُونَ } \* { فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } \* { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ }

قلت: { أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ } : بدل من { الذين لم يلحقوا } ، أو مفعول لأجله، وكرر: { يستبشرون } ؛ ليذكر ما تعلق به من الفضل والنعمة، أو: الأول بحال إخوانهم، وهذا بحال أنفسهم.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { ولا تحسبن } أيها الرسول، أو أيها السامع، { الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل } هم { أحياء } ؛ لأن الله تعالى جعل أرواحهم في حواصل طير خضر، يسرحون في الجنة حيث شاءوا عند ربهم، بالكرامة والزلفى، يُرزقون من ثمار الجنة ونعيمها، فحالهم حال الأحياء في التمتع بأرزاق الجنة، بخلاف

سائر الأموات من المؤمنين؛ فإنهم لا يتمتعون بالأرزاق حق يدخلوا الجنة. قاله ابن جزي.

قلت: شهداء الملكوت - وهم العارفون - أعظم قدراً من شهداء السيوف، وراجع ما تقدم في سورة البقرة.

{ فرحين بما آتاهم الله من فضله } من الكرامة والزلفى والنعيم الذي لا يفنى،  
{ ويسبشرون بالذين لم يلحقو بهم من خلفهم } أي: بإخوانهم الذي لم يُقتلوا  
فيلحقوا بهم من بعدهم. وتلك البشارة هي: { ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون } ، أو  
من أجل { ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون } .

والحاصل: أنهم يستبشرون بما تبين لهم من الكرامة في الآخرة، وبحال من تركوا  
من خلفهم من المؤمنين، وهو أنهم إذا ماتوا أو قُتلوا، كانوا أحياء، حياة لا يدركها  
خوفٌ وقوعٌ محذور، ولا حزن فوات محبوب. فالآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل  
المحسوس، بل هو جوهر مُدرك بذاته، لا ينفى بخراب البدن، ولا يتوقف على وجود  
البدن إدراكه وتألمه والتذاهه. ويؤيد ذلك قوله تعالى في آل فرعون:  
{ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا }

[عَافِر: 46]، وما روى ابن عباس من أنه صلى الله عليه وسلم قال: " أرواحُ  
الشهداء في أجواف طيرٍ حَصْرٍ، تَرُدُّ أَثْهَارَ الْجَنَّةِ، وتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وتَأْوِي إِلَى  
قَنَادِيلٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ " - قال معناه البيضاوي.

ولما ذكر استبشارهم بإخوانهم ذكر استبشارهم بما يخصهم فقال: { يستبشرون بنعمة  
من الله }؛ وهو ثواب أعمالهم الجسماني، { وفضل } وهو نعيم أرواحهم الروحاني،  
وهو النظر إلى وجهه الكريم، ويستبشرون أيضاً بكونه تعالى { لا يضيع أجر  
المؤمنين } ، ماتوا في الجهاد أو على فرشهم، حيث حسنت سيرتهم وكرمت  
علايتهم، قال صلى الله عليه وسلم: " إن لله عبداً يصرفهم عن القتل والزلازل  
والأسقام، يطيل أعمارهم في حسن العمل، ويحسن أرزاقهم، ويحييهم في عافية،  
ويميتهم في عافية على الفرش، ويعطيهم منازل الشهداء " قلت: ولعلمهم العارفون  
بالله، جعلنا الله من خواصهم، وسلك بنا مسالكهم. أمين.

الإشارة: لا تحسبن الذي بذلوا مُهْجَهم، وقتلوا أنفسهم بخرق عوائدها، وعكس  
مراداتها، في طلب معرفة الله، حتى ماتت نفوسهم، وحييت أرواحهم بشهود  
محبوبهم، حياة لا موت بعدها، فلا تظن أيها السامع أنهم أموات، ولو ماتوا حسناً،  
بل هم أحياء على الدوام، وفي ذلك يقول الشاعر:

@مَوْتُ النَّفْيِ حَيَاةٌ لَا فَتَاءَ لَهَا قَدْ مَاتَ قَوْمٌ وَهُمْ فِي النَّاسِ أَحْيَاءُ  
فهم عند ربهم يشاهدونه مدة بقائهم، يرزقون من ثمار المعارف وفواكه العلوم،  
فرحين بما أتقهم الله به من القرب والسر المكتوم، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا  
بهم في المرتبة ممن تعلق بهم وأنهم سيصلون إلى ما وصلوا إليه من معرفة  
الحي القيوم، فلا يلحقهم حينئذ خوف ولا حزن ولا هم ولا غم، لما سكن في قلوبهم  
من خمرة محبة الحبيب، والقرب من القريب المجيب، وفي ذلك يقول ابن الفارض.

وَإِنْ حَطَّرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامَتْ بِهِ الْأَفْرَاحُ، وَارْتَحَلَ الْهَمُّ

يسبشرون بنعمة أدب العبودية، وفضل شهود أسرار عظمة الربوبية، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين المحيين لطريق المخصوصين، فإن طريق محبة طريق القوم عناية، والتصديق بها ولاية، وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

ولما رجع أبو سفيان من غزوة أحد، هو وأصحابه، حتى بلغوا الروحاء، ندم وهم بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فندب أصحابه للخروج في طلبه، وقال: " لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس "، فخرج صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد - وهي على ثمانية أميال من المدينة - وكان بأصحابه القرح، فتحاملوا على أنفسهم كي لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فذهبوا.

@ { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ }

قلت: { الذين } : مبتدأ، وجملة { للذين أحسنوا } : خبر، أو صفة للمؤمنين قبله، أو نصب على المدح.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الذين استجابوا لله والرسول } فأتبعوه فيما نديهم إليه من اللحوق بالمشركين، إرهاباً لهم، { من بعد ما أصابهم القرح } أي: الجرح، فتحاملوا على أنفسهم حتى ذهبوا مع نبيهم { للذين أحسنوا منهم } بأن فعلوا ما أمروا به، { واتقوا } الله في مخالفة أمر رسوله، { أجر عظيم } يوم يقدمون عليه.

الأشارة: الذين استجابوا لله فيما نديهم من الوصول إلى حضرته، وللرسول فيما طلبهم به من اتباع سنته، فجعلوا قلوبهم محلاً لحضرته، وجوارحهم متبعة لشريعته، من بعد ما أصابهم في طلب الوصول إلى ذلك قرح وضرب وسجن وإهانة، فصبروا حتى ظفروا بالجمع بين الحقيقة والشريعة، للذين أحسنوا منهم بالثبات على السير إلى الوصول إلى الحق، واتقوا كل ما يردهم إلى شهود الفرق، أجر عظيم وخير جسيم، بالعكوف في الحضرة، والتنعيم بالشهود والنظرة.

@ { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخِشِيوهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } \* { فَأَقْلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } \* { إِنَّمَا ذَالِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }

قلت: الموصول بدل من الموصول قبله، و { يخوف } : يتعدى إلى مفعولين؛ للتضعيف، حذف الأول، أي: يخوفكم أوليائه من الكفار، أو حذف الثاني، أي: يخوف أوليائه القاعدين عن الخروج إلى ملاقات العدو.

وهنا تفسيران: أحدهما: أن يكون من تنمة غزوة أحد، وهو الظاهر، ليتصل الكلام بما بعده، وذلك أن أبا سفيان لما هم بالرجعة ليستأصل المسلمين، لقيه معبد الخزاعي، فقال له: إن محمداً خرج يطلبك في جمع لم أر مثله، فدخله الرعب، فلقبه ركب من عبد القيس يريد المدينة بالميرة، فقال لهم: ثبطوا محمداً عن لحوقنا، ولكم

حمل بعير من الزبيب، فلما لقوا المسلمين خوفوهم، فقال: { حسبنا الله ونعم الوكيل } ، ومضوا حتى بلغوا حمراء الأسد ثم رجعوا، فعلى هذا:

يقول الحقّ جلّ جلاله: { الذين قال لهم الناس { وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين: { إن الناس { يعني أبا سفيان ومن معه، { قد جمعوا لكم { ليرجعوا ليستأصلوكم { فآخشوهم { وأرجعوا إلى دياركم { فزادهم { ذلك { إيماناً { وبقيناً وتثبيتاً في الدين، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بحسب التوجه إلى الله والتفرغ مما سواه، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبيها، ويزيد أيضاً بالطاعة والنظر والاعتبار، وينقص بالمعصية والغفلة والاعتذار.

ولما قال لهم الركب ذلك؛ ليخوفهم، { قالوا حسبنا الله { أي: كافينا الله وحده، فلا نخاف غيره، { ونعم الوكيل { أي: نعم من يتوكل عليه العبد، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقى في النار، { فانقلبوا { راجعين من حمراء الأسد، متلبسين { بنعمة من الله { وهي العافية والسلامة، { وفضل { وهي زيادة الإيمان وشدة الإيقان، { لم يمسههم سوء { من جراحة وكيد عدو، { وأتبعوا رضوان الله { ، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين، { والله ذو فضل عظيم { ، فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو موجب الرضوان.

ثم حذرهم الحق تعالى ممن تبتطهم عن اللحوق بالكافر، وهو ركب عبد القيس، تشبيهاً لهم بالشیطان، فقال: { إنما ذلكم الشيطان { يخوفكم أوليائه من المشركين، أو { يخوف أوليائه { القاعدين من المنافقين { فلا تخافوهم {؛ فإن أمرهم بيدي، { وخافوا إن كنتم مؤمنين {؛ فإن الإيمان يقتضي إثارة خوف الله على خوف الناس.

التفسير الثاني: أن يكون الكلام على غزوة بدر الصغرى، وذلك أن أبا سفيان لما انصرف من أحد نادی: يا محمد، موعدنا بدرٌ لقابل، إن شئت، فقال صلى الله عليه وسلم: " إن شاء الله تعالى " ، فلما كان العام القابل، خرج أبو سفيان من أهل مكة، حتى نزل مَرَّ الظهران، فأُنزل الله الرعب في قلبه، وبدا له أن يرجع، فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعي معتمراً، فقال له: أنت المدينة وأعلمهم أئماً في جمع كثير، وتبتطهم عن الخروج، ولك عندي عشر من الإبل، فأتى المدينة فأخبرهم، فكره أصحابُ النبيّ صلى الله عليه وسلم الخروج، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: @ "والذي تَفِيسِي يَبْدِي لِأَخْرَجَنَّ، ولو وَخِدِي " فرجع الجبان وتأهب الشجعان، فخرجوا حتى أتوا بدرًا الصغرى، ورجع أبو سفيان إلى مكة، فسموا جيش السوق، ووافق المسلمون السوق بدير، وكانت معهم تجارات فباعوا وربحوا، وانصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

فعلى هذا، يقول الحقّ جلّ جلاله: { الذين استجابوا لله والرسول { ، يعني: في غزوة بدر الصغرى، لميعاد أبي سفيان، { من بعد ما أصابهم القرع { يعني: في غزوة أحد في العام الأول، { للذين أحسنوا منهم { بالخروج مع الرسول، { واتفقوا { الله في مخالفته، { أجر عظيم الذين قال لهم الناس { يعني نُعيم بن مسعود، وأطلق عليه الناس لأنه من جنسهم، كما يقال: فلان يركب الخيل، وما يركب إلا فرساً، أو: لأنه انضم إليه ناس من المدينة وأذاعوا كلامه. { إن الناس قد جمعوا لكم { يعني: أبا سفيان وأهل مكة لما خرج إلى مَرَّ الظهران. وقوله: { فانقلبوا بنعمة من

الله { أي: عافية وسلامة، { وفضل } ما أصابوا من التجارة، وقوله: { إنما ذلكم الشيطان { يعني: نعيماً يخوفكم { أوليائه } والباقي ظاهر.

الإشارة: أهل القوة من المريرين إذا قيل لهم: إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فآخشوهم، زادهم ذلك إيماناً وإيقاناً، وتحققوا أنهم على الجادة، لسلوكهم على منهاج من قبلهم؛  
{ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَأَمَّنَّا {  
[العنكبوت: 2] الآية.

واكتفوا بعلم الله ونظره وبرعايته ونصره، فانقلبوا بنعمة الشهود، وفضل الترقى في عظمة الملك الودود، لم يمسسهم في باطنهم سوء ولا نقصان، واستوجبوا من الله الرضى والرضوان، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان، فلا ينبغي لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان، الذي تُبذل في طلبه الأرواح والأبدان. وباللله التوفيق.

@ { وَلَا يَخْزِنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّاً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } \* { إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

قلت: حَزَنَ يَحْزُنُ كَبَلِغٌ يَبْلُغُ، وَأَحْزَنَ يُحْزِنُ، كَأَكْرَمَ يَكْرُمُ، لَعْتَانِ، وَالْأُولَى أَفْصَحُ.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: ولا يهولك شأن { الذين يسارعون في الكفر } أي: يبادرون إلى الوقوع فيه، كالمنافقين أو الكفار جميعاً، فلا تخف ضررهم؛ { إنهم لن يضروا الله شيئاً } أي: لن يضروا أولياء الله، وإنما يرجع ضررهم إلى أنفسهم. { يريد الله } - بسبب ما أظهر فيهم من المسارعة إلى الكفر - { ألا يجعل لهم حطاً في } ثواب { الآخرة }؛ لِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الشَّقَاءِ، حَتَّى يَمُوتُوا عَلَى الْكُفْرِ. وَفِي ذِكْرِ الْإِرَادَةِ إِشْعَارَ بَأَن كُفْرَهُمْ بَلَغَ الْغَايَةَ، حَتَّى أَرَادَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَلَّا يَكُونَ لَهُمْ حِطٌّ مِنْ رَحْمَتِهِ. { ولهم } مع ذلك { عذاب عظيم }.

ثم كرر شأنهم تأكيد فقال: { إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان } أي: استبدلوا الإيمان الذي ينجيهم من العذاب، لو دخلوا فيه، بالكفر الذي يُوجب العذاب، { لن يضروا الله ولهم عذاب أليم } موجه، أو يكون في الكفار أصالة، وهذا في المرتدين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنكار العوام على الخصوص لا يضرهم، ولا يغض من مرتبتهم، بل يزيدهم رفعةً وعلوًّا وعزًّا وقرباً، قال تعالى: { لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ { [النور: 11]، وَسَمِعْتُ شَيْخَنَا الْبُوزِيدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: " كَلَامُ النَّاسِ فِي الْوَلِيِّ كَنَامُوسَةَ نَفَخَتْ عَلَى جَبَلٍ ". أَي: لَا يَلْحَقُهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا يَلْحَقُ الْجَبَلَ مِنْ نَفْحِ النَّامُوسَةِ، يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ مِنْ نَصِيبِ الْقُرْبِ شَيْئاً، وَلَهُمْ عَذَابُ الْبَعْدِ وَالنَّصَبِ، فِي غَمِّ الْحِجَابِ وَسُوءِ الْحِسَابِ، لَا سِيَّمَا مِنْ تَمَكُّنٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ، ثُمَّ اسْتَبَدَلَ صَحْبَتَهُمْ بِصَحْبَةِ الْعَوَامِ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حَرَمَانِهِ التَّامِ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

@ { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا  
إِنَّمَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ }

قلت: من قرأ بالتحية، فالذين كفروا: فاعل، و { إن } وما بعدها: سد مسد  
المفعولين، ومن قرأ بالفوقية فالذين: مفعول أول، و { إنما } : سد مسد الثاني، و  
{ ما } : مصدرية، والإملال: الإمهال والتأخير. ومنه:  
{ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا }  
[مریم: 46].

يقول الحقّ جلّ جلاله: ولا يظنن الذين كفروا أن إمهالي لهم وإمدادهم بطول  
الحياة، هو خير لهم، إنما نمهلهم استدراجاً { ليزدادوا } إنما وعقوبة، { ولهم عذاب  
مهين } يهينهم، ويخزيهم يوم يُعز المؤمنين.

الإشارة: إمهال العبد وإطالة عمره، إن كانت أيامه مصروفةً في الطاعة واليقظة،  
وزيادة المعرفة، وإطالتها خير، والبركة في العمر إنما هي بالتوفيق وزيادة المعرفة،  
وفي الحكم: " من يورك له في عمره أدرك في يسير من الزمان ما لا تدركه  
العبرة ولا تلحقه الإشارة ". وإن كانت أيام العمر مصروفة في الغفلة والبطالة  
وزيادة المعصية، فالموت خير منها. وقد سُئل - عليه الصلاة والسلام - أيُّ الناس  
خَيْرٌ؟ قال: " مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قيل: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قال: مَنْ طَالَ  
عَمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ " والله تعالى أعلم.

ولما قال عليه الصلاة والسلام: " إِنَّ اللَّهَ أَطْلَعَنِي عَلَى مَنْ يُؤْمِنُ بِي مِمَّنْ يَكْفُرُ "  
قال المنافقون: نحن معه ولا يعرفنا.

@ { مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْرِيَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيمًا مَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا  
كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَاٰمِنُوا بِاللَّهِ  
وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ }

قلت: ما يميز، وميِّز يُميِّز، بمعنى واحد، لكن في ميِّز معنى التكثر.

يقول الحقّ جلّ جلاله: لعامة المؤمنين والمنافقين: { ما كان الله } ليترك { المؤمنين  
على ما أنتم عليه } من الاختلاط، لا يعرف مخلصكم من منافقكم، بل لا بد أن  
يختبركم حتى يتميز المنافق من المخلص، بالوحي أو بالتكاليف الشاقة، التي لا  
يصبر عليها إلا المخلصون، كبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، ليختبر به  
بواطنكم، ويستدل به على عقائدكم، أو بما ظهر في غزوة أحد من الأقوال  
والأفعال التي تدل على الإيمان أو النفاق، { وما كان الله ليطلعكم على الغيب }  
حتى تعرفوا ما في القلوب من كفر أو إيمان، أو تعرفوا: هل تَعْلَبُونَ أو تُعْلَبُونَ.  
{ ولكن الله يجتبي } لرسالته { من يشاء } ، فيوحي إليه ويخبره ببعض المغيبات،  
أو ينصب له ما يدل عليها، { فأمنوا بالله } الذي اختص بعلم الغيب الحقيقي،  
وأمنوا برسوله الذين اختارهم لأسرار الغيوب، لا يعلمون إلا ما علمهم.

رُوي أن الكفرة قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا: من يؤمن منا ومن يكفر؟  
فنزلت الآية. وقيل: سببها ما تقدم من قول المنافقين، ووجه المناسبة: هو ما صدّر

منهم يوم أُخِذَ من المقالات التي ميزتهم من المؤمنين. { وإن تؤمنوا } إيماناً حقيقياً { وتتقوا } النفاق والشرك { فلکم اجر عظیم } عند الله.

الإشارة: من سُنَّه الله في المتوجهين إليه إذا كثروا، وظهرت فيهم دعوى القوى، أرسل الله عليهم ريح التصفية، فثبت الصحيح، والخواوي تذروه الريح، وما إن الله ليذرهم على ما هم عليه من غير اختبار، حتى يميز الخبيث من الطيب، أي: مَنْ هَمَّتْهُ الله وَمَنْ هَمَّتْهُ سِوَاهُ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب حتى يعلموا من يثبت ممن يرجع، أو يعلموا ما يلحقهم من الجلال والجمال، وإنما ذلك خاص بالرسول عليهم السلام، وقد يُطلع على شيء من ذلك بعض خواص ورتتهم الكرام، فالواجب على المرید أن يُؤمن بالقدر المغيب، ولا يستشرف على الاطلاع عليه؛ " استشرأفك على ما بطن فيك من العيوب، خير من استشرأفك على ما حُجِبَ عنك من الغيوب ". { وإن تؤمنوا } بمواقع القضاء والقدر، { وتتقوا } القنوط والكدر، { فلکم اجر عظیم }.

@ { وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

قلت: من قرأ بالخطاب؛ فالموصول مفعول أول، و { خيراً } مفعول ثان، والضمير للفصل، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، ولا بد من حذف مضاف، أي: لا تحسبن بخل الذين يبخلون خيراً لهم، ومن قرأ بالغيب؛ ف { الذين } فاعل، والمفعول الأول محذوف، لدلالة { يبخلون } عليه، لا يحسبن البخلاء خيراً لهم، والطوق: ما يدار بالعنق.

يقول الحق جل جلاله: ولا يظنن { الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله } من الأموال، فلم يؤدوا زكاتهم، أن بخلهم خير لهم، { بل هو شر لهم }؛ لاستجلابه العذاب إليهم، ثم بيَّنه بقوله: { سيطوقون ما بخلوا به } أي: يلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق للعنق، وقيل: يطوق به حقيقة، لقوله عليه الصلاة والسلام: " ما من رَجُلٍ لا يؤدي زكاة ماله إلا إذا كان يوم القيامة - مُتَّلِّ له سُجَاعاً أَقْرَع، له رَبِيبَتَانِ، يَطَوَّقُهُ، ثم يأخذُ بِلَهْرَمْتَيْهِ - أي: شدقيه - يقول: أنا كَنْزُكَ، أنا مَالُكَ، ثم تلا هذه الآية: { ولا يحسبن... } " وقيل: يجعل يوم القيامة في أعناقهم طوقاً من نار.

والمال الذي بخل به هو لله، وسيرجع لله، { ولله ميراث السماوات والأرض } فهو الذي يرث الأرض ومن عليها، فكيف يبخل العبد بمال الله، وهو يعلم أنه يرجع لله، فيموت ويتركه لمن يسعد به! ولله درّ القائل، حيث قال:

يا جَامِعَ الْمَالِ كَمْ تُصَرُّ بِهِ      تَطَمَعُ بِاللَّهِ فِي الْخُلُودِ مَعَهُ  
هَلْ حَمَلَ الْمَالَ مَبِثُّ مَعَهُ؟      أَمَا تَارُهُ لِعَيْبِهِ جَمَعَهُ؟  
{ والله بما تعملون خبير } لا يخفى عليه منعكم ولا إعطاؤكم، فيجازي كلاً بعمله.

الإشارة: لا يحسبن الذي يبخلون بما آتاهم الله من فضل الرئاسة والجاه، أن يبذلوا في طلب معرفة الله، وبذلها: إسقاطها وإبدالها بالخمول، والذل لله، وإسقاط المنزلة بين عباد الله، فلا يظنون أن بخلهم بذلك خير لهم، بل هو شرُّ لهم، سيلزمون وبال ما بخلوا به يوم القيامة، حين يرون منازل المقربين كالشمس الضاحية في أعلى



عليين، وهم مع عوام أهل اليمين، محجوبون عن شهود رب العالمين، إلا في وقت مخصوص وحين. { لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقَوْلُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } \* { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } \* { الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا إِلَّا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ }

قلت: { وقتلهم } معطوف على { ما } المفعولة أو النائية عن الفاعل، على القرائتين رفعا ونصبا، و { أن الله } عطف على { ما } أي: ذلك العذاب بسبب ما قدمتم وبأن الله منتف عن الظلم، فلا بد أن يعاقب المسيء ويشيب المحسن، { الذين قالوا إن الله عهد إلينا } صفة للذين { قالوا إن الله فقير }، أو بدل منه مجرور مثله.

يقول الحق جلّ جلاله: { لقد سمع الله قول { اليهود } الذين قالوا إن الله فقير ونحن إغنياء } وقائله: فَنَحَاصُ بْنُ عَازِرٍ، في جماعة منهم، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب مع أبي بكر إلى يهود بن قينقاع، يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرصاً حسناً، فدخل أبو بكر رضي الله عنه مَدْرَاسَهُمْ، فوجد خلقاً كثيراً اجتمعوا إلى فنحاص، وهو من علمائهم - ومعه حبر آخر اسمه: (أيشع)، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عند الله، فأسلم وصدّق، وأقرض الله قرصاً حسناً يدخلك الجنة، فقال فنحاص لعنه الله: يا أبا بكر! تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، وما يستقرض إلا الفقير من الغني، ولو كان غنياً ما استقرض، فطمه أبو بكر رضي الله عنه وقال: لولا ما بيننا من العهد لضربت عنقك، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: عليه الصلاة والسلام: - " ما حملك على ما فعلت؟ " فقال: يا رسول الله، إن عدو الله قال قولاً قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير، وهم أغنياء، فجدد ما قال، فنزلت الآية؛ تكذيباً له.

والمعنى: أن الله سمع مقاتلهم الشنيعة، وأنه سيعاقبهم عليها، ولذلك قال: { سنكتب ما قالوا } أي: سنسطرها عليهم في صحائف أعمالهم، أو سنحفظها في علمنا ولا نهملها، لأنها كلمة عظيمة، فيها الكفر بالله والاستهزاء بكتاب الله وتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك نظمت مع قتلهم الأنبياء، حيث عطفه عليه، وفيه تنبيه على أن قولهم الشنيع ليس هو أول جريمة ارتكبوها، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء لم يستبعد أمثال هذا القول منه.

ثم ذكر عقابهم، فقال: { ونقول } لهم يوم القيامة: { ذوقوا عذاب الحريق } أي: المُحْرِق، والذوق: يطلق على إدراك المحسوسات كالمطعمات، والمعنويات كما هنا، وذكره هنا؛ لأن عذابهم مرتب على قولهم الناشئ عن البخل، والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إليه، لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله للخوف من فقده.

{ ذلك } العذاب بسبب ما { قدمت أيديكم } من قتل الأنبياء، وقولكم هذا، وسائر معاصيكم، وعير بالأيدي؛ لأن غالب الأعمال بهن، وبأن { الله ليس بظلام للعبيد } بل يجازي كل عبد بما كسب من خير أو شر، فأنتم ظلمتم أنفسكم.

@ ثم إن قوماً منهم، وهو كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وحَيِّي بن أخطب وفتحاص ووهب بن يهودا، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد؛ تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً، وإن الله قد عهد إلينا يف التوراة، ألا نؤمن لرسول يزعم أنه نبي حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك، فأنزل الله فيهم تكذيباً لهم: {الذين قالوا إن الله عهد إلينا { في التوراة وأوصانا { ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان {؛ كصدقة أو نسيكة، { تأكله النار { كما كانت لأنبيا بني إسرائيل.

وذلك أن القرابين والغنائم كانت حراماً على بني إسرائيل، وكانوا إذا قُربوا قُرباناً، أو غنموا غنيمة، فتقبل منهم، ولم يُغل من الغنيمة، نزلت نار بيضاء من السماء، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة، فيكون ذلك علامة على القبول، وإذا لم يتقبل بقي على حاله، وهذا من تعنتهم وأباطيلهم، لأن أكل القربان لم يُوجب الإيمان إلا لكونه معجزة، وسائر المعجزات في ذلك سواء، فلذلك ردَّ عليهم بقوله: { قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات { أي: المعجزات الواضحات، { وبالذي قلت { من أكل النار القربان، فكذبتموهم وقتلتموهم كزكريا ويحيى وغيرهما، { فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين { في دعواكم أنه ما منعكم من الإيمان إلا عدم ظهور هذه المعجزة، فما لكم لم تؤمنوا بمن جاء بها حتى قتلتموه؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما زالت خواص العامة مولعةً بالإنكار على خواص الخاصة، يسترقون السمع منهم، إذا سمعوا كلمة لم يبلغها علمهم، وفيها ما يوجب النقص من مرتبتهم، حفظوها، وحرفوها، وأذاعوها، يريدون بذلك إطفاء نورهم، وإظهار عُوراهم، والله حفيظ عليهم، سيكتب ما قالوا وما قصدوا من الإنكار على أوليائه، ويقول لهم: ذوقوا عذاب البعد والحجاب. وما يتشبثون به في الإنكار عليهم: اقتراحهم الكرامات التي كانت للأولياء قبلهم، ويقولون: لا نصدق بهم حتى يأتون بما أتى به فلان وفلان، فقد كان من قبلهم يطعنون فيهم مع ظهور ذلك عليهم، كما هو سنة الله فيهم. { والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم {

@ { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {

قلت: { الزبر { جمع زبور، بمعنى مزبور، أي: مكتوب، من زبرت، أي: كتبت، وكل كتاب فهو زبور، وقال امرؤ القيس:

لَمَنْ طَلَّلَ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي كَحَطِّ زَبُورٍ فِي عَسِيْبٍ يَمَانٍ  
يقول الحقُّ جلُّ جلاله: في تسلية رسوله - عليه الصلاة والسلام - من تكذيب اليهود وغيرهم له: { فإن كذبوك { فليس ذلك ببدع؛ { فقد كُذبت رسل { مثلك { من قبلك { جاءوا قومهم بالمعجزات البينات، وبالكتب المنزلات، فيها مواضع زاجرات، { وبالكتاب المنير { المشتمل على الأحكام الشرعية.

الإشارة: كما كُذبت الأنبياء كُذبت الأولياء، بعد أن ظهر عليها من العلوم الباهرة والحكم الظاهرة والكرامات الواضحة، وأعظمها المعرفة، وهذه سنة ماضية، ولن تجد سنة الله تبديلاً.

@ { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ إِجْرَاطِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ {

قلت: { زحرج { بوعِدَّ، والزحرجة: الجذب والإخراج بعجلة.

يقول الحقّ جلّ جلاله: كل نفس منفوسة لا بد أن تذوق حرارة الموت، وتسقى كأس المنون، وإنما توفون جزاء أعمالكم يوم القيامة، يوم قيامكم من القبور، خيراً كان أو شراً.

قال البيضاوي: ولفظ التوفية يشعر بأنه قد يكون قبلها بعض الأجور، أي: توفية بعض الأجور، ويؤديه قوله صلى الله عليه وسلم: " الْقَبْرِ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ " ، { فمن زحج { أي: بُوعِدَ { عن النار وأدخل الجنة فقد فاز } بالنجاة ونيل المراد، وعنه صلى الله عليه وسلم: " من أحب أن يزحج عن النار ويدخل الجنة؛ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وهو يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي، إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ " .

{ وفيها الحياة الدنيا } وزخارفها ولذاتها { إلا متاع الغرور }؛ فإن الغار - وهو المُدلس - يظهر ما هو حسن من متاعه، ويخفي ما هو معيب، كذلك الدنيا تنتهج لطالبيها، وتُظهر له حلاوتها وشهواتها، حتى تشغله عن ذكر الله وعين طاعته، فيؤثرها على آخرته، ثم يتركها أحوج ما يكون إليها، فينقلب نادماً متحسراً، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَمَنْ يَحْمَدِ الدُّنْيَا لِشَيْءٍ يَسِرْهُ فَسَوْفَ لِلْعُسْرِ عَنْ قَرِيبٍ يَلُومُهَا  
إِذَا أَدْبَرْتَ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وَإِنْ أَقْبَلْتَ كَانَتْ كَثِيراً هُمُومُهَا  
الإشارة: النفس، من حيث هي، كلها تقبل الموت لمن قتلها وجاهدتها، وإنما وقع التفريط من أربابها، فمن زحجها عن نار الشهوات، وقتلها بسيوف المخالفات، حتى أدخلها جنات الحضرات، فقد فاز فوزاً عظيماً، وريح ربحاً كريماً. وبالله التوفيق.  
@ { لَتُئْلِفُونَ فِيهَا أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ }

قلت: أصل { تبلون }؛ تُبلون كُتُنصرون، ثم قلبت الواو ألفاً، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فصارت تبلون، ثم أكد بالنون، فاجتمع ثلاث نونات، حذفت نون الرفع فالتقى ساكنان؛ الواو ونون التوكيد، فحركت الواو بالضممة المجانسة، وهي النائب عن الفاعل.

يقول الحقّ جلّ جلاله: والله { لتبلون } أي: لتختبرن { في أموالكم }؛ بما يصيبها من الآفات، وما كُلفتم به من النفقات، { وأنفسكم }؛ بالقتل والجراحات، والأسر والأمراض وسائر العاهات. { ولتسمعن من الذين أتوا الكتاب من قبلكم }؛ اليهود { ومن الذين أشركوا } ، كفار مكة، { أذى كثيراً } كقولهم: إن الله فقير، وهجاء الرسول - عليه الصلاة والسلام -، والطعن في الدين، وإغراء الكفرة على المسلمين، أو غير ذلك من الأذى، أَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ قَبْلَ وَقُوعِهِ، لِيَتَأَهَّبُوا لِلصَّبْرِ والاحتمال، حتى لا يروغهم نزولها حين الإنزال. { وتتقوا } الله فيما أمركم به، { فإن ذلك من عزم الأمور } أي: من معزومات الأمور التي يجب العزم عليها، أو مما عزم الله على فعلها، وأوجبها على عباده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من دخل في طريق الخصوص بالصدق والعزم على الوصول، لا بد أن يُبتلى ويختبر في ماله ونفسه، ليظهر صدقه في طلبه، ولا بد أن يسمع من الناس أذى كثيراً، فإن صبر ظفر، وإن رجع خسر، وهذه سنة الله في عباده:

{ وَتَبَلَّوْكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُؤُوا أَخْبَارَكُمْ } [مَحَمَّد: 31]، قال الورتجي: { لتبلون في أموالكم }؛ بجمعها ومنها والتقصير في حقوق الله فيها، { وأنفسكم }؛ باتباع شهواتها، وترك رياضتها، وملازمتها أسباب الدنيا، وخلوها من النظر في أمر الميعاد، وقيل: { لتبلون في أموالكم }؛ بالاشتغال بها أخذاً وإعطاءً.هـ.

@ { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُوهُ فَتَبْدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ } {

قلت: الضمير في { نبذوه }؛ يعود على الكتاب، أو الميثاق.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { و } اذكر { إذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب } وهم اليهود، أخذ عليهم العهد ليبين للناس ما في كتابهم من صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا يكتُمونه، فنبدوا ذلك العهد أو الكتاب { وراء ظهورهم }؛ فكتُموا صفته - عليه الصلاة والسلام - خوفاً من زوال رئاستهم، { واشتروا } بذلك العهد، أي: استبدلوا به { ثمناً قليلاً } من حطام الدنيا، وما كانوا يأخذونه من سفلتهم، { فبيس ما يشترون }، وهي تجر ذيلها على من كتم علماً سئل عنه، قال عليه الصلاة والسلام: " مَنْ كَتَمَ عِلْماً عَنِ أَهْلِهِ أَلْجَمَ بِلِجَامٍ مِنْ تَارٍ " وعن عليّ رضي الله عنه: (ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعلموا). وقال محمد بن كعب: (لا يحل للعالم أن يسكت على علمه، ولا الجاهل أن يسكت على جهله).

الإشارة: أهل العلم إذا تحققوا بوجود الخصوصية عند ولي، وكتُموا ذلك حسداً وخوفاً على زوال رئاستهم، دخلوا في وعيد الآية؛ لأنّ العوام تابعون لهم، فإذا كتُموا أو أنكروا تبغّوهم على ذلك، فيحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم، والله تعالى أعلم.

@ { لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَارِفَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } \* { وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } {

قلت: من قرأ بالخطاب، فالذين: مفعول أول، والثاني: محذوف، أي: بمفازة من العذاب، أو هو المذكور، و { تحسبنهم }؛ تأكيد للفعل الأول، ومن قرأ بالغيب، فالذين: فاعل، والمفعولان: محذوفان، دلّ عليهما ذكرهما مع الثاني، أي: لا يحسبوا أنفسهم فائزة. { فلا تحسبنهم }؛ من قرأ بفتح التاء؛ فالخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام -، والفعل مبني، ومن قرأ بالياء؛ فالخطاب للذين يفرحون، والفعل معرب، أي: لا يحسبن أنفسهم بمفازة من العذاب.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { لا تحسبن } يا محمد { الذين يفرحون بما أتوا } أي: بما فعلوا من التدليس وكتمان الحق، { ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا } من الوفاء بالعهد، وإظهار الحق، والإخبار بالصدق، أنهم فائزون من العذاب، فلا تظنهم { بمفازة من العذاب }، بل { لهم عذاب أليم } موجه، { ولله ملك السماوات والأرض }؛ إن شاء عذب وإن شاء رحم، { والله على كل شيء قدير } فلا يعجزه

من ذلك شيء، أو: لا يظن الذي يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، فلا يحسبون أنفسهم بمفازة من العذاب.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أنها نزلت في المنافقين، كانوا إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم تخلفوا، وإذا قدم اعتذروا، فإذا قيل عذرهم فرحوا، وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا). وما تقدم في التوطئة هو عن ابن عباس. وقال ابن حجر: ولا مانع من أن يتناول الآية كل من أتى بحسنة وقرح بها قرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويشنوا عليه بما ليس فيه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا يظن أهل الفرق الذين يسندون الأفعال إلى أنفسهم، غائبين عن فعل ربهم، ويحبون أن يحمدهم الناس ويمدحهم بفعل غيرهم، أنهم فائزون عن عذاب الفرق، وحجاب العجب، إذ لا فاعل سوى الحق، فمن تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك، فإن فرح العبد بالطاعة من حيث ظهورها عليه، وهي عنوان العناية - ورأى نفسه فيها كالأية، معزولاً عن فعلها، محمولاً بالقدرة الأزلية فيها، فلا بأس عليه، ويزيد بذلك تواضعاً وشكراً، وإن فرح بها من حيث صدورها منه، ويتبجح بها على عباد الله، فهو عين العجب، وفي الحكم: " لا تُفرحك الطاعة من حيث إنها صَدَرَتْ منك، وإفرح بها من حيث إنها هدية من الله عليك؛ { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلِكْ فَلْيَفْرَحُوا } [يونس: 58] "

@ { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ }

يقول الحق جل جلاله: { إن في خلق السماوات والأرض { وأظهارهما للعيان، لدلائل واضحة على وجود الصانع، وكمال قدرته، وعلمه، لذوي العقول الكاملة الصافية، الخالصة من شوائب الحس والوهم. قال البيضاوي: ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية؛ لأن مناط الاستدلال هو التغير، وهذه متعرضة لجملة أنواعه، فإنه - أي التغير - إما أن يكون في ذات الشيء، كتغير الليل والنهار، أو جزئه، كتغير الناميات بتبدل صورها، أو لخارج عنها، كتغير الأفلاك بتبدل أوضاعها، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: " وَيَلُّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا " .

الإشارة: الخلق هو الاختراع والإظهار، فأظهار هذه التجليات الأربعة يدل على الحق - تعالى - تجلى لعباده بين الضدين، بين النور والظلمة، بين القدرة والحكمة، بين الحس والمعنى، وهكذا خلق من كل زوجين اثنين، ليقع الفرار من إثنية حسهما إلى فردية معنهما، ففرّوا إلى الله، فالسماوات والنهار نورانيان، والأرض والليل ظلمانيان، ففي ذلك دلالة على وحدة المعاني، فلا تقف مع الأواني، وحُض بحر المعاني، لعلك تراني. وبالله التوفيق.

@ { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّيًا مَا خَلَقَتْ هَٰذَا بَاطِلًا سِحًّا نَّكَ فَعِنَّا عَذَابِ النَّارِ } \* { رَبَّنَا إِنَّا أَلَمَّا نَدْعُكَ مِنَ الْأَرْضِ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } \* { رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبِرَارِ } \* { رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَمَا رُسُلِكَ وَلَا نُحْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ }

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: في وصف أولي الألباب: هم { الذين يذكرون الله قياماً وعوداً وعلى جنوبهم } ، أي: يذكرونه على الدوام، قائمين وقاعدين ومضطجعين، وعنه - صلى الله عليه وسلم - : " من أراد أن يزيح في رياض الجنة فليكثر ذكر الله " وقيل: يُصلون على الهيئات الثلاث، حسب الطاعة لقوله عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين، وكان مريضاً: " صلَّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك وتومئ إيماء " .

{ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض } استدلالاً واعتباراً، وهو أفضل العبادات قال صلى الله عليه وسلم: " لا عبادة كالتفكير " ؛ لأن المخصوص بالقلب، والمقصود من الخلق، وعنه صلى الله عليه وسلم: " بينما رجلٌ مُسْتَلِقٌ على فراشه فَنَظَرَ إلى السماء والنجوم، فقال: أشهدُ أن لك خالقٌ، اللهم اغفر لي، فَنَظَرَ اللهُ إليه فَعَفَرَ لَهُ " وهذا دليل واضح على شرف علم الأصول وفضل أهله. قاله البيضاوي. وسيأتي مزيد من كلام على التفكير في الإشارة إن شاء الله.

فلما تفكروا في عجائب المصنوعات، قالوا: { ربنا ما خلقت هذا باطلاً } أي: عبثاً من غير حكمة، بل خلقته لحكمة بدیعة، من جملتها: ان يكون مبدأ لوجود الإنسان، وسبباً لمعاشه، ودليلاً يدلّه على معرفتك وبعثه على طاعتك، لينال الحياة الأبدية، والسعادة السرمدية في جوارك، { سبحانك } تنزيهاً لك من العبث وخلق الباطل، { فقَتَا عذابَ النار } التي استحقها من أعرض عن النظر والاعتبار، وأخلّ بما يقتضيه من أحكام الواحد القهار، { وما للظالمين من أنصار } يمنعونهم من دخول النار. ووضع المظهر موضع المضمّر؛ للدلالة على أن ظلمهم سبب لإدخالهم النار، وانقطاع النصرة عنهم في دار البوار.

{ ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان } ، وهو الرسول العظيم الشأن، أو القرآن؛ قائلاً: { أن آمنوا بربكم } ووجوده، فأجبنا نداءه وأمنّا، { ربنا فاغفر لنا ذنوبنا } الكبائر، { وكفر عنا سيئاتنا } الصغائر، { وتوفنا مع الأبرار } المصطفين الأخيار، مخصوصين بصحبتهم، معدودين في زميرتهم، وفيه تنبيه على أنهم يُحبون لقاء الله فأحب الله لقاءهم، { ربنا وأتانا ما وعدتنا على } تصديق { رسلك } من الثواب، أو على السنة رسلك من الفضل والرحمة وحسن الهبّ، سألوها ما وعدوا على الامتثال، لا خوفاً من إخلاف الوعد بل مخافة ألا يكونوا موعودين لسوء عاقبة، أو قصور في الامتثال، أو تعبدًا، أو استكانة. قاله البيضاوي.

{ ولا تخزنا يوم القيامة } أي: لا تُهتأ بسبب تقصيرنا، { إنك لا تخلف الميعاد } بإثابة المؤمن وإجابة الداعي، أو ميعاد البعث والحساب، وتكرير { ربنا }؛ للمبالغة في الابتهاال، والدلالة على استقلال المطالب وعلو شأنها، ففي بعض الآثار: (من حربه أمر فقال خمس مرات: " ربنا " ، أنجاه الله مما يخاف).@ قاله البيضاوي.

الإشارة: قدّم الحق الذكر على الفكر على ترتيب السير، فإن المرید يُؤمّر أول أمره بذكر اللسان، حتى يفضي إلى الجنان، فينتقل الذكر إلى القلب، ثم إلى الروح، وهو الفكر، ثم إلى السر، وهو الشهود والعيان، وهنا يخرس اللسان، ويغيب الإنسان في أنوار العيان، وفي ذلك يقول القائل:

مَا إِنْ ذَكَرْتُكَ إِلَّا هَمَّ يَلْعَنُنِي  
حَتَّى كَأَنَّ رَقِيبًا مِنْكَ يَهْتَفُ بِي: إِيَّاكَ: وَنَحْكَ وَالتَّذْكَارَ! إِيَّاكَ!  
أَمَا تَرَى الْحَقَّ قَدْ لَاحَتْ سَوَاهِدُهُ وَوَأَصَلَ الْكُلَّ مِنْ مَعْنَاهُ مَعْتَاكَ  
فإذا بلغ العبد هذا المقام - الذي هو مقام الأفراد - اتحدت عنده الأوراد، وصار ورداً واحداً، وهو عكوف القلب في الحضرة بين فكرة ونظرة، أو أفراد القلب بالله، وتغيبه عما سواه.

قال في الإحياء في كتاب الأوراد: الموحد المستغرق الهم بالواحد الصمد، الذي أصبح وهمومه هم واحد، فلا يحب إلا الله، ولا يخاف إلا منه، ولا يتوقع الرزق من غيره، ولا ينظر في شيء إلا يرى الله فيه، فمن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة، لم يفتقر إلى ترتيب الأوراد واختلافها، بل ورده بعد المكتوبات ورد واحد، وهو حضور القلب مع الله في كل حال، فلا يخطر بقلبه أمر، ولا يقرع سمعه قارع، ولا يلوح لنظره لائح، إلا كان له فيه عبرة وفكرة ومزید، فلا محرك ولا مسكن إلا الله. فهؤلاء جميع أحوالهم تصلح أن تكون سبباً لازديادهم، فلا تتميز عندهم عبادة عن عبادة، وهم الذين فرّوا إلى الله كما قال تعالى: { ففرّوا إلى الله }، وتحقق فيهم قوله: { إني ذاهب إلى ربي }، وهذه الدرجة منتهى درجة الصديقين، ولا ينبغي أن يغتر المرید بما يسمعه من ذلك، فيدعيه لنفسه، ويفتر عن وظائف عباداته، فذلك علامته ألا يحس في قلبه وسواساً، ولا يخطر بقلبه معصية، لا يزعه هواجم الأحوال، ولا يستفزه عظام الأشغال، وأنى تكون هذه المرتبة! هـ.

قلت: قوله: [لا يخطر بقلبه معصية] غير لازم؛ لأن قلب العارف مرسى للتجليات النورانية والظلمانية لكنها تقل ولا تسكن.

وقال في موضع آخر: وأما عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه؛ حُباً لجلاله وجماله، وسار الأعمال تكون مؤكداً. قال: والعامل لأجر الجنة؛ درجته درجة البُله، وإنه لينالها بعمله؛ إذ أكثر أهل الجنة البله. هـ. وقال في كتاب كيمياء السعادة: وقد غلط من ظن أن وظائف الضعفاء كوظائف الأقوياء، حتى قال بعض مشايخ الصوفية: من رأني في الابتداء، قال: صار صديقاً، ومن رأني في الانتهاء، قال: صار زنديقاً، يعني أن الابتداء يقتضي المجاهدة الظاهرة للأعين بكثرة العبادات، وفي الانتهاء يرجع العمل إلى الباطن، فيبقى القلب على الدوام في عين الشهود والحضور، وتفتر ظواهر الأعضاء، فيظن أن ذلك تهاون بالعبادة، وهيئات هيئات!!، فذلك استغراق لمخ العبادات ولبابها وغياتها، ولكن أعين الخفافيش تكل عن درك نور الشمس.

@ قال شيخ شيوخنا - سيدي عبد الرحمن العارف - بعد نقل كلام القشيري في هذا المعنى: وما أشار إليه ظاهر في أن أهل القلوب لا يتعاطون كل طاعة. وإنما يتعاطون من الطاعات ما يجمعهم ولا يفرقهم. ولذلك قال الجنيد: أحب للصوفي ألا يقرأ ولا يكتب؛ لأنه أجمع لهم، قال: وأحب للمرید ألا يشتغل بالتكسب وطلب الحديث؛ لئلا يتغير حاله. هـ. قلت: ومن رزقه الله شيخ التربية فما عيَّنه له فهو عين ذكره، يسير به كيفما كان.

هذا ما يتعلق بحال الذكر الذي قدّمه الله تعالى، وأما التفكير فهو أعظم العبادات وأفضل القربات، هو عبادة العارفين ومنتهى المقربين. وفي الخبر: " تفكّر سَاعَةً أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةٍ سَبْعِينَ سَنَةً ".

وقال الجنيد رضي الله عنه: أشرف المجالس وأعلاها: الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر لحسن الظن بالله تعالى. ثم قال: يا لها من مجالس، ما أجلها، ومن شراب ما أذو، طوبى لمن رزقه. وقال القشيري رضي الله عنه التفكر نعت كل طالب، وثمرته: الوصول بشرط العلم، فإذا سلم الفكر عن الشوائب ورد صاحبه على مناهل التحقيق. هـ.

وسئلت زوجة أبي ذر عن عبادة زوجها، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر. وكذلك زوجة أبي بكر قالت: كان ليله أجمع في ناحية يتفكر. وكذا زوجة أبي الدرداء، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول: طوبى لمن كان قلبه ذكراً وصمته تفكراً، ونظيره عبرة. وقال الحسن رضي الله عنه: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو. هـ. وقال في الحكم: " ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة ". وقال أيضاً: " الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له ". وقال أيضاً: " الفكرة فكرتان؛ فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار ".

وفكرة الشهود والعيان هي عبادة العارفين، ولا يُحصر ثوابها في ستين ولا في سبعين، بل وقت منها يعدل ألف سنة، كما قال الشاعر:

كَلُّ وَفَتْ مِنْ حَبِيبِي قَدْرُهُ كَأَلْفِ حَجَّةٍ  
فَأَوْقَاتِ هَؤُلَاءِ كُلِّهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا الْمَقَامَ فَلْيَبِكْ عَلَى نَفْسِهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَمَنْ ظَفَرَ بِهَا وَنَالَهَا حَقَّ لَهُ الْهِنَاءُ، وَفِي أَمْثَالِهِ قَالَ الْقَائِلُ:

هُمُ الرَّجَالُ وَعَبْنُ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصَفِيهِمْ رَجُلٌ  
حققنا الله بمقامهم، وسقانا من منالهم، آمين.

وقوله: { ربنا ما خلقت هذا باطلاً } بل هو ثابت بإثباتك، مَمْحُوٌّ بأحدية ذاتك، فالباطل محال، وكل ما سواه باطل، كما قرره الرسول - عليه الصلاة والسلام. وقوله: { ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا } أي: كنا في الرعي الأول من أهل الإيمان، فجعل لنا سبيلاً إلى مقام الإحسان، { ربنا وآتانا ما وعدتنا } وهو الوصول إلى العيان. وبالله التوفيق.

@ { فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ دَكَرَ أَوْ أُتِيَ بِعَصِيكُمْ مِّنْ بَعْضِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لِأَكْفَرَنَّ عَنْهُمْ سَبِيلَاتِهِمْ وَلَدْخَلْتَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَاباً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ }

قلت: { استجاب } أخص من أجب، لأن استجاب مُستلزم لفعل ما طلب منه، وأجاب يصدق بالوعد، ويتعدى بنفسه وباللام، و { بعضكم من بعض } جملة معترضة. قاله البيضاوي فانظره.

يقول الحقُّ جلَّ جلاله: { فاستجاب لهم ربهم } فيما طلبوه؛ لأنه لا يرد السؤال، ولا تخيب لديه الآمال، ولذلك قال: { أني } أي: بسبب { أني لا أضيع عمل عامل منكم



من ذكر أو أنثى {؛ لأنكم { بعضكم من بعض }؛ لأن الذكر من الأنثى، والأنثى من الذكر، ولأنهما من أصل واحد، ولفظ الاتصال والاتحاد والاتفاق في الدين.

رُوي " أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنِي أَسْمَعُ اللَّهَ يَذْكُرُ الرِّجَالَ فِي الْهَجْرَةِ وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ، فَنَزَلَتْ: { مَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى } [آلِ عِمْرَانَ: 195] الخ.

ثم فصل أعمال العمال، وما أعد لهم من الثواب فقال: { فالذين هاجروا { دار الشرك، وفارقوا الأوطان والأصحاب والعشائر، { وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي { بسبب إيمانهم بالله، { وقتلوا { الكفار، و { قتلوا { أي: ماتوا في الجهاد، وقرئ بالعكس؛ لأن الواو لا ترتب، أو قتل بعضهم، وقاتل الباقون ولم يضعفوا، { لأكفرن عنهم سيئاتهم { أي: لأمحونها، { ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله { أي: أشبههم من عند الله تفضلاً وإحساناً، { والله عنده حسن الثواب { لا يعجزه شيء.

الإشارة: لما توجهوا إليه بهمهم العلية، وعزائمهم القوية، ففرعوا بابه بدوام ذكره، والتفكر في عظمة ذاته، وجميل إحسانه وبره، وتضرعوا إليه بلسان الذل والانكسار، وحال الخضوع والاضطرار، أجابهم ففتح في وجوههم الباب، وأدخلهم في حضرته مع الأحباب، لأنه يجيب السؤال، ولا يخيب الآمال، بعد أن هاجروا الأوطان، وفارقوا العشائر والإخوان، إلا من يزيد بهم إلى الرحمن، فقاتلوا نفوسهم حتى ماتت فحييت بالوصال، إلى جوار الكبير المتعال، قال الشاعر:

إِنْ تُرِدْ وَصَلْنَا فَمَوْتِكَ شَرْطٌ لَا يَتَّالُ الْوَصَالَ مَنْ فِيهِ قَصَلُهُ  
فمحا عن عين بصائرهم سيئات الأغيار، وطهر قلوبهم من درن الأكدار، حتى دخلوا جنة المعارف، التي لا يحيط بوصفها وصف واصف، تجري من تحتها أنهار العلوم، وتنفذ منها مخازن الفهوم، ثواباً من عند الحي القيوم والله تعالى أعلم.  
@ { لَا يَعْزَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ } \* { مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئسَ المهادُ } \* { لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ }

قلت: النزل - ويسكن - ما يقدم للنازل من طعام وشراب وصله، وانتصابه: على الحال من { جنات } ، والعامل فيه: الظرف، أو على المصدر المؤكد، أي: أنزلوها نزلاً.

يقول الحق جل جلاله: { لا يغرنك { أيها السامع أو أيها الرسول، والمراد: تشبته على ما كان عليه، كقوله: { فلا تطع المكذبين } ، أي: دم على ما أنت عليه من عدم اغترارك بظاهر ما ترى عليه الكفار من البسط في الدنيا، والتقلب فيها بالتجارات والزراعات، وما هم عليه من الخصب ولين عيش، فإن ذلك { متاع قليل } بلغة فانية، ومتمعة زائلة، وظلال أفلة، وسجابة حائلة. قال صلى الله عليه وسلم: " ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبغ في اليم، فليُنظر يَمَ بَرَجِعَ " فلا بد أن يرحلوا عنها قهراً، { ثم ماوَاهم { أي: مصيرهم { جهنم وبئس المهاد { ما مهدوا لأنفسهم.

والمعتبر عند الأكياس هو ما أعد الله للمتقين من الناس، قال تعالى: { لكن الذين اتقوا ربهم { وخافوا عقابه، { لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها { ،

هياً ذلك لهم وأعدّه { نزلاً من عند الله } هذا النزول الذي يقدم للضيف، وأما ما أعد لهم بعد النزول فلا يُعتبر عن لسان، ولذلك قال: { وما عند الله } من النعيم الذي لا يفنى، جسماني وروحاني، { خير للأبرار } مما ينقلب إليه الفجار. قيل: حقيقة البر: هو الذي لا يؤدي الذر.

الإشارة: لا يغرنك أيها الفقير ما ترى عليه أهل الدنيا من اتخاذ المنازل المشيدة، والفرش الممهدة، فإن الدنيا متاعها قليل، وعزيزها قليل، وغنيها فقير، وكبيرها حقير، واعتبر بحال نبيك - عليه الصلاة والسلام.

قال أنس رضي الله عنه: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ مَرْفَلٍ بِالشَّرِيطِ - أي: مضمفون به - وَتَحْتَ رَأْسِهِ وَسَادَةٌ مِنْ أَدَمَ، حَسَنُوهَا لَيْفٌ، فَدَلَّ عَلَيْهِ عَمْرٌ، وَانْحَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْحِرَافَةً، فَرَأَى عَمْرَ الشَّرِيطِ فِي جَنَبِهِ، فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَا يُبْكِيكَ يَا عَمْرُ ؟ " فَقَالَ: مَا لِي لَا أَبْكِي وَكِسْرَى وَقِيَصْرُ يَعِيشَانِ فِيمَا يَعِيشَانِ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ عَلَى الْحَالِ الَّذِي أَرَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا عَمْرُ أَمَا تَرَضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ " رواه البخاري.

وانظر ما أعدّ الله للمتقين الأبرار، الذين صبروا قدر ساعة من نهار، فأفضوا إلى جوار الكريم الغفار في دار القرآن، { وما عند الله خير للأبرار } ، ولا سيما العارفين الكبار. قال الورتجي: بين الحق - تعالى - رفعة منزل المتقين في الجنان، ثم أنهم لطائف العناية بقوله: { وما عند الله خير للأبرار } أي: ما عنده من نعيم المشاهدة، ولطائف القربة، وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من نعيم الجنة، وأيضاً: صرح في هذه الآية ببيان مراتب الولاية، لأنه ذكر المتقين، والتقوى: تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفة، وذلك درجة الأولى من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبين أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. هـ.

@ { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لَهُ لَا يَسْتُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً أَوْلَائِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }

يقول الحقّ جلّ جلاله: { وإن من أهل الكتاب }؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه ممن أسلم من اليهود، { لمن يؤمن بالله } إيماناً حقيقياً، { وما أنزل إليكم } من القرآن، { وما أنزل إليهم } من التوراة، حال كونهم { خاشعين لله } خاضعين مخبتين وافين بالعهد، { لا يشترون بآيات الله تمناً قليلاً } ، كما فعل المحرفون من أحبار اليهود، { أولئك لهم أجرهم عند ربهم } أي: ما وعدوا به من تضعيف أجرهم مرتين، { إن الله سريع الحساب }؛ فيُسرع إلى توفية أجورهم وإكرام منقلبهم؛ لأن الله عالم بالأعمال وما تستوجه من النوال، فلا يحتاج إلى تأمل ولا احتياط؛ لأنه غني عن التأمل والاحتياط.

وقيل: نزلت في النصارى: أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا. وقيل: نزلت في النجاشي، لما تعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج - عليه الصلاة والسلام -، وصلى عليه،

فقال المنافقون: انظروا إلى هذا، يصلي على عِلجٍ نصراني، فنزلت الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد رأينا بعض الفقهاء حصل لهم الإيمان بخصوص أهل زمانهم، بتحقيقوا بولايتهم، ونالوا شيئاً من محبتهم، لكن لم تساعفهم الأقدار في صحبتهم، فظهرت عليهم آثار أنوارهم، واقتبسوا شيئاً من أسرارهم، فتنوّرت سريرتهم، وكملت شريعتهم، وأظهر عليهم آثار الخشوع، وأخذوا خطأً من التواضع والخصوع، متخليين بالقناعة والورع، قد ذهب عن قلوبهم ما ابتلى به غيرهم من الجزع والهلع، فلا جرم أن هؤلاء لهم أجرهم مرتين: أجر ما تحملوا من الشريعة لنفع العوام، وأجر ما اكتسبوا من محبة القوم؛ " المرءُ مع مَنْ أحب " وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

@ { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }

قلت: المرابطة: أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرصاداً لمن حاربهم، ثم أطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عن وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده. المدار على خلوص النية، خلاف ما قاله ابن عطية، وسيأتي صوابه في تفسير المعنى، إن شاء الله.

يقول الحقّ جلّ جلاله: { يا أيها الذين آمنوا اصبروا } على مشاق الطاعات، وما يصيبكم من الشدائد والأزمات، وعلى مجانبية المعاصي والمخالفات، وعلى شكر ما أوليتكم من مواهب العطايات { وصابروا } أي: غالبوا الأعداء في مواطن الصبر، والثبوت في مداحض الحرب، { وربطوا } أبدانكم وخيولكم في الثغور لتحفظوا المسلمين من العدو الكفور، كي تفوزوا بعظائم الأجور؛ قال صلى الله عليه وسلم: " من رَابطَ يَوْماً وَلَيْلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ كَعَدْلِ صِيَامِ شَهْرٍ وَصِيَامِهِ، لَا يَفْطُرُ وَلَا يَنْفَتِلُ عَنْ صَلَاتِهِ إِلَّا لِحَاجَةٍ، وَمَنْ تَوَفَّى فِي سَبِيلِ اللَّهِ - أَي: مَرَابِطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ - أَجْرِي اللَّهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَقْضِيَ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ " ومما يلحق بالرباط: " أَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ بَعْدَ الصَّلَاةِ " ، كما في الحديث:

{ واتقوا الله } فيما يأمركم به وينهاكم عنه، { لعلكم تفلحون } فلاحاً لا خسران بعده أبداً.

الإشارة: { يا أيها الذين آمنوا } إيمان أهل الخصوص، { اصبروا } على حفظ مراسم الشريعة، { وصابروا } على تحصيل أنوار الطريقة، { وربطوا } قلوبكم على شهود أسرار الحقيقة، أو: اصبروا على أداء العبادة، وصابروا على تحقيق العبودية، وربطوا في تحصيل العبودة - أي: الحرية - أو: اصبروا على تحقيق مقام الإسلام، وصابروا على دوام الإيمان، وربطوا على العكوف في مقام الإحسان، أو: اصبروا على تخليص الطاعات، وصابروا على رفض الحظوظ والشهوات، وربطوا أسراركم على أنوار المشاهدات، { واتقوا الله } فلا تشهدوا معه سواء، { لعلكم تفلحون } ، بتحقيق معرفة الله. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.